أهل البيت عليهم السلام

السيدة نفيسة

بقلم
توفيق أبو علم

سرشناسه : ابو علم ، توفیق -

عنوان و پدیدآور . اهل البیت علیهم السلام السیدة نفیسة/ بقلم توفیق ابو علم؛ تحقیق شوقي محمد.

مشخصات نشر تهران: المجمع العالمي للتقریب بین المذاهب الإسلامیة، المعاونیة الثقافیة، الطبعة الاولی ۲۰۰۵م = ۱٤۲٦= ۱۳۸٤ الطبعة الثانیة ۲۰۰۸، ۱٤۲۸، ۱۳۸۶.

مشخصات ظاهری : ۲۳۲ ص.

شابک : 974 964-7994-28-6

وضعیت فهرست‌نویسی فیپا

موضوع : نفیسه بنت الحسن الانور، ۱٤۵ - ۲۰۸ق. - - سرگذشتنامه.

موضوع : زنان مقدس اسلام

شناسه افزوده : محمد ، شوقی ، محقق.

شناسه افزوده : مجمع جهانی تقریب مذاهب اسلامی. معاونت فرهنگی.

رده‌بندی کنگره : ۲ الف ۷ ن /۲/ ۵۲ BP

رده‌بندی دیویی ۲۹۷/۹۷۹

شماره کتابخانه ملی : ۸۲-۱۹۲۱۳ م

اسم الکتاب: السیدة نفیسة (رضي الله عنها)

المؤلف: توفیق أبو علم

المحقق: شوقي محمد

الناشر: المجمع العالمي للتقریب بین المذاهب الإسلامیة – المعاونیة الثقافیة

الطبعة: الثانیة – ۱٤۲۸ هـ.ق ۲۰۰۸ م

الکمیة: ۲۰۰۰ نسخة

المطبعة: نور للطباعة

ردمك: ٦ – ۲۸ – ۷۹۹٤ – ۹٦٤-۹۷۸ ISBN: 978-964-7994-28-6

السعر: ۲٤۰۰ تومان

العنوان: الجمهوریة الاسلامیة في ایران – طهران – ص. ب: ٦۹۹۵ – ۱۵۸۷۵

جمیع الحقوق محفوظة للناشر

قال سبحانه و تعالى:

﴿ إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطْهِيراً ﴾ .

سورة الأحزاب / ٣٣

وقال تعالى:

﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُم عَلَيهِ أَجْراً إِلّا المَوَدَّةَ فِى القُربَى ﴾ .

سورة الشورى / ٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

لقد حفلت المكتبة الإسلامية بكتب جادة وهادفة أخذت موقعها المشرق في مظانّ رفوفها، وتحتلّ مكانةً عند القرّاء، لمساهمتها الواعية في ضخّ التراث الاسلامي بمواد علمية وثقافية وتاريخية كانت من شأنها أن تعزّز أواصر الاخاء والمودة بين أفراد المسلمين.

وذلك لما اتّسمت به من موضوعية في الطرح، وصدق في العبارة، ومحاولة التماس الحقيقة من منابعها الأصيلة، وانتهاج المنهج الصحيح المجرّد عن كلّ الأهواء، وألوان الميول القلبية نحو رحاب الصدق والانصاف والكلمة الطيّبة. وكلّ ذلك ترجمة حقيقة لرغبة صادقة في تصعيد الوحدة والتقارب بين طوائف المسلمين.

ليس المهمّ أن تكون هذه الكتب قد خطّتها أقلام مصرية أو ايرانية أو ايرانية أو عراقية أو سعودية أو ...، أو أن تكون شيعية أو سنّية، بل المهمّ أنّها موضوعية هادفة، تتّخذ من «التقريب» منهاجاً لها وتساهم مساهمة جادّة في هذا السبيل.

ومن هنا ارتأى المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية أن يخطو ـ كما هو ديدنه ـ في هذا الاتجاه خطوةً وهو يتأمّل المزيد من باقي الأطراف، فقام قسم التحقيقات والدراسات التابع له بتبنّي بعض هذه الكتب التي تعنى بالتاريخ والمناقب والسيرة الاسلامية، وقد انطوت على أفكار تقريبية جادة، لغرض طبعها ونشرها بحلّة قشيبة بعد توثيق مصادرها الواردة على يد محقّقين شمّروا سواعدهم لهذا الغرض الشريف، من دون أن تمسّ أصل الكتاب بالمرّة.

ومن هذه الكتب الهادفة: هذا الكتاب الماثل بين يدي القارئ اللبيب الذي يحمل عنوان «السيدة نفيسة» للاستاذ توفيق أبو علم الذي اتحف المكتبة الاسلامية بمجموعة كتب قيّمة، اتّسمت جميعها بالصدق والكلمة الطيبة، واشتملت على جملة أفكار جديرة بمطالعتها ونشرها بين

عموم المسلمين .

وفي الوقت الذي نقدّم شكرنا وتقديرنا للمحقّق الكريم الذي تحمّل عبء هذه المسؤولية ، وقدّم ما في وسعه في هذا الاتّجاه . فانّنا ندعو كافة الأطراف إلى تبنّي هذا السبيل لأجل تصعيد الوحدة التي أمر الله تعالىٰ بها . وتعزيز الأُخوّة والوداد بين المسلمين جميعاً كما أمر به رسوله الكريم ﷺ وأهل بيته وأصحابه، والله ولي التوفيق .

مركز التحقيقات والدراسات العلميّة

التابع للمجمع العالمي

للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة

كلمة المحقّق

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمد النبي المصطفى الأمين وآله الطيبين الطاهرين وعلىٰ صحبه الأخيار المنتجبين.

وبعد، فقد اطّلعت بشغف كبير وعناية فائقة على كتاب «السيدة نفيسة» للأستاذ توفيق أبوعلم، والمتكوّن من قسمين يشكّلان عنصري البحث مع مقدّمة مختصرة:

الأول: مكانة أهل البيت ومنزلتهم العظيمة في الإسلام، مدعومة بأدلّة نقلية من الكتاب والسنّة الشريفة، من خلال إيراد آيات من الذكر الحكيم أجمع المفسّرون عليها، يرفقها حشد هائل من الروايات والأخبار الصريحة في ذلك، بعد ما أتىٰ على المعنيّ من «أهل البيت» الواردة في آية التطهير من أقوال وآراء فيها. والمراد من القرابة التي جاء ذكرها في آية القربىٰ.

ولا أخال أحداً لا يعلم أنّ الحديث عن مكانة ومنزلة هذا البيت الشريف هو حديث طويل وممتدّ إلىٰ مديات مختلفة، وبحث عريض وواسع يشتمل علىٰ فروع متشعّبة، ثم هي بدورها تتفرّع إلىٰ بحوث ثانوية شتّىٰ تحمل موضوعات كثيرة ومتنوعة، تتصل كلٌّ منها بجانب من جوانب حياة المسلمين الاجتماعية والتربوية والادبية و.... فلا يتسنّىٰ لأحد ـ مهما أوتي من مقدرة وإمكانيات في هذا المجال ـ أن يخوض عباب هذا البحر لوحده، أو يقتحم هذا الميدان العريض بمفرده، وإن حاول فعليه أن يعمل دهراً طويلاً، ويبذل جهداً غير عادي في سبيل ذلك، وقد يبلغ بعض هدفه وليس الهدف كلّه!

وهيهات أن يبلغ ساحل ذلك البحر، أو أن يدرك طرف ذلك الميدان:

آل الرسول ونعم أكفاء العلى آل الرسول

خير الفروع فروعهم وأصولهم خير الأصول

ذلك لأنّ الحديث عن فضائلهم ومناقبهم، وترجمة شخصياتهم وأعلامهم، وما قضوه

من دور في الساحة الاسلامية بجميع مواقعها، هو حقّاً مقام لا يرقى إليه إنسان مهما بلغ من العلم والمعرفة والاطلاع الشيء الكثير، ولا يحطّ عليه أديب مهما أوتي حظّاً من البراعة في الأسلوب، والروعة في البيان، والحلاوة في التعبير.

والسبب في ذلك يعود إلى أنّهم من أسرار الوجود، أودعه الله سبحانه في هذا العالم ليقوم به عماد الحقّ بين خلقه، وتستضيء به أرواح الناس الطيبة في آفاق الفكر والرشاد والتبصّر والهداية، وهم أهل العلم وسماته قبل غيرهم «اصطفاء من الله قبل أن يكون اجتهاداً من عند أنفسهم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومودّتهم إنّما هي للأخذ لا للعطاء، للتعلّم لا للتعليم».

وبذلك كان آل النبي ﷺ يشكّلون امتداداً متنامياً للرسالة الخالدة، وكادراً وظيفته حفظ دين الله بين عباده، ولهذا فقد كان العلماء على مدى الزمن «عالة على علم أهل البيت».

وإلى هذا يقول الشاعر:

آل النبي محمد ... أهل الفضائل والمناقب
المرشدون من العمى ... والمنقذون من اللوازب
الصادقون الناطقون ... السابقون إلى الرغائب
فولاهم فرض من ... الرحمان في القرآن واجب

وهذا الكتاب ـ الذي بين يديك ـ رغم صغر حجمه، يعدّ إحدى المحاولات الجادّة في هذا الطريق الطويل، ويمثّل إحدى التجارب العملية في خوض عباب هذا البحر المترامي الأطراف، الغرض منه البحث والدراسة لجزء من حياة أهل البيت الذين كانت حياتهم حياة مثلى، أعطت للبشرية نموذجها الأسمى، وطريقتها الفضلى، لترسم منهجهم السليم، وتسير على هداهم القويم.

ولكي يكونوا مناراً لرشاد الأمة وهدايتها إلى الصواب، لابد من توفّر مقوّمات خاصة لشخصيتهم الفذّة، هذا المقومات تمثّل الأسس المبدئية لكونهم ائمة هداة مهديّين، ترجع إليهم الأمة في أيام شدّتها وعسرها، وتستغيث بهم أوقات محنتها.

ومن خلال دراسة هذا المقوّمات والمؤهّلات يتبيّن لنا السرّ الكامن في اختيار الله ورسوله لهؤلاء المكرمين ائمة للأمة وهداة لها على طول مراحل مسيرتها التاريخية، وفرض

مودّتهم وولايتهم عليها، وجعلها الأجر على إبلاغ رسالته.

والمتتبّع لفصول الكتاب يجده دراسة جديرة بالاهتمام والمطالعة في هذا الباب، قد بذل كاتبها جهداً علمياً وفكرياً هادفاً لأجل بيان بعض مقوّمات الشخصية المثلى التي يتمتّع بها أفراد أهل البيت، وكاشفاً ـ في الوقت نفسه ـ عن حجم وثقل موقعهم في الأمة على كافة الأصعدة.

إنّ التعرّض إلى ترجمة إحدىٰ الأسماء اللامعة من أبناء هذا البيت بحثاً وتعريفاً، وما شغلته من موقع في التاريخ، إنّما يضمّ جملة معانٍ سامية وهادفة في هذا السبيل، لا ينفكّ عن كونه دراسةً في حياة أهل البيت، وبحثاً في مناقبهم وفضائلهم الجليلة، وغير بعيد أن يكون بحثاً عقائدياً وتاريخياً بالجملة. وهذا ما تصدّىٰ إليه المؤلّف في القسم الثاني من كتابه هذا.

والثاني: سيرة السيدة نفيسة الدارين وعلمها، وأخلاقها، وعبادتها، وتعاملها مع الناس وعلاقتهم بها. ولاشكّ أنّ من يتأمّل حياة وسيرة هذه المرأة العظيمة تستفيق أمامه كلّ لحظات الأمل المترشحة عن تعقيدات وضع الأمة الحالي، لتعود إلى وعيها وتراثها فتستمدّ منه أروع ما خلّفه أبناء هذا البيت الكريم من سلوك وأخلاق، ودرر من الحكمة والمعرفة، ومنهج في الدفاع عن الحقّ والحقيقة أثار دهشة التاريخ وإعجابه به.

فإنّنا لو كنّا إزاء دراسة حياة شخص أو أشخاص آخرين من غير هذا البيت، لاستطعنا بكل يسر أن نفصل الموقف العلمي أو الأدبي الهادف عن كلّ المواقف الأخرىٰ من فردية أو اجتماعية، ولتمكّنا بسهولة أن نتصدّىٰ بحثاً ودراسة للجانب الذي أبدع فيه هذا الشخص أو ذاك، وما قدّم من مواقف خلّاقة تجاهه، بحيث صار تراثاً خالداً له يشير إلىٰ عمق رؤيته.

أما وإنّا نحاول دراسة حياة أُناس تعدّ كل جنبة من جنبات حياتهم قدوة حسنة، وكلّ سلوك مارسوه منهجاً صالحاً ومنظّماً وفق قواعد شرعية وتعليمات ربّانية، ويعتبر كل موقف أدبي أو علمي أو تعاملي أبدوه جزءاً من أوامر السماء ونواهيها، بل كلّ لفظة تشكّل حلقة من حلقات الهداية للبشرية جمعاء.

وقد امتدّ هذا السلوك الذي اتّخذ طابعاً منهجياً منظماً وسامياً إلى أبنائهم وأحفادهم فضلاً عن تلاميذهم وتابعيهم، بل بلغ بالأبناء ثم الأحفاد أن صاروا يمثّلون آباءهم وأجدادهم في المحافل المختلفة، ويعيدون تلك السلوك والمواقف جميعاً، ثم يعزون كل تلك التصرّفات

إلى أولئك الطاهرين الذين شكّلوا مدرسةً تنادي بالعلم والحكمة والعمل الصالح، فكانوا امتداداً لحركة النبي الأعظم ﷺ ودعوة مسدّدة إلى دينه القويم.

إنّ هذا الانتماء الذي جسّده الأبناء والأحفاد في سلوكياتهم ومواقفهم المتعدّدة، وطرق تعاملهم مع الناس وعلاقتهم بهم، لدرجة أن صار يُعرفون بأهل البيت أنفسهم، كما هو الحال باتباعهم وشيعتهم الذين مثّلوا مدرسة أهل البيت، ونشروها في أطراف الأرض، بعد ما جسّدوا مبادئها وقيمها حقيقةً، صاروا يُعرفون بهم ويقرنون بأسمائهم وتاريخهم.

وليس من شكّ إذا ما تأمّلت الأمة مواقف وسلوك هؤلاء الأبناء وأبنائهم من بعدهم، فسوف تعود إلى وعيها الذي كادت تفقده، وتتوجّه إلى تراثها الغزير الذي أهملته، فتستمدّ منه أروع الأمثال والحكم من أجل بناء حياة أفضل لأجيالها المتعاقبة، وتأسيس مستقبل زاهر لها.

والسؤال هنا: تُرى كيف صاروا كذلك؟

وكيف بلغوا بها حتّى ارتقوا هذه المنزلة الرفيعة؟

خصائص رفيعة:

لقد اتّسمت مدرسة أهل بيت محمد ﷺ بعدّة خصائص رفيعة وبارزة، إلى حدّ جعلتها ترتفع عن جميع المدارس الإلهية ـ فضلاً عن الوضعية ـ التي كُتب لها الوجود على سطح البسيطة، وتبلغ منزلةً سامية دقّت سنام الخلود، لدرجة أن لا يمكن لأحدٍ أن ينكرها أو يتغافل عن دورها الكبير في نمو وتطوير حركة المجتمع الاسلامي على كافة الأصعدة، أو يخفي أثرهم في الحفاظ على كيان الأمة ووحدتها في جميع الأطوار التاريخية التي مرّت بها.

ورغم أنّ حركة هذه المدرسة قد واجهت عقبات كثيرة ومختلفة في أغلب مراحل مسيرتها التاريخية، و تخلّلتها في بعض الأحايين القسوة المفرطة والمواجهة الشرسة التي مارستها أطراف متباينة، إلّا أنّها قد واصلت طريقها بكلّ قوة وثبات، متجاوزة كلّ العقبات المعترضة، غير عابئة بكلّ الإجراءات، منجزة وعدها في تقديم الخدمات الجليلة للأمة على كافة الأصعدة، ونصرة الدين والرسالة المحمدية الأصيلة في جميع الميادين.

مسيرتان و.. صراع:

فالإنسانية حينما تنطلق في مسيرتها المتكاملة، فانّها تحتاج إلىٰ فكر خلّاق ونيّر، ينتقل بها من عالم التأمل الخالص إلىٰ المجالات العلمية البنّاءة، ويحرّض فيها ما أودع في فطرتها وتركيبها النفسي والروحي والجسمي من طاقات وإمكانيات كامنة. وقوىٰ جبّارة مبدعة مودعة فيها. ليحقّق بها مقتضيات الخلافة التي منحها الله تعالى إيّاها وشرّفها بها. بل وسما بها إلىٰ مرتبة كان يحلم بها الملائكة المقرّبون.

لكن في المقابل برز الكفر الهدّام الذي انطلق بتحريض من الشيطان وأتباعه، ينهش في الفطرة النقية، ويمكّر صفوها، ويطفئ إشراقها، بمعونة اثنين: الجهل المطبق، وأقطاب الشرّ والظلم.

وهكذا وضع على المسرح مسيرتان:

إحداهما: تتجلّىٰ فيها معطيات الهداية والإبداع والعمل الصالح.

والثانية: تتجلّىٰ فيها معالم الانحراف والتراجع والانكماش.

فكان لا بدّ أن ينجم صراع، وتلتحم المسيرتان في معركة ومواجهة شرسة بينهما. فالأولى ترى الثانية أشواكاً زرعت في طريق التكامل والبناء والتطوير، والأخرىٰ تنظر إلى الأولىٰ من كونها مسيرة تشكّل خطراً علىٰ مصالحها وشهواتها، وعقبة كبيرة أمام أطماعها، وحربة مسدّدة تطعن جبروتها باستمرار.

وشاءت العناية الإلهية بلطفها أن تنتصر للمسيرة الأولى، وتصطف إلى جانبها في صراعها مع الأخرىٰ، من أجل حسن نمو الإنسانية وتكاملها، ضد المسيرة الثانية التي تدعو إلى الضياع والحياة في الهامش.

قادة مثاليّون:

لكن لا بدّ لهذا العملية من قادة مربّين، يمتلكون المؤهّلات العظيمة والطاقات الخلّاقة التي تنعدم في الآخرين، يمكنهم بواسطتها من قيادة الصراع، والتأثير في نتائجه، لبلوغ الخطط الإلهية التي من شأنها استهداف أعظم الغايات في حياة الانسانية.

فكان الأنبياء هم القادة لاستلام زمام دفّة السفينة الانسانية العظمىٰ، والسير بها باتجاه التكامل والسعادة في الدارين، وهم سبل النجاة للبشرية التائهة في مسالك الهلكة

والانحراف الرهيب.

فهذه المهمة الجبارة تعدّ عبءاً ثقيلاً، ومسؤوليةً كبيرةً، لا يستطيع أحد حملها إلّا من اصطفاه الله سبحانه، وأعطاه الذهنية الوقّادة، والنفس العالية الهمم، ووهبه العزم الذي لا يخور بحال، وامتلك تربية سامية تتناسب وعلوّ الهدف... .

وهكذا تقلّد الأنبياء هذه المسؤولية العظيمة.

لكن هذه العملية، لا يمكن أن تتمّ خلال فترة قصيرة وإن كانت محفوفة بجهودهم العظيمة، وذلك للركام الهائل الذي تشبّعت به الذهنية الإنسانية الجاهلة من مسبقات خطرة عشعشت في صميمها بدرجة كبيرة، فلم يكن ممكناً إزالته في مدّة قصيرة، خاصة بعد أن غمرت وجودها من قبل لفترة طويلة.

فكان من الطبيعي جداً أن تحتاج هذه العملية إلى قادة مثاليّين يواصلون سير العملية، ويجسّدون تعاليم السماء، ويشكّلون امتداداً لشخصية الأنبياء وكفاحهم، من حيث المهام التي يقومون بها تجاه الهدف السامي، والقدسية والسموّ والإحاطة والقدرة والذهنية الربانية أيضاً وإن افترقوا عنهم في مجال الوحي.

وهكذا كان الأوصياء.

ولما كان الإسلام هو الحلقة الأخيرة من حلقات البيان السماوي، والرسالة الخاتمة التي بعثها الله سبحانه للبشرية جمعاء، وقد جاءت في مرحلة النضج البشري، لتطرح نفسها أمام العالم والكون برمّته رسالةً إلهيةً خالدة، لها القدرة على أن تتجاوز الزمان والمكان، وتنظم حياة البشرية جمعاء في جميع أطوار حياتها على سطح الأرض. فكان لابد أن يحتاج كل ذلك إلى جهود مضاعفة ومتواصلة مع الزمن حتّى يأخذ الله الأرض ومن عليها، خاصة ويشتمل هذا الزمن الطويل على مراحل يسود فيها الانحراف العقائدي الرهيب تارةً، والفوضى العملية القاتلة أخرى.

فمن الطبيعي جداً ـ والحال هذه ـ أن يحكم المنصف بأنّ الإسلام باعتباره يمتلك برنامجاً عالمياً وخالداً، بحاجة إلى قادة مثاليّين معتمدين يجسّدون تعاليم الاسلام وقيمه الصحيحة على أحسن وجه، ويشكلون بنفس الوقت امتداداً لشخصية نبي الاسلام محمد بن عبدالله ﷺ من جميع الجهات.

وهكذا شاء الله تعالى أن ينشأ علي عليه السلام في حجر النبي ﷺ، يغذّيه ويربّيه وينهله من

ري الاسلام النقي الطاهر، وينمو وجوده ليضحىٰ قرآناً ناطقاً، وإيماناً حقيقياً صادقاً، وعقلاً فذّاً، وذهنيةً خلّاقة وقّادة، وشجاعة نادرة، وعزم منقطع النظير، و...، فهو الوجود المعجزة.

وأخيراً كان الحدث العظيم علىٰ ملأ لم يجتمع مثله من قبل، ليعلن النبي القائد الأمين نداء الوحي: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهمّ وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقّ حيث دار».

وكانت المهمّة العظمىٰ هذه قدر بطت الواقع بالمستقبل الصاعد، ومواصلة المسيرة بامتداد ضروري في علي عليه السلام وأولاد علي عليهم السلام الطاهرين المنتجبين.

وهكذا تدفّقت النصوص النبوية لدعم هذه العملية الإلهية وتأييدها، فتارة عبّرت عنهم بسفينة نوح، وأخرىٰ بأحد الثقلين، وثالثة بأصحاب الكساء أو العباء....وهذه التعابير قد جمعها المؤلّف أثناء التعرّض لها، وبيان المراد منها، كما سيلاحظ من تتبّع فصول هذا الكتاب حتّى آخره.

والأمة بعد أن وعت الحقيقة، وأدركت هذا عن أهل البيت، وعرفت يقيناً جوهر سلوكياتهم من الآباء الطاهرين، وحتّى من الأبناء والأحفاد ضمن سلسلة ذهبية ممتدة عبر الزمان، فانطلقت تقدّسهم أيّ تقديس، رغم كل الحملات التشويهية والمزاعم الكاذبة من أجل التشكيك بصورتهم الناصعة.

وبقي أهل البيت عبر أجيال الأمة مقدّساً في ضميرها، يسمو على كل الشبهات والأباطيل.

ترىٰ ما هي السمات التي بلغت بأهل البيت كلّ هذا المنحىٰ السامي الرفيع؟ وما هي المقوّمات التي رفعتهم إلى القمم حتّىٰ دقّوا أبواب المجد والخلود؟

ثروات غزيرة:

إنّ الثروة الثقافية والفكرية الغزيرة التي خلّفها أهل البيت: للبشرية عامةً، وللمسلمين خاصةً، كانت تمتاز بالعمق الفكري والأصالة الإنسانية، ممّا جعلتها تنشر أجنحتها علىٰ مساحات واسعة من أطراف الدنيا، وتبسطها علىٰ قطاعات كبيرة من الثقافات الإنسانية الأخرىٰ، وإن حالت دون إشعاعها غيوم من الجهل والجمود، لكن سرعان ما تبدّدت هذه الغيوم وانحسرت بفضل ما امتازت بها هذه الثروة الخلّاقة العظيمة من فضل ومجد عظيم.

إذ قدّمت هذه الثروة جملة من الحلول الناجعة للمسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية المستعصية التي واجهت الدولة الاسلامية في جميع أطوار حياتها. ولم تتوان في إرساء دعائم الدولة وتقوية أركانها أمام هجمات وغزوات الآخرين، من دون أن يحول بينها وبين تقديم هذه المعونة أيّ مانع، مقدّمة مصلحة الأمة والدولة الاسلامية على مصالحها الشخصية ومنافعها الذاتية.

فقد اشتهر عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام أنّه أنقذ الدولة الاسلامية وكيان المجتمع لاكثر من مرّة من سلسلة الهجمات والتهديدات التي كان يمارسها ملوك الروم آنذاك.

ولعلّ أهمّها وأخطرها تهديد ملك الروم في عهد عبدالملك بن مروان، الذي استغلّ حاجة المسلمين إلى النقد لإذلالهم وطعن الدولة بطعنة اقتصادية مميتة، فاستدعى الخليفة الأموي أصحاب الخبرة في المجال الاقتصادي، فاعتذروا بعدم معرفتهم بالأنظمة النقدية، وجهلهم الكامل بهذا الموضوع. فلا محيص من الخضوع لإرادة الروم في هذا الجانب الحيوي والخطير للدولة، وهذا يعني سقوط الدولة اقتصادياً ثم سياسياً، حتّى قيل له بالامام علي بن الحسين: «فهو ركنك الوثيق» فراجعه. فأجابه ولم يبخل عليه بجواب يحلّ معضلة الدولة الراهنة، فاقترح عليه خطّة جديدة تهدف الاستقلال التام في السياسة المالية، من خلال استحداث عملة اسلامية رسمية موحّدة ومستقلّة يمكنها من تحدّي النظام الاقتصادي العالمي آنذاك وتنافسه. فوضع له برنامج عمل دقيق في هذا الاتجاه، كما وضع له أنموذجاً للمسكوكات الجديدة، تحمل الصفات العالمية، وترفع شعار الدولة الاسلامية، لتضاهي عملات الآخرين وتنافسها، فأنقذ بذلك الدولة والمسلمين من هذه المعضلة التي كادت تنهي الدولة، وتأتي على كيان الأمة، وأوجد لها عزّاً وكرامة لا يضاهيان[1].

لقد كان هذا مصداقاً حيّاً لما تمتّع به أهل البيت من أصالة وموضوعية تجاه القضايا الحادثة في مواجهة الدولة الاسلامية، وبُعد نظر وعمق رؤية تجاه الأحداث الحاصلة في طول المسيرة الانسانية الكبيرة.

فلم يفكّروا مرة واحدة باستغلال الفرص المتاحة لهم، أو يمرّروا في ذهنهم فكرة

---

(١) راجع تفصيله في مختصر تاريخ دمشق: ج ١٧، ص ٢٣٠.

الانتقام من خلال الاستفادة من هذه المواقف، بل كانوا على العكس تماماً، لا ينقطعون عن الأعمال والمشاريع العامة التي تخدم المسلمين وتبغي توعيتهم وتثقيفهم، من خلال إقامة صلاة الجمعة والجماعة والعيدين، وإبراز الثقافة الاسلامية الأصيلة، وتعزيز مكانة الدين في كافة السطوح، ودفع الشبهات التي يثيرها الأعداء، ومواجهة الأوهام والشكوك التي يظهرها الزنادقة والملحدين بين الفينة والأخرى، ومحاربة التيارات العقائدية الفاسدة، ومقارعة الميول الفكرية المنحرفة والهدامة[١].

جامعة إسلامية:

فأضحت بيوتهم دور علم ضخمة، وجامعات كبيرة يقصدها أصحاب الحاجة وطلّاب العلم والمعرفة، تموج بالحركة والنشاط لنشر الدين الأصيل، وتربية جيل قادر على مواجهة الصعاب التي تعتري الانسانية في مسيرتها الطويلة.

يقول الأستاذ محمد صادق نشأت المصري، الاستاذ في كلية الآداب بجامعة القاهرة وهو يصف دار الإمام الصادق عليه السلام: «كانت كجامعة كبيرة، تموج بالحكماء والعلماء، يجيب اسئلتهم، ويحلّ مشاكلهم، دون الالتفات الى نحلهم ومذاهبهم، أوفروقهم ومقاصدهم، وقد جمع أصحابه المقرّبون إليه دروسهم في أربعمائة كتاب، وسمّوها: الأصول الأربعمائة»[٢].

وكتب عبدالقادر أحمد يوسف وهو يتحدّث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول: «وتاريخ الإمام الرضا حافل بجلائل الأعمال، فمن علم لا يدرك مداه، وعصمة متوارثة، وقدسية لاتضارعها قدسية في عصره...»[٣].

تجليل و تقديس:

إنّ العمق والأصالة والخلق الكريم الذي تحلّى بها جميعاً ائمة وعلماء أهل البيت عليهم السلام هي التي دعت ائمة المذاهب الفقهية والفلسفية والعقائدية الى احترامهم، وإبداء

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء: ج ٤، ص ٣٩٧، وشرح نهج البلاغة: ج ٨، ص ١٢١.

(٢) أشعة من حياة الإمام الصادق: ج ٣، ص ٥٨.

(٣) الإمام الرضا: ص ١.

الإعجاب بهم والإطراء عليهم، بل وتقديسهم الى حدّ كبير.

يقول الإمام مالك في الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «ما رأت عيني وسمعت أذني ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادةً وورعاً»[١].

ويذكر الاستاذ محمد أمين غالب في كتابه «تاريخ العلويّين»: «إنّ الإمام أباحنيفة سئل مرة: إذا قيل عن البعض انّه وقف ماله للإمام ـ أي أطلق في لفظه الإمام ـ فمن يكون المستحقّ له؟ فقال مجيباً: يكون المستحقّ جعفر الصادق، لأنّه هو الإمام بالحقّ». ثم عقّب المؤلّف فقال: «وكانت هذه الفتوى منه سبباً لنقمة العباسيّين عليه وإنزالهم به بعض المظالم»[٢].

وحسبك أشعار الإمام الشافعي التي تقطر عذوبة وطراوة في المدح والإطراء والثناء على آل محمد صلى الله عليه وآله ممّا ذاعت في كل الأمصار، واشتهرت في جميع الأعصار.

ويذكر أنّ الإمام أحمدبن حنبل رغم براعته وعلمه كان يتعامل مع ائمة وأبناء أهل البيت عليهم السلام كمراجع له، منهم يأخذ بعض الأحكام، وعنهم يروي بعض الاستدلالات، وينزل عندهم برأيه. فقد حكى ابن حجر في الصواعق عنه قوله: «أخذت أحكام البغاة والخوارج من مقاتلة علي لأهل الجمل وصفّين»[٣].

وفي إثبات خبر الواحد يقول: «وجدت علي‌بن الحسين وهو أفقه أهل المدينة يعوّل على أخبار الآحاد»[٤].

بل وينقل ابن النديم في كتابه أنّه ذكر له أحدهم مسألة فأجاب عنها، فقال له الرجل: خالفت علي‌بن أبي‌طالب، فقال: إثبت لي هذا عن عليّ بن أبي طالب حتى أضع خدّي على التراب وأقول: قد أخطأت، وارجع عن قولي الى قوله»[٥]. ويكفي أنّه قال في حقّ

---

(١) تهذيب التهذيب: ج ٢، ص ١٠٤، التوسّل والوسيلة لابن تيمية: ص ٥، الإمام الصادق والمذاهب الاربعة: ج ١، ص ٥٣.

(٢) تاريخ العلويّين: ص ٢٠٠.

(٣) الصواعق المحرقة: ص ٤٠ من كتاب تطهير الجنان.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ١٥، ص ٢٧٤.

(٥) الفهرست: ص ٤٤١.

أمير المؤمنين علي عليه السلام: «علي بن أبي طالب من أهل بيتٍ لا يقاس بهم أحد»[١].

ولعلّ هذا ما دعا بالشيخ الاكبر محيي الدين ابن العربي أن يقول نظماً:

فلا تعدل بأهل البيت خلقاً ... فأهل البيت هم أهل السيادة

فبغضهم من الإنسان خسر ... حقيقي وحبّهم عبادة[٢]

إنّ العمق في التفكير، والموضوعية في السلوك، والأصالة في الثقافة، والاستقامة في التشخيص والبناء، كلّ ذلك جعلت أهل البيت يمتلكون الدليل تلو الدليل على الامامة والمرجعية العلمية للانسانية التائهة، ثم الحنكة الإدارية والتربوية التي من خلالها استطاعوا أن ينزلوا واقع التشريع الاسلامي وقيمه الإخلاقية إلى حيّز التطبيق، واستيعاب المشاكل التي تعترض ذلك ومعالجتها العلاج الاسلامي المناسب رغم اختلاف المناخات المكانية والزمانية.

فكوّنوا من خلال ذلك أشبه بمدرسة عظيمة وفخمة، تضمّ كوادر علمية متمرّسة، وخرّجت وجوهاً لامعة في حقول مختلفة من الحياة: الفقه والسياسة والكلام والاخلاق والفلسفة و... باقي العلوم الانسانية والتجريبية، فكان لها الدور البالغ في تطوير العلوم والعمران، وارتفاع المستوى الحضاري للبلاد.

كتب المستشرق دوايت في كتابه الموسوم بـ "عقيدة الشيعة" يقول:

«لقد ساهم عدد من تلامذة الصادق مساهمة عظمى في تقدّم علمي الفقه والكلام، وصار اثنان منهم وهما: أبوحنيفة ومالك بن أنس فيما بعد من أصحاب المذاهب الفقهية، وكان واصل بن عطاء رئيس المعتزلة، وجابر بن حيّان الكيميائي الشهير من تلامذته أيضاً»[٣].

وكان ابن حجر يقول: «جعفر بن محمد، نقل عنه الناس من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان، وروىٰ عنه الائمة الأكابر كيحيىٰ بن سعيد، وابن جريج، ومالك، والسفيانين، وأبي حنيفة، وشعبة، وأيوب السجستاني»[٤].

---

(١) المناقب: ص ١٦٣.

(٢) الفتوحات المكية: ج ٤، ص ١٣٩.

(٣) عقيدة الشيعة: ص ٣٧٢.

(٤) الصواعق المحرقة: ص ٢٠١ الفصل الثالث: «في الأحاديث الواردة في بعض أهل البيت».

ومن قبله كتب الجاحظ العلّامة المعروف يقول في هذا السياق:

«جعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه. ويقال: إنّ أباحنيفة من تلامذته. وكذلك سفيان الثوري. وحسبك بهما في هذا الباب»[١].

وقول الطبيب الشهير بختيشوع في الإمام الحسن بن علي العسكري:

«هو أعلم في يومنا هذا بمن هو تحت السماء»[٢].

خلّاقية ممتدة:

ثم إنّ حركة أهل البيت التربوية والإخلاقية قد امتدّت الى جميع جوانب الإنسان ومجتمعه، لتمسّ حياته الفكرية والثقافية والاجتماعية والروحية، وحاجات مجتمعه وبيئته التي تحيط به. فلم يبخلوا برأي قدّموه في سبيل حلّ مشكلات الإنسان المسلم المادية والروحية، ولم يمنعوا معونة لخدمة مسيرة الدولة وهي تجتاز الموانع والصعوبات المعترضة أمامها على طول مراحل بنائها التاريخية، وإرساء دعائمها، وتثبيت أركانها على كافة الأصعدة الداخلية والخارجية، وتقوية شوكتها أمام الهجمات المتعدّدة التي يشنّها الاعداء والمخالفون.

ذلك لأنّ إحدى وظائف أهل البيت الكبرى هي حماية الإسلام والدفاع عنه ولو اقتضى التضحية بالغالي والنفيس، ولمّا كانت المصلحة الاسلامية تقتضي حماية الدولة الاسلامية الفتية التي هي بمثابة الحاضن الأساسي والرئيسي لرسالة الإسلام على الأرض، فكان الواجب يقتضي توفير الحماية للدولة من دون النظر الى الحاكم وشخص الخليفة.

وعلى هذا الاساس كانت سيرتهم عليهم السلام تتمثّل في السعي الدؤوب في إيجاد كلّ ما يساهم في إنشاء الوضع الأفضل للاسلام والمسلمين في جميع اطراف الأرض المعمورة، ليكون الإسلام هو الحاكم على أفكار وعواطف واخلاق وسلوكيات البشرية جمعاء، وعلى كافة الأصعدة الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتعليمية، وليس تختصّ في مجال الفقه والكلام فحسب، وتكون المصلحة أيضاً هي المحور الذي ينبغي أن تدور حوله حركة المسلمين والأمم الاخرى، بعيداً عن العقبات التاريخية والجغرافية، والموانع

---

(١) رسائل الجاحظ للسندوبي: ص ١٠٦.

(٢) جوهرة الكلام: ص ١٤٧.

النفسية المتمثّلة بالوطنية والقومية والقطرية.

ومن هنا فقد ترجم ائمة وعلماء اهل البيت عليهم السلام وأبناؤهم هذه المفاهيم والقيم والأخلاق الرسالية العالية في سلوكياتهم ومناهجهم وسيرهم، وطووها في ممارساتهم اليومية وعلاقاتهم مع الآخرين، وجسّدوها في أقوالهم وأفعالهم واقعاً حيّاً وملموساً، عرفه الكبير والصغير، العدوّ والصديق.

ففي هذا الكتاب نقرأ أنّ السيدة نفيسة الدارين تنطلق من مدينة جدّها وأبيها، وفي ظلّ ظروف خاصة لتهاجر إلى أرض بعيدة عن منازل أهلها وعشيرتها. وتقطع مسافة طويلة تتخلّلها صحاري قفار إلى أرض مصر، بعد أن تزور قبر جدّها نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام، متجاوزة كلّ العقبات الجغرافية، والموانع النفسية، لتحطّ رحالها على أرض النيل، ليس إلّا لشيئين:

الأول: هروبها من واقع مأساوي خاصّ كان يلحق بها ضغوطاً نفسية وغير نفسية.

الثاني: لنشر العلم والمعارف المحمدية الأصلية في ربوعٍ يمكن أن تعدّ بعيدة عن مدينة جدّها الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيتها وعشيرتها.

وقد تكلّل سعيها بالنجاح الباهر، لما سلكت من سلوك تربوية وأخلاقية هادفة، وانتهجت منهجاً علوياً كريماً، يحكي قيماً وأخلاقاً ومواقف كريمة، مستهدفةً بناء الهيكل الاجتماعي الرصين، وبثّ روح العبادة والإيمان في نفوس سكان هذه البلاد، ونفي كل الشوائب والعقبات التي تحطّم ـ أو تكاد ـ معنويات الناس، وتتخم الوجود بالفراغ والانحطاط.

ولم يكن عملها ليتكلّل بالنجاح لولا توافر عناصر أصلية فيها، أهمّها:

١ ـ الإخلاص: فقد كان إخلاص هذه السيدة للخطّ الإنساني جميعاً، أي أهدافها كانت منشودة إلى الهدف الإنساني الكبير، ولم يقتصر على المسلمين فحسب، بل تعدّى إلى باقي أتباع الديانات الأُخر. فتقديمها المعونة لأفراد المجتمع، وتلبيتها لطلبات بعض الناس، من اليهود وغيرهم، إنّما هي نماذج عملية أصيلة تصبّ في هذا الاتجاه.

ذلك لأنّ الإخلاص هو روح كل عملية وسلوك كان يقوم به أبناء وأحفاد هذا البيت الكريم، ولم يتجرّدا منه لحظة، لأنّهم يعلمون علماً يقيناً أنّه لو تجرّدا منه فهما ميّتان، ينخر منهما العداء للإنسانية نفسها وإن بدا منهما عطاء وافر!

٢ ـ العقائدية: لقد كانت أعمال وتصرّفات هذه السيدة الجليلة تنطلق من دوافع أخلاقية وعقائدية دينية بحتة. تهدف من ورائهما إصلاح شؤون الناس وقضاء حوائجهم على أساس مبدأ عقائدي متين، متجذّر في الأعماق فكرةً وانطلاقاً وهدفاً. يقوم على أساس إرضاء الله تعالى وحده، واستجلاب ثوابه. ولم يكن سطحياً مرتجلاً، ولا خاوياً ولا مرائياً.

فأهل البيت لم يقوموا بعملٍ لأحد. أو يقضوا حاجته إلّا بعد أن يترجموا نظرتهم تجاه هذا العمل، ويدفعوا الإنسان المقابل إلى التأمّل في أعماقه وفيه، فيحرّكوا ـ بذلك ـ فيه طاقة حركية فعّالة لها الاستطاعة على الإبداع والحركة والانطلاق إلى الامام.

وهذا ما نشاهده كثيراً إذا ما طالعنا سيرة أيّ أحدٍ منهم، إنّهم يتبعون أجوبتهم العملية وقضاء حاجات الناس على اختلافها واشكالها، بإشعاع من الكلام الحكيم يطيب بها نفس الإنسان المقابل مهما بلغ به الأمر من القسوة أو الجهل.

وإنّهم إذا ما واجهوا معارضةً، وسلوكاً منافياً من جهات قد تمتلك القوة والسلطان، تراهم يقومون بالاحتجاج عليهم استناداً للمبرّرات التي تمنحهم الحقّ في الاعتراض والمحاججة. وتعينهم الظروف على ذلك. وإلّا فإنّهم يلوذون بالصمت والصبر.

يحدّثنا هذا الكتاب من خلال فصوله ـ كما سنرى ـ موقف هذه السيدة العلوية تجاه حاكم ظالم، ضجّ أهل مصر منه إليها، واستغاثوا بها عليه، يرجونها أن تكلّمه وتنصحه، ويكفّ أيديه عنهم، فبادرت إلى ذلك بكل شجاعة، لكنّها حافظت في الوقت نفسه على شيئين اثنين:

الأول: أدب الاعتراض القائم على الحوار الهادئ والنقاش العلمي الموضوعي، من دون أن تتخلّله حسّاسية مفرطة وعواطف شخصية جيّاشة، ولم يتعدّ الى غيره من الوسائل التي تحمل طابع الخشونة والشراسة.

فلم يستخدم أهل البيت عليهم السلام لأجل تحصيل ثمرة مخالفتهم ومعارضتهم الأساليب الملتوية والماكرة في تأليب الأوضاع، وايجاد التشنّجات في مجتمع المسلمين الذي قد تراق فيه دماء بريئة، رغم تلقّيهم عروضاً كثيرة تبنّتها بعض أطراف المعارضة الأخرى لقيادة قوة المعارضة المسلّحة، وتوجيه الغضب الشعبي ضد القيادة الحاكمة. رفضوا كل ذلك تمسّكاً بأخلاقهم ومبادئهم.

والثاني: المصلحة الاسلامية العليا التي فرضت على ائمة هذا البيت الكريم أن

لايسلكوا سلوكاً يؤثّر على مسير الدولة الفتية، وينقص من مكانتها وهيبتها بين الناس وهي في بداية حياتها الجديد.

لقد جسّدوا فعلاً بصورة عملية، هذه الأخلاق الرفيعة في سيرة حسنة، بعد ما تركوا جميع الخيارات الأخرى، ولم يلتزموا موقفاً تجاه هذا الحدث أو ذاك من شأنه أن يمزّق وحدة المسلمين وإضعاف الدولة الفتية. ولم يسلكوا طريقاً يعرّض فيه الدين والملّة إلى خطر ولو يسيراً.

وهم بذلك يثبتون الخطوات الأولى للحركة التقريبية الوحدوية في الإسلام.

مواقف خالدة:

إنّ المواقف التي سجّلها لهم التاريخ بمجموعها تدلّ على أخلاق أهل البيت عليهم السلام وتجرّدهم الكامل عن الذات، وذوبانهم التام في المصلحة الاسلامية، وهذا النهج لايمكن أن يلتزمه إلّا من هو على امتداد حركة النبوة وفي خطّها ومسيرها.

فالتاريخ يروي لنا مواقف عديدة اتّخذها الأنبياء لمّا وُجهوا بالمعارضة من الكافرين وأبناء قومهم، وكان بإمكانهم القيام بالمقاومة المسلّحة واتخاذ طريق القوّة، إلّا أنّ ذلك كان خلاف المصلحة القاضية بحفظ الدين ووجوب استمراره، وأخرى عُرِضت لهم كنوز الأرض وأموالها على ترك الدعوة لهذا الدين، فرفضوا العرض من أساسه، وصبروا على الأذى والحرمان حتّى تمّ انتصار الدين في الأرض.

وظلّ هذا الامتداد الالهي مستمراً، ولم ينقطع في جريانه باتجاه الامام عبر الأزمان والأعصار، من خلال حركة أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله آخر الأنبياء وخاتم المرسلين. فمن عليّ عليه السلام الى ابنه الحسن الزكي عليه السلام الذي تنازل عن كلّ ما معه من الملك والسلطان والعزّ والخلافة، لا شيء إلّا ليحافظ على وجود الرسالة واستمرارها على الأرض، ويمنع من سفك المزيد من الدماء فتذهب الثلّة المؤمنة عن وجه البسيطة، فينعدم بذلك الخير والأمان والنسل الخيّر، فآثر الصلح لأنّه ينسجم مع توجّهات المصلحة الاسلامية والامتداد في الحركة النبوية المقدّسة، وهو ما يصرّح به عليه السلام إذ يقول: «إنّي خشيت أن يجتثّ المسلمون عن وجه الأرض، فأردت أن يكون للدين ناعٍ...».

وهكذا استمرّت الحركة في مسيرها في أخيه الحسين بن علي عليه السلام الذي قدّم نفسه

وأبناءه وأولاد عشيرته ومحبّيه قرابين من أجل بقاء الرسالة، وطلب الإصلاح لأُمة محمد ﷺ. وداومت الحركة الالهية في جريانها فيما بعد الحسين عليه السلام من أولاده الطيّبين الطاهرين، وأولاد أخيه الحسن عليه السلام الأزكياء المهديّين.

الركن الوثيق:

لقد اكتسبت مواقف أهل البيت بُعداً ربانياً في هذه الأمة، جعلت تتوجّه إليها الأنظار، ويلتجأ اليها أفراد الأمة في الأزمات والمحن، لأنّهم لم يروا غير أهل البيت الركن الوثيق من مجموع هذه الأمة الكبيرة.

فقد التجأت اليهم الأمة إبّان واقعة الحرّة الرهيبة، واصطفّ على باب دار الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام طابور من العائلات المستغيثة به، والآلاف من النساء المروّعة والخائفة، ومن بين هذه الألوف أربعمائة عائلة من بني عبدمناف، كان من بينها عائلة مروان بن الحكم وزوجته عائشة بنت عثمان ابن عفّان، ليأمنوا من استباحة المهاجمين لهم، وهتكهم لأعراض الناس فيها بالجملة[1].

وهذا الامتداد الطبيعي لأخلاق وسلوك أهل البيت، والحشد الهائل من المواقف التي سجّلها لهم التاريخ ووثّقها، إن دلّ على شيء فانّما يدلّ على شمولية منهج أهل البيت وأصالة أخلاقهم وتربيتهم الفذّة، بحيث انصبّت حاجات جميع أفراد الأمة إليهم، ولم يطلبوا ولو مرة واحدة حاجةً من أحد. وذلك لأنّ الامتداد ناشئ عن حركة الإسلام الصحيح، وإدامة لمسيره التاريخي الكبير، وهو بعد هذا وذاك إفراز طبيعي وخالص للوجود الاسلامي على سطح هذا الكوكب الصغير.

وهذا ما جعل حركة أهل البيت الفكرية والسياسية والاجتماعية والاخلاقية تمثّل الدور التكاملي لحركة السنّة النبوية المطهّرة من جهتين:

الاولى: حماية السنّة القطعية المطهّرة، وحفظها من عمليات التحريف والتغيير التي تقوم بها أيادي المكر والعبث.

---

(١) راجع تفصيله في أنساب الأشراف: ج ٤، ص ٣٢٣، وتاريخ الطبري: ج ٥، ص ٤٩٣. ومروج الذّهب: ج ٢، ص ١٤، وكشف الغمة: ج ٢، ص ١٠٧.

الثانية: تعزيز امتداد السنّة الى مديات مختلفة، واستمرار جريانها على كافة الأصعدة، من خلال الاستناد الى القرآن الكريم وأصول السنّة الصحيحة التي علّمها الرسول الأعظم ﷺ أهل بيته، وألقمهم إياها تلقيماً، بعدما دعا الله سبحانه ليذهب عنهم الرجس ويطهّرهم تطهيراً. لأجل توجيه الأنظار باتجاه نقطة مضيئة تعدّ مؤشراً تاريخياً كبيراً يصوّر مدى مكانة اهل هذا البيت عند الرسول الاعظم، ومنزلتهم في الإسلام الحنيف.

سفينة النجاة:

وعلى ضوء ذلك فقد مارس أهل البيت عليهم السلام دور المرجعية الاسلامية العليا بعد رحلة النبي الأعظم ﷺ إلى ربّه، واستمرّت هذه الممارسة على طول المراحل التاريخية الطويلة، وفي كافة بقاع العالم الاسلامي وإن كانت بدرجات متفاوتة، نتيجة الظروف السياسية المختلفة التي كانت تحيط بكلّ واحدٍ منهم.

حيث كان المسلمون يرجعون إليهم إذا ماداهمتهم المشاكل واستعصت عليهم الدواهي، ولم يجدوا غيرهم من يحلّ مشاكلهم، سواء في الفتوى والقضاء، أوفي السياسة والمعاملات، أوفي الأخلاق والعرفان، أوفي العقيدة والفلسفة، أوفي الحكمة والمعرفة، بل حتّى في المجالات العسكرية والصناعية والزراعية، وحقول الثقافة والتعليم، فكان لهم دور رئاسي بارز، والتاريخ خير شاهد، والمصاديق التي ينقلها كثيرة اذا ما بحثنا في بطون كتب التاريخ والسيرة والحديث[1].

فانطلاقاً من وظيفة الإرشاد والدرس تبنّوا مهمّة تعليم الناس وتوعيتهم، وخاصة طلبة العلوم والمعرفة منهم، ونشروا من خلالها تعاليم الإسلام المختلفة، من علوم القرآن والحديث والفقه والحكمة والفلسفة والعقائد والاخلاق والاجتماع، وبسطوا العلوم العقلية والنقلية بين طبقات المجتمع الإسلامي المتعطّش للعلم والثقافة، فصار يزدحم على أبوابهم طلاب شتّى

---

(١) راجع على سبيل المثال: تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٢٥٣، وتاريخ ابن الاثير: ج ٧، ص ١٦٢ ـ ١٦٣، وتاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١١١، وطبقات ابن سعد: ج ٢، ص ٣٣٨ و٣٤٩، وذخائر العقبى: ص ٧٩، والمناقب لابن شهرآشوب: ج ٢، ص ٣٥٦، وعلي والخلفاء: ص ٦٠، والمحاسن والمساوئ للبيهقي: ج ٢، ص ٢٣٢، والتفسير العظيم لابن كثير: ج ٤، ص ٥٧، ونهج البلاغة: خطبة ١٣٤.

العلوم والمعارف الإنسانية والتجريبية، وتتدافع عندهم الناس، فكثر تلاميذهم والراوون عنهم والآخذون منهم، حتّىٰ صار هؤلاء التلاميذ فيما بعد بُناة الحضارة الاسلامية ورعاتها.

وقد ازدادت حركة التوعية والتدريس والعطاء الفكري والثقافي التي التزمها علماء أهل البيت عليهم السلام نمواً واتساعاً بعد واقعة كربلاء عام ٦١ للهجرة، حينما تصدّىٰ الإمام زين العابدين إلى توعية الأمة وتثقيفها، وصعّد من حركته ونشاطه في سبيل تأسيس مدرسة تنشر النور والمعارف الاسلامية التي كادت تُدرس، ومواصلة تعليم الناس أصول الإسلام وسقايتهم لقيمه ومبادئه الكريمة، فخرّج علماء مبرزين قد شدّوا رحالهم إليه من شتّى بقاع العالم الاسلامي المختلفة، أمثال: أبان بن تغلب الكوفي، وإسحاق بن عبدالله المدني، واسرائيل بن غيات المكي، وإسحاق بن الفضل الشامي، وأيوب بن بكر الموصلي، وأيوب بن تميمة البصري، وبشر بن عقبة المدائني، وجعفر بن محمد الحضرمي، والحسن بن السري الكرخي البغدادي، وداود بن أبي هند السرخسي، وعمرو بن خالد الواسطي، ويحيىٰ بن أبي العلاء الرازي، وغيرهم.

ثمّ جاء من بعده ولديه محمد الباقر عليه السلام، وجعفر بن محمد الصادق عليه السلام فأوسعا من طاقة المدرسة السجّادية لتصبح جامعة كبيرة تقوم على أسس معيّنة وأقسام مختلفة منظّمة، فكان هذا عاملاً مساعداً على التحاق أعداد غفيرة أخرىٰ إليها من رواد العلم والمعرفة، على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وانتماءاتهم القومية والعقائدية، حتّى بلغ عددهم الى أربعة آلاف شخص! منهم من أصبح فيما بعد من كبار العلماء والفقهاء والمحدّثين والمتكلّمين، بل صار منهم ائمة للمذاهب الفقهية.

يقول ابن حجر: «جعفر الصادق نقل عنه الناس من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان، وروىٰ عنه الائمة الأكابر، كيحيىٰ بن سعيد، وابن جريج، ومالك بن أنس، والسفيانيين، وأبي حنيفة، وشعبة، وأيوب السجستاني»[1].

وبسبب هذا التوسّع، وازدياد عدد المتعلّمين، وشدّة رغبة الناس في التوجّه اليها، فقد فتحت الجامعة في كثير من الأقاليم فروعاً لها، ولعلّ أعظمها في الكوفة، حيث التحق بهذا

---

(١) الصواعق المحرقة: ص ٢٠١، فصل ٣ (الأحاديث الواردة في بعض أهل البيت).

الفرع الكبير تسعمائة عالم وأستاذ من كبار تلامذة الإمام لغرض التدريس فيه[١].

واستمرّ هذا الامتداد في اتّساعه وحركته، يرعاه ائمة أهل البيت وعلماؤهم وأبناؤهم الأبرار، ولم يتوقّفوا في مدّه في كل حاضرة يسيرون إليها، وكلّ أرض تطأ أقدامهم الشريفة عليها.

ولعلّ كتابنا هذا خير مصداق على ما نقول، حيث ينهض مؤلّفه لتبيان دور السيدة الجليلة الشريفة نفيسة آل محمد ﷺ في مصر. وما أدّته من دور المرجعية العلمية والثقافية والعقائدية في المجتمع المصري بجميع طبقاته، فقيرهم وغنيّهم، حاكمهم ومحكومهم، رجالهم ونساؤهم، بل وحتّى من غير المسلمين ممّن كان نازلاً في تلك الديار، فحبّوها وكنّوا لها أكبر الاحترام والتجليل، وصاروا يتدافعون على بابها. وفيهم ائمة المذاهب، وأعلام الفقه والحديث والتصوّف، وفحول الكلام والاخلاق، وكبار الساسة والقادة العسكريّين، يبتغون دعاءها والتمسّح ببركة وجودها بينهم، كما يحدّثنا الكتاب كثيراً من المواقف التي حصلت بينها وبينهم، وذلك لما اتّسمت به من أخلاق آبائها الرفيعة، وعلومهم ومعارفهم الالهية المقدسة.

شعبية متواصلة:

إنّ شيوع المرجعية العلمية، والمركزية في الثقافة والهداية لأهل البيت عليهم السلام، وانتشار صيتهم في المحافل العامة والخاصة، يؤدّي بالطبع الى تزايد شعبيتهم في الأوساط، وانقياد الأمة لهم، وتهافت العلماء والفقهاء والكتّاب والأدباء والشعراء إليهم، والتفاف عشّاق العلوم والمعارف والأدب الاسلامي حولهم، فارتفعت نتيجة لذلك مكانتهم، وسمت منزلتهم عند جميع المسلمين، لأنّهم عرفوا فيهم الوجاهة والقداسة والجلالة والعلم والإيمان والشجاعة والبيان، فاكتسبوا بذلك تفرّداً كاملاً لحبّ الأمة وولائها الكبير.

فلا غرو أن نسمع من الإمام الشافعي هيامه وحبّه، وإصراره على ذلك رغم احتجاج البعض له، وفوق هذا وذاك وهو الفقيه العالم، يقول:

لو شقّ قلبي لبدا وسطه سطران قد خطّا بلا كاتب

---

(١) راجع كتاب المجالس السنية: ص ٢، فصل (مدرسة الإمام الصادق عليه السلام).

الشرع والتوحيد في جانب وحبّ أهل البيت في جانب[١]

وأن يقول الإمام أحمد بن حنبل بعدما أخرج في مسنده حديث النجوم: «النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فاذا ذهب أهل بيتي جاء أهل الأرض من الآيات ما يوعدون». فقال عقبه: «إنّ الله خلق الأرض من أجل النبي ﷺ فجعل دوامها بدوام أهل بيته وعترته»[٢].

ومن الآداب التي أوصى إمام الحنابلة وحثّ أتباعه على الاقتداء بها: احترام أهل البيت، فقد روي أنّه وقف فترة وهو الإمام الجليل عند باب المسجد لينتظر خروج صبي صغير السنّ هاشمي أراد الخروج أيضاً من المسجد، فانتظر حتّى خرج ثم خرج بعده، وجعل يفسح له الطريق ويقبّل يديه، فقيل له في ذلك فأجاب: إنّ هذا من أهل بيتٍ أوجب الله علينا احترامه[٣].

أو أن يقول شيخ الإسلام ابن العربي في فتوحاته نظماً:

فلا تعدل بأهل البيت خلقاً فأهل البيت هم السيادة

فبغضهم من الإنسان خسر حقيقي وحبّهم عبادة[٤]

أو أن يقول الإمام القطب الشعراني في كتابه: «اليواقيت»: يجب اعتقاد وجوب محبّة ذرّية نبيّنا محمد ﷺ وإكرامهم واحترامهم، وهم: الحسن والحسين ابنا فاطمة وأولادهما الى يوم القيامة[٥].

وكذا القطب أحمد الكبير الرفاعي في قوله: نوّروا قلوبكم بحبّ آله الكرام عليه أفضل الصلاة والسلام، فهم أنوار الوجود اللامعة، وشموس السعود الطالعة[٦].

---

(١) رشفة الصادي: ص ٥٩.

(٢) مسند أحمد: ج ٤، ص ٣٩٩.

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلي: ص ٢٠١.

(٤) الفتوحات المكيّة: ج ٤، ص ١٣٩.

(٥) اليواقيت والجواهر: ص ١٥١، عنه رشفة الصادي: ص ٥٢.

(٦) نقلاً عن كتاب المقتطفات: ص ٤٥٣ رقم ٣٢.

مؤلّفات تصدح بحبّهم:

ومن قبلهم الصحابة والتابعون وعلماء الاسلام، أجيال تتبعها أجيال على طول مراحل التاريخ الاسلامي الطويل.

فلا عجب إذن أن نشاهد تهافت العلماء والمفكّرين، والأدباء والمثقفين عليهم، وتباريهم في الكتابة والتأليف والنظم الجميل في مدحهم، والثناء عليهم، والإطراء على شمائلهم وأبنائهم الأجلّاء، ورواية سيرتهم الحسنة.

فلو قدّر للناظر والباحث بالقاء نظرة في أجواء ورفوف المكتبة العربية الاسلامية، ومتابعة عناوين الكتب والرسائل التي ألّفت في فضائل ومناقب أهل البيت عليهم السلام، والمؤلّفات التي ضمّت في ثناياها أبواباً وفصولاً تخصّ أهل البيت الكريم، لرأى العجب، ولعقدت الدهشة لسانه، من كمّيتها وأعدادها الهائلة. وهي بنفس الوقت تعدّ مؤشّراً صادقاً يحكي متانة العلاقة القائمة بين الأمة وأهل هذا البيت العتيق، وصورة شفّافة تنقل بصدق مدى ميل الناس على اختلاف مشاربهم الى هذه الذريّة الشريفة، وشدة حبّهم وتمسّكهم بهم، ترجمتها أقلام صادقة ومختلفة ضمن إيقاعات عاطفية مجرّدة من كلّ شائبة ورياء.

لقد قدّر لي ـ وأنا الفرد غير المتخصّص في الإحصاء ـ أن أمرّ على الكثير الكثير من عناوين الكتب والرسائل والقصائد التي كُتبت ونُظمت في خصوص مناقب وسيرة ومدائح أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله في مختلف رفوف المكتبة العربية الاسلامية النفيسة، دون التي كُتبت باللغات الأخرى.

ومن أجل أنّ المقام لايسع إدراجها كلّها، فقد آليت على نفسي أن أضمّ في هذه الصفحات العجال باقة منها، تشتمل على عناوين كتب ومؤلّفات ورسائل وقصائد تخصّ الآل وحدهم دون غيرهم، وكونها أصحابها من غير الشيعة، وممّن ذاعت في الآفاق أسماؤهم، وشاعت في الأطراف كتبهم، فظلّت تنطق بعد رحيلهم بلسان صدق، تترجم معاني الحبّ الخاص والمودّة السامية لأهل هذا البيت الشريف، وبقي ميراثهم ينادي بلزوم تكريمهم وتجليلهم، وقد زخرت بها مكتبات ومتاحف العالم برمّته:

* كتاب الآل

لابن خالويه، أبي عبدالله الحسين بن أحمد، إمام النحو واللغة، المتوفّى سنة ٣٧٠هـ.

ترجم له القفطي في كتابه[١] باسم: الحسين بن محمد، ناقلاً ذلك عن شيرويه، وترجم له ابن خلّكان أيضاً في الوفيات[٢] وقال: وله كتاب لطيف سمّاه «الآل» وذكر في أوّله أنّ الآل ينقسم الى خمسة وعشرين قسماً، وذكر فيه الائمة الاثني عشر وتواريخ مواليدهم ووفياتهم وأسامي أمهاتهم وغير ذلك. ونقله عنه اليافعي في ترجمته في «المرآة»[٣]، ولعلّه هو الذي ذكره ابن حجر في اللسان[٤] باسم: كتاب الإمامة.

*** الآيات النازلة في أهل البيت**

لابن الفحّام، أبي محمد الحسن بن محمد بن يحيىٰ، المقرئ الفقيه الشافعي المعروف، المتوفّى سنة ٤٥٨ هـ، ترجم له ابن حجر[٥]، وذكر له هذا الكتاب.

*** إتحاف أهل الإسلام بما يتعلّق بالمصطفىٰ وأهل بيته الكرام**

لمحمد مرتضى الزبيدي الحنفي، صاحب كتاب «تاج العروس» المتوفّىٰ سنة ١٢٠٥ هـ، ذكره إسماعيل باشا في كتابيه[٦] وكحالة في المعجم[٧] والزركلي في الأعلام.[٨]

*** إحياء الميت بفضائل أهل البيت**

للسيوطي، جلال الدين عبدالرحمان بن أبي بكر الشافعي القاهري، العلّامة المعروف، صاحب المؤلّفات الكثيرة، المتوفّى سنه ٩١١ هـ، ويشتمل الكتاب على ستين حديثاً في هذا الخصوص، وله نسخ عديدة منشرة أنحاء الدنيا، منها في مكتبة الخزانة الملكية بالرباط برقم ٩٢٧٦ كما في فهرسها: ص ٢٢، واخرىٰ في دارالكتب المصرية ضمن المجموعة رقم ٧٢ (مجاميع) من مخطوطات التيمورية، وقد طبع عدّة طبعات، وترجم عدّة مرات الى اللغة

---

(١) إنباه الرواة: ج ١، ص ٢٣٤، رقم ٢١٦.

(٢) وفيات الأعيان: ج ٢، ص ١٧٨، رقم ١٩٤.

(٣) مرآة الجنان: ج ٢، ص ٣٩٥.

(٤) لسان الميزان: ج ٢، ص ٣٩٥.

(٥) المصدر السابق: ص ٢٥١.

(٦) إيضاح المكنون: ج ١، ص ١٥، وهدية العارفين: ج ٢، ص ٣٤٧.

(٧) معجم المؤلفين: ج ١١، ص ٢٨٢.

(٨) الاعلام: ج ٧، ص ٧٠.

الأُردية.

• أخبار آل أبي طالب

للقاضي الجعابي، محمد بن عمر بن محمد بن سالم التميمي البغدادي الحافظ، المتوفّى سنة ٣٥٥ هـ، ترجم له الخطيب في تاريخه[١] ترجمة مطوّلة، وحكى ثناء الناس على علمه وحفظه وقال: كان إماماً في المعرفة بعلل الحديث حتّى لم يبق في زمانه من يتقدّمه فيه في الدنيا. وذكره إسماعيل باشا في الإيضاح.[٢]

• أخبار أهل البيت

للمدائني، أبي الحسن علي بن محمد بن عبدالله البغدادي، المتوفّى سنة ٢٥٥ هـ، ترجم له الذهبي في سير الأعلام[٣] وذكر كتابه هذا. وابن النديم في الفهرست[٤] وذكر أيضاً كتابه الآخر: أخبار أبي طالب وولده.

• إرشاد الهادي الى نسب آل النبي الهادي

لابن فرحون التونسي، أبي الحسين علي بن محمد بن أحمد اليعمري المالكي المتوفّى سنة ٧٤٨هـ، ترجم له ابنه في الديباج المذهّب[٥] ولابن حجر في الدرر[٦] والسخاوي في التحفة[٧] نسخة منه موجودة في مكتبة الجامع الأعظم بالجزائر برقم ٣٧.

• استجلاب ارتقاء الغرف بحبّ أقرباء الرسول ذوي الشرف

للسخاوي، الحافظ شمس الدين أبي الخير محمد بن عبدالرحمان الشافعي القاهري، نزيل الحرمين، المتوفّى سنة ٩٠٢ هـ، ذكره هو في كتابه الذي أفرده في ترجمة نفسه باسم

---

(١) تاريخ بغداد: ج ٣، ص ٢٦.

(٢) إيضاح المكنون: ج ١، ص ٣٨.

(٣) سير أعلام النبلاء: ج ١٠، ص ٤٠٢.

(٤) الفهرست: ص ١١٤.

(٥) الديباج المذهّب: ج ٢، ص ١٢٤.

(٦) الدرر الكامنة: ج ٣، ص ١٩٠.

(٧) التحفة اللطيفة: ج ٣، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٦.

إرشاد الغاوي في ترجمة السخاوي كما في فهرس الفهارس: ص ٩٩١. نسخة منه مصوّرة في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة.

•إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وفضائل أهل بيته الطاهرين

للصبّان المصري، محمد بن علي الشافعي، المتوفّى سنة ١٢٠٦ هـ، ترجم له تلميذه الجبرتي في عجائب الآثار[١] ضمن وفيات سنة ١٢٠٦ ترجمة مطوّلة، وأطراه كثيراً، وعدّد تآليفه، ومنها رسالة عظيمة في آل البيت.

• بحر الأنساب

للفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسين التميمي البكري الأشعري الشافعي، المتوفّى سنة ٦٠٦ هـ، ذكره إسماعيل باشا في الهدية[٢].

وله شرح نهج البلاغة أيضاً.

•بذل الحبا في فضل آل العبا

لأبي الفضائل الحنفي، احمد بن محمد بن المظفّر الرازي، المتوفّى سنة ٦٣١ هـ، ترجم له الداودي في طبقات المفسّرين[٣] وذكر كتابه هذا في عداد مصنّفاته، وابن العديم في بغية الطلب[٤] وقال: وكان فقيهاً أديباً وشاعراً، حنفي المذهب، تولّى القضاء ببعض بلاد الروم.

• بغية الطالب في نسب آل أبي طالب

للرفاعي، القاسم بن أحمد الواسطي الشافعي، المتوفّى سنة ٦٨١ هـ، ترجم له في منية الراغبين[٥]، وفي الهدية[٦] أيضاً.

•التبصرة في فضيلة العترة المطهّرة

---

(١) عجائب الآثار: ج ٢، ص ١٣٧.

(٢) هدية العارفين: ج ٢، ص ١٠٧.

(٣) طبقات المفسّرين: ج ١، ص ٨٦.

(٤) بغية الطلب: ج ٣، ص ١١٤٩.

(٥) منية الراغبين في طبقات النسّابين: ص ٣٥١.

(٦) هدية العارفين: ج ١، ص ٨٢٩.

للسبيعي الحلبي، أبي محمد الحسن بن أحمد بن صالح الحافظ. المتوفّى سنة ٣٧١ هـ، ترجم له الصفدي في الوافي[١] ووصفه بالحافظ المتقن وقال: قد طاف الدنيا، وهو عسر الرواية، وكان الدارقطني يجلس بين يديه كجلوس الصبي بين يدي معلّمه؛ هيبةً له. وترجم له الخطيب أيضاً[٢].

• تذكرة الخواص من الأمة في خصائص الائمة

لسبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفّر يوسف بن قزأوغلي بن عبدالله البغدادي الحنبلي ثم الحنفي. نزيل دمشق. المتوفّى سنة ٦٥٤ هـ، المحدّث والفقيه والواعظ الشهير، طُبع عدة مرات في لبنان وايران.

• التعريف بآل بيت النبي ﷺ

لابن أبي زيد، أبي محمد عبدالله بن عبدالرحمان القيرواني المالكي، المتوفّى سنة ٣٨٦ هـ، له ترجمة في الفهرست[٣] والديباج المذهّب[٤]. حيث يقول في أوله: «لمّا رأيت حبّ آل بيت النبي الكريم... حرّكني باعث الحبّ أن أجمع لهم تأليفاً، وأعلي مقامهم بالتعظيم والتشريف».

• جواهر العقدين في فضل الشرفين

للسمهودي، نورالدين علي بن عبدالله بن أحمد الشافعي المصري، المتوفّى سنة ٩١١ هـ، صاحب كتاب «وفاء الوفا» ترجم له الشهابي الخفاجي في النسيم وقال: من أراد تفصيل هذا ـ أي الحديث عن فضائل أهل البيت ـ فلينظر كتاب السيد السمهودي الذي صنّفه في فضائل آل البيت، فإنّه جمع فأوعى، جزاه الله خيراً. ونسخه كثيرة ومنتشرة في أنحاء الدنيا، منها في المكتبة الوطنية في برلين برقم ٩٦٧٢ و١٦ ـ ٤٨٦٤ حسب فهرس آلورث.

وله أيضاً الجوهر الشفّاف بفضائل الأشراف ونسخته موجودة في مكتبة مكة المكرمة برقم ٣٩ (تراجم وسيرة).

---

(١) الوافي بالوفيات: ج ١١، ص ٣٧٩.

(٢) تاريخ بغداد: ج ٧، ص ٢٧٢.

(٣) الفهرست لابن النديم: ص ٢٥٣.

(٤) الديباج المذهّب: ج ١، ص ٤٢٧.

*** حديث الطير**

للطبري، أبي جعفر محمد بن جرير، المفسّر المعروف، صاحب التاريخ، المتوفّى سنة ٣١٠هـ، ذكره ابن كثير في البداية والنهاية[١] ضمن كلامه عن حديث الطير وقال: ورأيت فيه مجلّداً في جمع طرقه وألفاظه لأبي جعفر ابن جرير الطبري المفسّر.

وللطبري كتاب آخر في حديث الغدير باسم «**كتاب الولاية**» قال ياقوت في المعجم[٢] عند عدّ مؤلّفات الطبري: وكتاب فضائل علي بن أبي طالب، تكلّم في أوله بصحة الأخبار الواردة في غدير خم، ثم تلاه بالفضائل ولم يتمّ. وفي موضع آخر منه يقول ياقوت: وكان قد قال بعض الشيوخ ببغداد بتكذيب غدير خم!... وبلغ أباجعفر ذلك، فابتدأ بالكلام في فضائل علي بن أبي طالب، وذكر طرق حديث خم، فكثر الناس لاستماع ذلك[٣]. وقد ذكره الذهبي في ترجمة الطبري في كتابه التذكرة، ثم قال بعدها: رأيت مجلّداً من طرق هذا الحديث لابن جرير فاندهشت له ولكثرة تلك الطرق[٤].

*** خلاصة المناقب في مناقب أهل البيت عليهم السلام**

للمولوي، محمد سلام المحدّث المعروف الباكستاني، ترجم له في النزهة[٥] وذكر مؤلّفاته، وعدّ منها هذا الكتاب، وذكره أيضاً في مرآة التصانيف.[٦]

*** الدرّة الفريدة في العترة المجيدة**

منظومة لابن الطيب المغربي، أبي عبدالله محمد بن الطيب بن عبدالسلام القادري الفاسي، المتوفّى سنة ١١٨٧ هـ، ذكره كحالة في المعجم.[٧]

*** ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى**

---

(١) البداية والنهاية: ج ٧، ص ٣٥٣، وج ١١، ص ١٤٧.

(٢) معجم الأدباء: ج ٦، ص ٤٥٢.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٥٤.

(٤) تذكرة الحفّاظ: ١٣.

(٥) نزهة الخواطر: ج ٧، ص ٢٠٥.

(٦) مرآة التصانيف: ص ٢٣٦.

(٧) معجم المؤلّفين: ج ١٠، ص ١٠٩.

لمحبّ الدين الطبري، أبي العباس أحمدبن عبدالله الشافعي المكّي، المتوفّى سنة ٦٩٤هـ، ترجم له الفاسي ترجمة مطوّلة في كتابه العقد الثمين[١] والسبكي في الطبقات[٢]. ونسخه متكثّرة في العالم، وقد ذكره بروكلمن في تاريخه[٣] وأورد عدّة من مخطوطاته. وطُبع عدّة مرات بالقاهرة وبيروت وطهران.

• الذريّة الطاهرة

للدولابي، أبي بشر محمد بن أحمد بن حماد بن سعد بن مسلم الأنصاري الورّاق الحافظ، المتوفّى سنة ٣١٠ أو ٣٢٠ هـ، ترجم له ابن خلّكان وقال: كان عالماً بالحديث والأخبار والتواريخ.... واعتمد عليه أرباب هذا الفن في النقل، وأخبروا عنه في كتبهم ومصنّفاتهم المشهورة، وبالجملة كان من الأعلام في هذا الشأن وممّن يُرجع إليه، وكان حسن التصنيف[٤]. وله ترجمة في سير الأعلام[٥] أيضاً وأطراه بقوله: الإمام الحافظ البارع.

• ذكر القلب الميت بفضائل أهل البيت

للعقيلي، الحنبلي، جمال الدين يوسف بن محمد بن مسعود السرمري العبادي، نزيل دمشق، المتوفّى سنة ٧٧٦هـ، ترجم له إسماعيل باشا في كتابيه[٦] وابن حجر في الدرر[٧] وأبوالمحاسن في ذيل التذكرة[٨] ووصفه بالإمام العلّامة الحافظ، وقال: كان عمدة ثقة ذا فنون، إماماً علّامة، له مصنّفات عدّة في أنواع الفنون، وعدّ منها هذا الكتاب.

• الروض النضير في ما يتعلّق بآل بيت البشير النذير

للسجاعي المصري، شهاب الدين احمد بن محمد الأزهري الشافعي،

---

(١) العقد الثمين: ج ٣، ص ٦١ ـ ٦٧.

(٢) طبقات الشافعية: ج ٨، ص ١٨.

(٣) تاريخ الأدب العربي: ج ٦، ص ٢١٩.

(٤) وفيات الأعيان: ج ٤ ص ٣٢٥.

(٥) سير أعلام النبلاء: ج ١٤، ص ٣٠٩ ـ ٣١١.

(٦) إيضاح المكنون: ج ١، ص ٥٤٣، وهدية العارفين: ج ٢، ص ٥٥٨.

(٧) الدرر الكامنة: ج ٥، ص ٢٤٩.

(٨) ذيل تذكرة الحفّاظ: ص ١٦٠.

المتوفّى سنة ١١٩٧هـ. ترجم له إسماعيل باشا[١]. نسخة منه في دار الكتب بالقاهرة برقم ١٥٢ (مجاميع).

• رياض الأفهام في مناقب أهل البيت

لسبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفّر يوسف بن قزأوغلي البغدادي، المتوفّى سنة ٦٥٤هـ، قال السلامي في منتخبه عند ترجمة المؤلّف: ورأيت كتاباً في فضائل أهل البيت يُعرف برياض الأفهام، وفيه تشيّع ظاهر.... أربعة أجزاء حديثية ضخمة[٢].

• الشذرات الذهبية في تراجم الائمة الاثني عشرية

لابن طولون، شمس الدين محمد بن طولون الدمشقي، المتوفّى سنه ٩٥٣هـ. نسخة منه في المكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة برقم ٥٠٣١ وفيها: الشذورات، وعنها مصوّرة في معهد المخطوطات بالقاهرة، واخرىٰ في المكتبة القادرية ببغداد برقم ١١٦.

• الصفوة بمناقب آل بيت النبوة

للمناوي، عبدالرؤوف بن علي بن زين العابدين المناوي الحدادي المصري، الفقيه الشافعي المعروف، المتوفّى سنة ١٠٣١ هـ، ترجم له إسماعيل باشا[٣] والزركلي في الاعلام وقال: من كبار العلماء بالدين والفنون، انزوىٰ للبحث والتصنيف.... له نحو ثمانين مؤلّفاً[٤]. وذكر منها هذا الكتاب.

• فتح المطالب في مناقب علي بن أبي طالب

للذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان الشافعي الدمشقي، المتوفّى سنة ٧٤٨ هـ. قال في كتابه تذكرة الحفّاظ: ومناقب هذا الإمام جمّة، أفردتها في مجلّدة، وسمّيته بفتح المطالب[٥].

• فرائد السمطين في فضائل المرتضىٰ والبتول والسبطين

للجويني، أبي المجامع إبراهيم بن محمد بن معين الدين المؤيّد ابن حمّويه الشافعي،

---

(١) إيضاح المكنون: ج ١، ص ٥٩١، وهدية العارفين: ج ١، ص ١٨٠.

(٢) منتخب المختار: ص ٢٣٨.

(٣) إيضاح المكنون: ج ٢، ص ٦٨، وهدية العارفين: ج ١، ص ٥١٠.

(٤) الأعلام: ج ٦، ص ٢٠٤.

(٥) تذكرة الحفّاظ: ص ١٠.

وينتهي نسبه الى الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري، المتوفّى سنة ٧٢٢أو٧٢٣ هـ، كل من ترجم له أطراه وأثنى عليه[١] طبع الكتاب عدّة مرات.

• الفصول المهمّة لمعرفة الائمة

لابن الصباغ المالكي، نورالدين علي بن محمد بن احمد بن عبدالله الصفاقسي، المتوفّىٰ بمكة سنة ٨٥٥ هـ، ترجم له السخاوي في الضوء اللامع[٢] وكحالة في المعجم[٣]. ومخطوطات الكتاب كثيرة وموزّعة في العالم، ففي بريطانيا في المتحف البريطاني برقم OR ١٢٥٩٧ ضمن مخطوطات القرن ١١، وبرقم OR٨٤٧٢ ضمن مخطوطات القرن ١٣، وفي مكتبة جامعة برنستون الاميركية برقم ٢٤ ضمن مجموعة يهودا، ذكرها ماخ في فهرسه: ص ٣٦٤ برقم ٤٥٨٩.

• فضائل أهل البيت

لابن أبي حاتم الرازي، عبدالرحمان بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن منذر الحنظلي، صاحب كتاب الجرح والتعديل المشهور، المتوفّىٰ سنة ٣٢٧ هـ، ترجم له الرافعي في التدوين وقال: من كبّار الدنيا علماً وورعاً[٤].

• مسند أهل البيت

لإمام الحنابلة، أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، المتوفّى سنة ٢٤١ هـ، نسخة منه في دارالكتب المصرية، ضمن مخطوطات المكتبة التيمورية، كُتبت في القرن السادس أوالسابع، طُبع ضمن مسند أحمد، مطبوع في الجزء الأول منه من صفحة ١٩٩ ـ ٢٠٦، وفي طبعة أحمد شاكر يقع في الجزء الثالث من صفحة ١٧١٩ ـ ١٧٦٢.

• معالم العترة النبوية ومعارف اهل البيت الفاطمية

لابن الأخضر الحنبلي، أبي محمد عبدالعزيز بن محمود بن المبارك البغدادي،

---

(١) انظر تلميذه الذهبي في تذكرة الحفّاظ: ص ١٥٠٥، والوافي بالوفيات: ج ٦، ص ١٤١، والدررالكامنة: ج١ ص ٦٩ برقم ١٨١، والمنهل الصافي: ج ١٠، ص ١٤١، والأعلام: ج ١ ص ٦٣.

(٢) الضوء اللامع: ج ٥، ص ٢٨٣.

(٣) معجم المؤلّفين: ج ٧، ص ١٨٧.

(٤) التدوين: ج ٣ ص ١٥٣ ـ ١٥٩.

الحافظ. المتوفّى سنة ٦١١ هـ، ترجم له الذهبي في التذكرة[١] وسير أعلام النبلاء[٢]

*** معرفة ما يجب لأهل البيت النبوي من الحقّ على من سواهم**

للمقريزي، تقي الدين احمد بن علي الشافعي المصري، المتوفّى سنة ٨٤٥هـ، ترجم له ابن حجر[٣] والسخاوي[٤]. ونسخ الكتاب منتشرة في أنحاء الدنيا: ففي تركيا في مكتبة نور عثمانية باسلامبول ضمن مجموعة برقم ٤٩٣٧، وفي مصر في مكتبة جامعة القاهرة ضمن مجموعة رسائل المؤلف برقم ٢٦٢٤٧ (تاريخ)، وأيضاً في مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية برقم ٢٣١٠ ب، وفي فرنسا في دار الكتب الوطنية باريس، وفي النمسا في دار الكتب الوطنية بفيينا.

*** مناقب أهل البيت**

لابن حجر الهيتمي، احمد بن محمد السعدي الأنصاري الشافعي، المتوفّى سنة ٩٧٣ أو ٩٧٤ هـ، نسخة منه في مكتبة جامعة برنستون الاميركية برقم ٥٥٧٥، كُتبت في القرن ١٢، ذكرها ماخ في فهرسه: ص ٣٩٤.

*** مناقب أهل البيت وكلام الائمة**

لابن المقري الحنفي، أحد شيوخ ابن عساكر وابن الجوزي، صاحب جامع مسانيد أبي حنيفة، ترجم له في الجواهر[٥] والوافي[٦] ولسان الميزان[٧].

*** ينابيع المودّة**

للقندوزي الحنفي، سليمان بن إبراهيم ـ المعروف بخواجه كلان ـ بن محمد البلخي، المتوفّى سنة ١٢٩٣ هـ باسلامبول، نسخة منه في مكتبة جامعة برنستون الاميريكية برقم

---

(١) تذكرة الحفّاظ: ص ١٣٨٣.

(٢) سير أعلام النبلاء: ج ٢٢، ص ٣١.

(٣) أنباء الغمر: ج ٩ ص ١٧٠.

(٤) الضوء اللامع: ج ٢ ص ٢١.

(٥) الجواهر المضيئة: ج ١ ص ٢١٨ برقم ٥١٨.

(٦) الوافي بالوفيات: ج ١٣، ص ٣٧.

(٧) لسان الميزان: ج ٢ ص ٣١٢.

٢٦٧٩. ذكرها ماخ في فهرسه: ص ٣٩٥ برقم ٤٥٩٧. طُبع عدّة مرات بايران ولبنان والعراق وتركيا. وكان يعدّ من الكتب الممنوعة في العهد العثماني!

اهتمامات معاصرة:

ولم تنقطع سلسلة هذه العناوين. وهذا الاهتمام الخاصّ من الكتّاب والأدباء والشعراء، بل امتدت حتّى عندالمعاصرين في التصدّي بحثاً وكتابةً في سيرة أهل البيت ومكانتهم الرفيعة. ونظماً في مدحهم والثناء عليهم. بل امتدّت اكثر لتشمل حتى الكتّاب والأدباء من غير المسلمين، شعوراً منهم بمسؤولية المساهمة في هذا الاندفاع الانساني العارم باتجاه التعريف بهذه الحركة التي تجاوزت كل الحدود. وارتفعت فوق كل الاعتبارات الوضعية.

فلو قدّر للباحث أن يطالع الفهارس العربية والأجنبية. ويجول بنظرة فاحصة لرفوف المكتبة العربية والاسلامية المعاصرة. ويلقي ببصره على عناوين الكتب والمؤلّفات التي اهتمّت بهذا الجانب. فسيهوله ـ بلاشك ـ كثرة العناوين المدرجة. وتعقده الدهشة من الرقم الهائل الذي سيطالعه في هذا الخصوص. كما هو حالي بالضبط عندما واجهني رقم يقارب المائة ألف عنوان! طُبعت بمطابع مختلفة. في لبنان ومصر والعراق وباكستان وايران والهند وتركيا وانگلترا وفرنسا. و... و... وغيرها. خطّتها أقلام لامعة ومعروفة. بل بعضها مشهورة على مستوى العالم كلّه. وكلّهم من غير الشيعة طبعاً. وإلّا فالرقم يتضاعف مرتين أوثلاثة على أقلّ تقدير.

ويجدر أن نشير الى أنّ بعضها قد تكررت طباعتها لعدّة مرات. وفي بلدان مختلفة. وهو مؤشّر واضح على مدى تلهّف الناس لقراءتها ومطالعتها. كما أنّ بعضها قد تُرجمت الى لغات أخرى ضمن مساعي جادة بذلها اصحاب الاختصاص من الخيّرين في هذا المضمار.

وهذا بمجموعه بمثابة لسان صدق يصف شدة العلاقة ووثاقتها بين الناس على اختلاف مللهم ونحلهم ومذاهبهم وبين أهل هذا البيت الكريم وإن كان الناس من أتباع الفكر المسيحي!

ذلك لأنّ الفكر المسيحي بمجمله لم يكن بمعزل عن دائرة النتاجات العلمية والأدبية الرائعة التي ظهرت في مجال بيان مناقب أهل بيت محمد ﷺ والتعريف بهم. ولابعيداً عن

تلك الاهتمامات التي أبرزها قطّاعات واسعة من الكتّاب المسلمين على اختلاف تخصّصاتهم وثقافاتهم ومشاربهم.

فأمر رائع حقاً أن يشارك الفكر المسيحي في قضية تعدّ من أشدّ القضايا سخونة عند المسلمين، والأروع منه أنّه يلتقي مع الفكر الاسلامي ـ ضمن النقاط المشتركة بينهما ـ في هذه النقطة، ثم يشكلان منعطفاً عظيماً يمتدّ مع مرور الزمان باتّجاه مصبّ مشترك ضمن مسار تاريخي واحد.

كتب أحد الكتّاب المسيحيّين يقول: «إنّ المصدر لهذين الخطّين واحد، ومسارهما التاريخي لن يختلف، فمن الله تلك الرسالة السماوية قد بعثت لمكارم الأخلاق، تهدي الأمة وتنقذها من الجهالة والظلم، فكانت رسالة المسيح عليه السلام وكانت رسالة محمد ﷺ، رسالتان هزّتا ضمير العالم، وأجّجتا فيه كل مشاعل الأمل، وأثرتا فيه العطاء».

ثم يقول: «فمن أجدر من أهل البيت عليهم السلام لأن يكونوا تجسيداً لكلّ معاني السموّ والفداء والكمال في الاسلام، ومن أجدر من الفكر المسيحي لأن يفهم رموز هذا المعاني ويدرك كناها؟»

وقال أيضاً: «الفكر المسيحي العربي يقدّس آل البيت عليهم السلام كما المسلم»[1].

* * *

وفيما يلي مجموعة مختارة من عناوين كتب معاصرة نقدّمها للقارئ العزيز كنموذج بسيط، مرتّبة حسب الحروف الهجائية:

*** آل بيت رسول الله ﷺ**

للأستاذ عبدالمعطي أمين القعلهچي، مطبوع بمصر عدّة طبعات.

*** آل بيت النبي في مصر**

لأحمد أبوكف المصري، طبعته دار المعارف بالقاهرة.

*** أبناء الرسول في كربلاء**

لخالد محمد خالد المصري، طُبع لعدة مرّات، طبعته دار نابت بالقاهرة للمرة الخامسة سنة ١٤٠٦ هـ.

---

(١) الحسين في الفكر المسيحي لأنطون بارا: ص ١٧ وص ٢٥.

*** أبو الشهداء**

للأستاذ الكبير عباس محمد العقّاد، طُبع بمصر عدّة طبعات.

*** أحاديث فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتب الستّة المشهورة**

وهي دراسة مقارنة بين أهل السنّة والشيعة مع تخريج الأحاديث، أعدّها ونظّمها كلّ من: نهاد عبدالحليم عبيد، والدكتور محمد الضيفي، نشرته جامعة أم القرىٰ بمكة.

*** الإمام الحسن الكوثر المهدور**

للأستاذ المعروف سليمان كتّاني.

*** الإمام الحسين في حلّة البرفير له أيضاً.**

*** الإمام الحسين في الفكر المسيحي لأنطون بارا.**

*** الإمام الصادق، حياته وعصره وآراؤه وفقهه**

لمحمد أبوزهرة، طبع بمصر.

*** الإمام الصادق ملهم الكيمياء**

للأستاذ محمد يحيىٰ الحلبي، مطبوع ببغداد.

*** الإمام جعفر الصادق**

للمستشار عبدالحليم الجندي المصري، صاحب المؤلّفات المشهورة، ورئيس لجنة الفكر الاسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، مطبوع لعدّة مرّات، طبعته مطابع الأهرام القاهرية ودارالمعارف أيضاً.

*** الإمام علي أسد الإسلام وقدّيسه**

لروكس بن زائد العزيزي.

*** الإمام علي نبراس ومقراس**

للأستاذ سليمان كتّاني.

*** الإمام علي الرضا**

لمحمدرضا، طبعته دارالكتب العلمية في بيروت.

*** الإمام القائد** لبسّام العلي، صدر عن دار النفائس في بيروت.

*** أهل البيت في مصر**

للشيخ عبدالحفيظ فرغلي، من علماء الأزهر المعاصرين، طُبع في مطبعة الأنوار

المحمدية بالقاهرة سنة ١٩٨٦ م.

* **أهل البيت**

للاستاذ محمود شرقاوي، طُبع بصيدا، من منشورات المكتبة العصرية.

* **ائمة الهدى من آل بيت المصطفى**

للشيخ محمد بن عبدالغفّار، الحائز على الشهادة العالية من الأزهر، مطبوع بالقاهرة، طبعته الأولى كانت عام ١٩٤٦ م.

* **البتول فاطمة الزهراء**

للشيخ الاستاذ عبدالفتّاح عبدالمقصود المصري المعروف، طبعته مكتبة المنهل الكويتية.

* **تاريخ الحسين**

للشيخ عبدالله العلايلي المصري المعروف، مطبوع في بيروت.

* **تراجم سيّدات بيت النبوة**

للدكتورة بنت الشاطئ عائشة عبدالرحمان، الكاتبة المصرية المعروفة، وقد طُبع بدار الكتاب العربي في بيروت.

* **الحسين ثائراً**

للاستاذ عبدالرحمان الشرقاوي المصري.

* **حليم آل البيت: الحسن بن علي عليه السلام**

للشيخ موسىٰ محمد علي، طُبع مرّتين أوثلاثة.

* **حياة الإمام الحسن**

للأستاذ محمود شلبي، طبعته دارالجيل البيروتية.

وله أيضاً:

* **حياة الإمام الحسين.**

* **حياة الإمام علي.**

* **حياة فاطمة**

طبعتها الدار المذكورة لأكثر من مرّة.

* **زين العابدين**

للدكتور عبدالحليم محمود، شيخ الجامع الأزهر، مطبوع بالقاهرة.

* **سيرة الإمام العاشر: علي الهادي**

لعبدالرزاق شاكر البدري السامرائي، مطبوع ببغداد عدّة طبعات.

* **عبقرية الإمام علي**

للاستاذ المرحوم عباس العقّاد، طُبع بمصر لعدّة مرات.

* **علي إمام الائمة**

للشيخ أحمد حسين الباقوري المصري، وزير الأوقاف المصرية الأسبق، طُبع بمصر لأكثر من مرة.

* **علي: صوت العدالة الإنسانية**

للاستاذ الكبير جورج جرداق.

* **علي وبنوه**

للدكتور طه حسين، عميد الأدب العربي، مطبوع بالقاهرة، طبعته الأولى عام ١٩٥٧م.

* **فاطمة البتول**

للأستاذ معروف الارناؤوط، عضو مجمع اللغة العربية في سوريا، طُبع بمصر.

* **فاطمة الزهراء والفاطميون**

للأستاذ المرحوم عباس العقّاد، طبعته دار الهلال بمصر.

* **فاطمة الزهراء وتر في غمد**

للأستاذ سليمان كتّاني.

* **القصيدة العلوية المباركة**

لعبد المسيح الانطاكي.

* **قصيدة علي والحسين**

للاستاذ بولس سلامة، قاضي المسيحيّين في بيروت.

* **قصيدة في فضل آل البيت**

لمحمد أمين الحنش الجبوري النقشبندي.

* **قصيدة في مدح آل بيت النبوة**

لمحمد صفا بك زاده، مطبوع في اسلامبول.

* **المهدي حقيقة لا خرافة**

للأستاذ محمد أحمد إسماعيل، مطبوع عدّة مرّات، ثانيها في هولندا.

* **من وصايا علي بن أبي طالب للأطفال والفتيان**

لحبشي فتح الله الحفناوي المصري، طبعه المكتب الجامعي الحديث في الاسكندرية.

* **السيدة نفيسة**

للأستاذ توفيق أبوعلم، مطبوع لأكثر من مرّة، وهو كتابنا هذا.

ويجدر أن نقول: إنّ للأستاذ كُتب أخرىٰ في هذا المجال، كان لها صداها الواسع في الوسط الثقافي والشعبي، العربي والاسلامي، ألّفها ضمن سلسلة «أهل البيت»، صدر منها على حدّ اطّلاعي القاصر:

* **الإمام علي بن أبي طالب.**
* **فاطمة الزهراء.**
* **الحسن بن علي.**
* **الحسين بن علي.**
* **أهل البيت عليهم السلام**

هذا الكتاب:

وأمّا هذا الكتاب الماثل بين يدي القارئ الكريم فهو إحدى المؤلّفات القيّمة في هذا المضمار، والكتب الهادفة التي خطّتها يراعة الاستاذ المعروف توفيق أبوعلم المصري، الذي استطاع أن ينهض بمشروع علمي ثقافي كبير لوحده، تمثّل بإعداد سلسلة دراساتية وتحليلية تتعرّض لحياة ومناقب أئمة وأبناء أئمة أهل البيت عليهم السلام، ويؤسّس أشبه ما يكون بمنتدىً أدبي وعلمي وثقافي في الوسط العربي الاسلامي، يحاول من خلاله التعريف بشخصيات أهل البيت، وبيان منزلتهم في الإسلام، وردّ الشبهات والأوهام التي علقت بأذهان الأجيال اللاحقة على هذا الصعيد.

وبذلك فقد ساهم مع بعض معاصريه من الكتّاب والمفكّرين في إنشاء تيار من الوعي الثقافي والفكري والتاريخي للجيل الحاضر، ثم تمهيد الطريق للأجيال المتلاحقة، من أجل

مواصلة الدرب في تعريف الرسالة الاسلامية وصاحبها وأهل بيته الأشراف الطاهرين، وتقديس رموزها منذ الخلافة الراشدة وحتّى وقتنا الحاضر.

وحينما يطالع أيّ ناقد سلسلة كتابات هذا الرجل يجده قد توافر على وعي كبير، وثقافة واسعة تلائم مناخات الوسط الذي اكتنفه، فاستطاع بما يمتلك من مواهب مختلفة أن يوظّفها في هذا السبيل، فيخطو خطوات واسعة عبر مشاريعه ونشاطاته الثقافية. فظلّ وفياً لأفكاره ومقدساته، مخلصاً لأهل البيت، أحبّهم من كلّ قلبه، فراح يترجم هذا الحبّ في سلسلة كتابات شيّقة، بذل جهده فيها للتعريف بمكانة شخصيات أهل البيت النبوي، ودورها العلمي والأخلاقي والإصلاحي في المجتمعات التي عاشت فيها.

ولذا فهو يصرّح بذلك ويقول في مقدّمته: «إنّني هائم بحبّ أهل البيت، واتّجهت دراساتي بالكامل الى هذه السيرة العطرة بامعان وبعمق، بل قد أقول إنّي تخصّصت في هذه الدراسة، كلّ ذلك بفضل الله سبحانه».

وأول ما يحسّ به الناقد وهو يطالع هذا الكتاب، ويقف على استرسالات المؤلّف التحليلية حول هذا الموضوع أو ذاك، يلمس فيه اتزان العالم الحصيف، ونبوغ الكاتب القدير وإنصافه، وسعيه الى عدم الانحياز الى ما تميل به نفسه، حينما يهرع الى كلمة الحقّ فيبرزها، ويفرّ بنفسه عن كل ما يشوّه هذه الكلمة المقدسة. يضاف إليه ما اتّسم به من براعة في صياغة المادة العلمية الأصيلة في قالب أدبي ينطق روعةً، فيخاطب به كل المسلمين: كبيرهم وصغيرهم، رجالهم ونساءهم، عالمهم وجاهلهم، وليس لفئة دون أخرىٰ.

إنّ من يقرأ كتابات هذا الأستاذ وأعماله الثقافية يقف على سلامة ذهنه وتفكيره، ومتانة أسلوبه وبيانه، وقوة طرحه العلمي والأدبي الشيّق، أرسلها المؤلّف واضحة المعالم، سافرة الأركان. ومن يطالع كتبه في السيرة يخيّل إليه أنّه يعيش مع تلك الشخصية في تلك الحقبة من الزمن، وتتبدّد كل الأوهام التي قد كان يحملها حول تلك الشخصية، أو الشبهات التي كانت عالقة بذهنه تجاهها، لأنّه يواجه عرضاً كاملاً لسيرة ومناقب تلك الشخصية، فترفع الستار عمّا كان غامضاً من قبل، وتوضّح الصورة له بشكل تام، وذلك بفضل ما يحيط بعرضه جملة من الأفكار البناءة والقيّمة، وطائفة من النقود والمناقشات لمختلف الشبهات المختلفة حول الموضوع، وسيل من الردود العلمية على التساؤلات المتعلّقة بسيرة وحياة أهل البيت عليهم السلام.

إنّ هذا الطرح الشيّق والعرض العلمي والموضوعي، خليق بأن ينال من النقّاد الحظوة من التقدير، والتشجيع من القرّاء على الاستمرار في هذا الخط المنهجي القويم، وأن يكون أساساً لما بعده من مؤلّفات في هذا الطريق.

إنّنا في حاجة الى دراسة التاريخ دراسة علمية وموضوعية دقيقة، وفي حاجة أشدّ الى دراسة المذاهب السياسية والفقهية في صورة أعمق ممّا وصل إلينا، من خلال التعرّف على أبرز شخصياتها وعلمائها بكل شجاعة وتصميم. ليعرف القارئ الحقّ من الباطل، بعيداً عن عمليات الرتوش والمسحات التي يطلب منها تجميل الوجوه، وتحسين صورتها أمام الآخرين.

ولذلك فانّ هذا الإيحاء الصادق الذي يقوم به بعض الكتّاب والمفكّرين في سبيل اعادة بناء وترميم ما تُلم من صرح الثقافة الاسلامية، يعتبر في نظري انعكاساً لثورة عارمة أشعل نيرانها هذا الطيف الواسع من المثقّفين الذين استوعبوا هموم الرسالة بجدّ وقوة، وتحمّلوا الصعاب في سبيل ذلك.

لو أردنا أن ننصف المؤلّف فيما أطرف به المكتبة العربية الاسلامية من بحوث وكتابات جديرة بالتقدير والثناء لاستوعب منّا ذلك صفحات كثيرة. لكننا نكتفي من هذا القدر الكبير بهذه الاشارة السريعة التي ترسم بعض معالم شخصية وفكر الأستاذ المؤلّف، وتقدّم صورة مختصرة عن بعض مبانيه ومشاريعه الثقافية الرائعة[1]. معبّرين عن مشاعرنا ازاء هذا المشروع الشريف الذي يقوم به، والمنهج القويم الذي سلكه في سفره هذا.

ولعلّ أروع ما يستوقف النظر في هذا الكتاب الكريم الذي يتعرّض لسيرة وحياة السيدة الجليلة نفيسة بنت الحسن الأنور، كريمة الدارين، هو ما بلغه الاستاذ المؤلّف من توفيق كبير في طرح أفكار جديرة بالعرض والمناقشة، ونجاح باهر على صعيد إرساء القواعد الثابتة والمحكمة في مسألة التعريف بأهل البيت عليهم السلام، ومن المعنيّ بالآية الكريمة

---

(١) رغم أنّنا جهدنا لنحصل على معلومات تخصّ بطاقته الشخصية، وشطراً من حياته الثقافية، فلم نعثر فيما توافرت لدينا من مصادر حديثة ما تتعرّض الى حياته وشهاداته ومؤلفاته وولادته وعمره، سوى ما طبع على غلاف بعض كتبه من اضطلاعه على وظيفة رئيس مجلس إدارة مسجد السيدة نفيسة بالقاهرة، ومن قبل كان يشغل منصب وكيل أول وزارة العدل المصرية.

التي وردت ضمن سورة الأحزاب، والتي عُرفت بآية التطهير، ومن هم ذوو القربىٰ الذين ورد ذكرهم في سورة الشورىٰ المباركة، وما أبداه من براعة كبيرة في عرض متين ومحكم، جمع فيه الأصالة والحداثة، وصبّهما في قالب واحد، صاغ فيه ما يلائم وذوق العصر الحديث، الذي لابدّ وأن يجذب قطّاعاً واسعاً من المثقفين والباحثين.

إضافة الى مايحتوي هذا الكتاب علىٰ أفكار ومفاهيم إسلامية في غاية الأهمية، مثل: الشفاعة، والتوسّل، وكرامات الأولياء، وزيارة القبور... وغيرها ممّا لاتخلو من الموضوعية والجديّة فيها.

وباختصار، فقد قام هذا الرجل بانجاز كبير ومهم علىٰ هذا الصعيد، أراد منه تجذير الوعي الثقافي والتاريخي بين أبناء هذه الأمة الكبيرة، ولاسيّما محبّي سادات أهل البيت الطاهرين، كما يصرّح هو في المقدّمة، فجزاه الله خيراً عن الإسلام والمسلمين، وأثابه على صنعته هذه، وبلّغه شفاعة نبيّنا ﷺ إنّه سميع عليم.

* * *

وأخيراً لابدّ من التنويه بقيمة هذا الكتاب في إطار التقريب بين المذاهب الاسلامية، لما تضمّنه من نكات مهمّة مختلفة، واحتوىٰ على سلسلة مناقشات رزينة وتحليلات دقيقة.

ومن هذا المنطلق فقد وقع الاختيار على هذا الكتاب لتحقيقه وطبعه بحلّة قشيبة، بمساعدة وإشراف مركز البحوث والدراسات التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية. ولقد كان منهجي في التحقيق كما يلي:

(١) اعتمدت على النسخة المطبوعة من الكتاب، من منشورات دار التعارف المصرية، وهي الطبعة الثالثة منه.

(٢) قمت بضبط النصّ، وتصحيح الأغلاط المطبعية وغيرها حيثما وجدت.

(٣) خرّجت الروايات والأخبار والآثار التي ذكرها المؤلّف من المظانّ المعتمدة، ووثّقت الأقوال والآراء التي أوردها أو أشار إليها بقدر الإمكان، كما قمت بالتعليق في بعض الموارد بما يقتضيه المقام.

(٤) نقلت ما في الهامش من التعليقات والتوثيقات التي أوردها المؤلّف نفسه كما هي، وعلّمت عليها بكلمة (منه) تمييزاً لها عن تعليقاتنا وتوثيقاتنا.

وختاماً لايسعني إلّا أن أتوجّه بالشكر والتقدير الى مركز البحوث والدراسات التابع

للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية. لتبنّيه نشر الدراسات الأصيلة التي تخدم هدف التقريب، ومساهمته في إبراز الأعمال الثقافية المنجزة في هذا الأطار، بغضّ النظر عن كون أصحابها من الشيعة أوأهل السنّة، طالما كان يخدم المسيرة الوحدوية التي دعا إليها القرآن والسنّة النبوية الشريفة.

نسأل المولى القدير أن يوفّق العاملين المخلصين لخدمة الإسلام، وتوحيد صفوفه، للوقوف بوجه كل الهجمات الثقافية والاعلامية والسياسية التي يتعرّض لها المسلمون اليوم.

والحمد لله أولاً وأخيراً.

شوقي محمد

مقدّمة المؤلّف

الحمدلله الذي اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. فكان منهم للناس الأُسوة الحسنة في النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين. وحسن أُولئك رفيقاً.

والصلاة والسلام على صفوة آل إبراهيم سيّدنا ومولانا محمد ﷺ الذي أرسله الله رحمةً للعالمين. وبشرىً للمؤمنين. فهدى الناس من الضلال. وأخرجهم من الظلمات الى النور بإذن ربّهم. ورضي الله عن آله وأصحابه وأزواجه وذرّيته الطيّبين الطاهرين. وعمّن والاهم بإحسان. ونظر في سيرتهم بإمعان. للعبرة والاعتبار. فكان من أُولي الأبصار.

وبعد. فأستميح القارئ عذراً إذا قلت له: إنّني هائم بحبّ أهل البيت[1]. واتّجهت

---

(١) لم ينفرد المؤلّف بحبّه وهيامه بأهل بيت النبوّة والطهارة عليهم السلام. إذ قد سبقه كثيرون من الفحول الأعلام والكتّاب. بل وائمة المذاهب أيضاً من غير الامامية. فقد حكى صاحب كتاب «درر السمطين»: أنّ الإمام الشافعي لمّا صرّح بحبّه وهيامه بأهل البيت. قيل فيه ما قيل وهو السيد الجليل. فقال جميعاً بأبيات في مواضع مختلفة. منها:

يا راكباً قف بالمحصب من منىً ... واهتف بقاعد خيفها والناهض

سحراً إذا فاض الحجيج إلى منىً ... فيضاً كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضاً حبّ آل محمدٍ ... فليشهد الثقلان أنّي رافضي

كما وحكى قاضي القضاء السبكي في الطبقات: ج ٣ ص ١٥ عن الإمام النسائي. وهو أحد ائمة الحديث

←

دراساتي بالكامل الى هذه السيرة العطرة بإمعان وبعمق. بل قد أقول: إنّي قد تخصّصت في هذه الدراسة. كلّ هذا بفضل الله سبحانه وتعالىٰ.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إنّ الله غفور شكور﴾[1].

واقتراف الحسنة التي يزيدها الله حسناً هو مودّة سادتنا آل البيت[2]. وإرضاء الله

← المشهورين. أنّه لمّا أراد الحج من مصر فدخل الى دمشق عام ٣٢٠هـ، وصنّف بها كتاب «الخصائص» في فضل علي عليه السلام. أنكر عليه ذلك القوم. فقال لمن أنكر عليه: «دخلت الى دمشق والمنحرف فيها عن علي كثير. فصنّفت كتاب الخصائص رجاء أن يهديهم الله تعالى» فدفعوه في خاصرته. وأخرجوه من المسجد. ثم طردوه من دمشق كلّها: لما وجدوا فيه حبّه لأهل البيت. فمات متأثّراً بالضرب الذي كالوه عليه.

كما وأنّ بعض ائمة الحديث لشدّة حبّه بهم حرّم بغضهم تحريماً غليظاً. وأوجب محبّتهم. وبذلك صرّح البيهقي والبغوي في غير موضع. بل نصّ عليه الإمام الشافعي فيما حكي عنه:

يا آل بيت رسول الله حبّكم ... فرض من الله في القرآن أنزله

يكفيكم من عظيم الفخر أنّكم ... من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

راجع في كل ذلك: نور الأبصار: ص ١٢٧، ووفيات الأعيان: ج ١، ص ٧٧، والمنتظم: ج ٦ ص ١٣١، وتذكرة الحفّاظ: ص ٧٠٠، والبداية والنهاية: ج ١١ ص ١٢٤.

وما أحسن ما أورده الشيخ الشعراني عن الشيخ الأكبر في الفتوحات من قوله:

فلا تعدل بأهل البيت خلقاً ... فأهل البيت هم أهل السياده

فبغضهم من الانسان خسر ... حقيقي وحبّهم عباده

(١) الشورىٰ ٢٣. ويذكر أنّ العلّامة السيوطي قد نقل في درره المنثوره: ج ٧ ص ٣٤٨ بعد هذه الآية المباركة ما أخرجه ابن المنذر النيسابوري وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق سعيدين جبير عن ابن عباس قال: لمّا نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودّتهم؟ قال: «علي وفاطمة وولداهما».

(٢) ويقوّيه ما أخرجه العلّامة السيوطي في كتاب الدرالمنثور: ج ٧، ص ٣٤٨ عن ابن عباس حبر الأمّة في قوله تعالىٰ: ﴿من يقترف حسنة نزد له فيها حسناً...﴾ قال: «المودّة لآل محمد» وعزاه الى ابن أبي حاتم.

ورسوله ﷺ.

وما أبدع ما يقول سيدي محيي الدين ابن عربي في شعره الرقيق:

أرى حبّ أهـل البـيت عـندي فـريضةً ... عـلى رغـم أهـل البـعد يـورثني القـربا

فـما اخـتار خـير الخـلق مـنّا جـزاءه ... عـلىٰ هـذْيه إلّا المـودّة فـي القـربى[1]

وما أصدق ما يقول إمامنا عليّ في السادة أهل البيت:

«أين الذين زعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا، كذباً وبغياً علينا، أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم، وبنا يُستعطى الهدى ويستجلى العمى»[2].

وما أصدق كرّم الله وجهه حين يقول مرّة أُخرى في وصف آل البيت:

«هم عيش العلم وموت الجهل يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم، لا يخالفون الحقّ ولا يختلفون فيه، هم دعائم الإسلام وولائج الاعـتصام، بـهم عـاد الحـقّ الى نـصابه، وانـزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته. عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية، فإنّ رواة العلم كثير ورعاته قليل»[3].

والسيدة نفيسة ـ موضع كتابي هذا ـ من أهل البيت، فهي كريمة الدارين، ابنة الإمام الحسن الأنور ابن زيد الأبلج ابن الإمام الحسن ابن الإمام عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين.

وقد ولدت بمكّة، ونشأت بالمدينة، وسيرى القارئ الكريم مدى حبّها للعبادة من

---

(١) حكاه عنه ابن حجر في الصواعق المحرقة: ص ١١٠

وللشيخ الأكبر بيتان عذبان آخران تنساب منهما العذوبة الخالصة، أوردهما في الفتوحات المكّية: ج ٤ ص ١٣٩٤ قد ذكرناهما من قبل، لا بأس بأن نعيد ذكرهما:

فلا تعدل بأهل البـيت خـلقاً ... فأهل البيت هم أهل السياده

فبغضهم من الإنسـان خـسر ... حـقيقي وحـبّهم عـباده

(٢) نهج البلاغة: ص ٢٠١ ضمن خطبة رقم (١٤٤) ضبط صبحي الصالح.

(٣) نهج البلاغة: ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ خطبة رقم (٢٣٩)، وراجع الخطبة رقم (١٤٧): ص ٢٠٦ ضبط صبحي الصالح.

صغرها، وكانت لا تفارق حرم الرسول ﷺ. وكانت تبكي بكاءً شديداً، وتتعلّق بأستار الكعبة وتقول: «إلهي وسيدي ومولاي: متّعني وفرّحني برضاك عنّي، فلا تسبّب لي سبباً به عنك تحجبني»[١].

وسيرى القارئ أيضاً ما قصّته زينب ابنة أخيها يحيى المتوّج طرفاً من حياة عمّتها. فتقول: «خدمت عمّتي نفيسة أربعين سنة، فما رأيتها نامت الليل ولا أفطرت بنهار، فقلت لها: أما ترفقين بنفسك؟ فقالت: كيف أرفق بنفسي وأمامي عقبات لايقطعها إلّا الفائزون».

وتقول زينب[٢]: كانت عمّتي نفيسة تحفظ القرآن وتفسيره[٣]، وكانت تقرؤه وهي تبكي وتقول: «إلهي وسيدي، يسّر لي زيارة قبر خليلك إبراهيم» فاستجاب الرحمان لدعائها، وزارت هي وزوجها إسحاق المؤتمن ابن جعفر الصادق قبر الخليل، ثم رحلا الى مصر في رمضان سنة ١٩٣ هـ[٤].

وإنّي أتمثّل في تاريخها ما حباها الله عزّوجل من علم وخلق أشمّ، وما اختصّها الله به من نفحات وكرامات:

من معشرٍ حبّهم دين وبغضهم
كفر وقربهم منجى ومعتصم
مقدّم بعد ذكر الله ذكرهم
في كلّ بدء ومختوم به الكلم

---

(١) آل بيت النبي في مصر: ص ٧٩.

(٢) هي زينب بنت يحيى المتوّج ابن الحسن الأنور ابن زيد الأبلج ابن الحسن السبط ابن علي ابن أبي طالب عليه السلام. شريفة علوية، كانت عابدة صالحة، يتبرّك بها الناس، توفّيت بمصر سنة ٢٤٠ هـ، ودُفنت في المشهد المجاور لقبر عمرو بن العاص، وكان الظافر الفاطمي يأتي الى زيارتها ماشياً. (الخطط والمزارات للسخاوي: ص ١٢٤، الأعلام: ج ٣ ص ٦٧).

(٣) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بخطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٥، آل بيت النبي في مصر: ص ٧٩.

(٤) تحفة الأحباب وبُغية الطلّاب للسخاوي الحنفي: ص ١٠٥. أعلام النساء: ج ٥ ص ١٨٧.

إن عـدّ أهـل التـقى كـانوا أنـمتهم
أوقيل: من خير أهل الأرض؟ قيل: هم
يسـتدفع الشـرّ والبـلوى بـحبّهم
ويسـترب بـه الإحسـان والنِـعَم[1]

فنفحاتها نافحة، وبركاتها لائحة، وأنوارها ساطعة، وكراماتها رائعة. فلنقتطف من حديقتها، ونستنير بنور رحبتها، ونستمسك بمحبّتها والاهتداء بهديها، وأن نتوسّل الى الله سبحانه وتعالى فيما ينوبنا، فإنّها من آل بيتٍ اصطفاهم ربّهم، وأنزلهم في علّيّين، واستجاب دعاءهم:

هم القوم من أصفاهم الودّ مـلخصاً
تمسّك في أخراه بـالسبب الأقـوى
هـم القـوم فـاقوا العـالمين مـناقباً
محاسنهم تُحكى وآياتهم تُروى
مـوالاتـهم فـرض وحبّهم هـدىً
وطـاعتهم ودّ وودّهـم تـقوى[2]

فأمدّنا الله من فيض إمدادها، وجعلنا الله في زمرة أحبابها وقصّادها. فهي سيدة أهل اليقين، ورافعة لواء الإجابة للزائرين والقاصدين بابها.

وجاء في كتاب (الدرّة النفيسة في ترجمة السيدة نفيسة): أنّه ينبغي لمن زار هـذا المكان أن يقول عند دخوله من باب الضريح:

«رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميد مجيد. اللّهمّ إنّك قد ندبتني الى أمرٍ قد فهمته واعتقدته، وجعلته أجراً لنبيّك محمد ﷺ. الذي بالمؤمنين رحيماً. حبيباً إليه ما هديتنا، عزيزاً عليه ما عنّتنا، وتلك الفريضة التي سألتها له، وهي المودّة في القربى. اللّهمّ إنّي

---

(١) الأبيات من قصيدة الفرزدق العصماء التي يمدح فيها الإمام زين العابدين، ويبيّن بعض فضائل أهل البيت عليهم السلام. راجع ديوان الفرزدق: ج ٢ ص ٣٥٥.

(٢) الأبيات يرويها الشبلنجي الشافعي في نور الأبصار: ص ١٢٨، وابن الصبّاغ المالكي في الفصول المهمّة: ص ١١ عن بعضهم في مدح أهل بيت النبوة والطهارة عليهم السلام.

مؤدّيها، مريد النفع بها في ديني ودنياي فأتوسّل إليه بها يوم انقطاع الأسباب. اللّهمّ زدهم شرفاً وتعظيماً. وهب لنا بزيارتهم مغفرةً وأجراً عظيماً».

فإلى كلّ محبٍّ لسادتي آل البيت الكريم، أقدّم هذا الكتيب، طامعاً في دعوة صالحة من كلّ قارئ، وراجياً أن ينفع الله به.

والله عزّ شأنه أسأل أن ينفعنا بسادتي أهل البيت، الذي قال فيهم سبحانه وتعالى:

﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾.

وبشفاعة سيدي رسول الله ﷺ.

والحمد لله ربّ العالمين وما توفيقي إلّا بالله، عليه توكّلت وإليه أُنيب.

توفيق أبوغنم

رئيس مجلس إدارة مسجد

السيدّة نفيسة

السَّيِّدَةُ نَفيسَة

رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

السيّدة نفيسة رضي الله عنها

عن رسول الله ﷺ أنّه قال:

«خُلق الناس من أشجارٍ شتّى. وخُلقت أنا وعلّي بن أبي طالب من شجرة واحدة. أنا أصلها. وفاطمة فرعها. وعليّ لقاحها. والحسن والحسين ثمارها. وشيعتنا أوراقها. فمن تَعَلّق بغصنٍ من أغصانها ساقه الى الجنّة. ومن تركها هوىٰ الى النار»[1].

نفيسة الدارين..

نفيسة العلم..

نفيسة الطاهرة..

نفيسة العابدة..

نفيسة المصريّين..

وسيدة أهل الفتوّة والتصريف. والسيدة الشريفة العلوية. وصاحبة الكرامات الطاهرة الوفيرة. والمناقب الفاخرة. وأُم العواجز. والسيدة المرضية. ومشبعة المحروم.

---

(١) أخرج الحديث بعينه ابن جرير الطبري في بشارة المصطفى: ص ٧٦ ج ٨ عن ابن عباس. وتجدر الإشارة هنا الى أنّ الحديث رواه الفريقان بأسانيدهم من طرق مختلفة وبألفاظ متقاربة. منها على سبيل لا الحصر:

الأمالي للطوسي: ج ١. ص ١٨. الأمالي للمفيد: ص ٢٤٥. بصائر الدرجات: ص ٧٨ و ٨٠. شرح الأخبار: ج ٣ ص ٩٨. جوامع الجامع: ج ٢ ص ٢٨٢ عند تفسير الآية: ٢٤ من سورة إبراهيم. الغدير: ج ٣ ص ٨ ـ ٩. شواهد التنزيل: ج ١ ص ٤٠٦ ومابعده. تاريخ ابن عساكر: ج ٤ ص ٣١٨. كنوز الحقائق: ص ١٥٥. مقتل الخوارزمي: ص ١٠٨. كفاية الطالب: ٤٢٥. الفصول المهمّة: ص ١١. نزهة المجالس: ج ٢ ص ٢٢٢. الرياض النضرة: ج ٢ ص ٢٥٣. الإصابة: ص ٣٠٦. لسان الميزان ج ٤: ص ٤٣٤. مستدرك الحاكم: ج ٣ ص ١٦٠. كتاب الأربعين للماحوزي: ص ٧٧. وصول الأخيار الى أُصول الأخبار: ص ٤٨. السيدة فاطمة الزهراء لمحمد بيومي: ص ١٠٢ و١٦٦. كنز العمال: ج ١١ ص ٦٠٨ ح ٣٢٩٤٤ عن المستدرك.

وهي السيدة النقيّة العفيفة الزاهدة، الساجدة الراكعة، المحدّثة المتبحّرة المتضلّعة، الكثيرة النفحات، الغزيرة البركات، والبضعة المنيفة الناضرة، والزهرة الزاهرة، سليلة النبوّة وفرع الرسالة، وجناح الرحمة، كريمة العنصر والمنبت من آل بيت من اصطفاه الله: رسول الله محمد بن عبدالله ﷺ، أولئك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا.

هذه ألقاب السيدة نفيسة رضي الله عنها..

(١) فهي *نفيسة الدارين*: لعوارفها وصنائعها وشفاعتها يوم القيامة لقاصديها، وبجناح الرحمة: لتواضعها وخضوعها لبارئها، وشفقتها ورحمتها وبرّها وصلتها لذويها ومعتفيها وقاصديها، ويستظلّ زائرها بجناح رحمتها.

(٢) وهي *نفيسة العلم*: لما استنبطته من دخائل العلم واستجلته من غوامضه. وما نثرته على طالبي الاستفادة منها، فكان يرجع إليها في المشكلات، ويستصبح بضوئها في المعضلات، وتشدّ إليها الرحال من أطراف البلاد في طلب ما حذقته وأحكمته من علوم بيت النبوّة. ويكفي أن نذكر هنا أنّها تعلّمت القراءة والكتابة قبل أن تبلغ السابعة من عمرها، وهي بلا شكّ علامة كبيرة مميّزة تنبئ بما ينتظرها في مستقبلها، وقد ساعدها ذلك على أن تحفظ القرآن الكريم وتجهده في سنّ مبكرة.

(٣) وهي *نفيسة الطاهرة*: لطهارتها وتعبّدها، وهي السيدة العظيمة العابدة، النقيّة الطاهرة.

(٤) وهي *نفيسة العابدة*: لعبادتها وتقواها، فإنّها كانت من السائحات العابدات، الصالحات القانتات، تصوم نهارها وتقوم ليلها، وقد حجّت ثلاثين حجّة أكثرها وهي ماشية[١]، وكانت تتعلّق بأستار الكعبة وتقول:

«إلهي وسيدي ومولاي متّعني وفرّحني برضاك عنّي، فلا تسبّب لي سبباً يحجبك عنّي»[٢].

(٥) وهي *نفيسة المصريّين*: لحبّ أهل مصر لها. ويكفي أن أقول في أول هذا البحث ـ كما سيأتي بعد ذلك تفصيلاً ـ: إنّها لمّا عزمت على الرحيل من مصر الى بلاد

---

(١) راجع خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٥.

(٢) تقدّم تخريجه.

الحجاز، شقّ ذلك على أهل مصر وسألوها في الإقامة لحبّهم لها[١].

كما أجمع أهل السير والتاريخ على وفاة السيدة نفيسة بالقاهرة. كما أجمعوا على أنّها لمّا توفّيت وصل زوجها في ذلك اليوم وأراد حملها الى المدينة لدفنها بالبقيع. فاجتمع أهل مصر الى أمير البلد. واستجاروا به الى زوجها ليردّوه عمّا أراد، وقد دُفنت فعلاً بالقاهرة[٢] كما سيأتي تفصيله. ولذلك كان المصريّون يسمّونها بنفيسة المصرية.

مولدها، ولماذا سمّيت باسم (نفيسة)؟

ولدت السيدة الطاهرة بمكّة المكرّمة في يوم الأربعاء الحادي عشر من شهر ربيع الأول سنة خمس وأربعين ومائة من الهجرة النبوية،

وقد فرحت أُمها بمولدها، واستبشر بها أبوها، وعمّت الفرحة أكناف بيتها. وقد زاد في سرور أبيها وبهجته أن تكشّف في سيماها شبهاً عظيماً بأُخته، عمّتها السيدة نفيسة بنت زيد رضي الله عنها. وهي التي تزوّج بها الخليفة الوليد بن عبدالملك، فاختار لها أبوها اسم عمّتها لنفاستها، وما تبيّنه لبنته من وسام وفسام اختصّت بهما أُخته. وتفاؤلاً بأن يكتب الله لها حظّ عمّتها، وما واتاها من سعادة ونعماء، وما لها من آثار وحظوة، إذ كانت محبّبة. ولها اليد البيضاء في خلافة زوجها، إذ أنّها دفعته الى ما قام به في عهده، فقد فتحت في عهده فتوح عظيمة، وكان يتكفّل بالأيتام، ويرتّب لهم معاشهم ومن يرعاهم، ومن يقوم بخدمتهم، وللعميان من يقودهم، وعمّر المسجد النبوي ووسّعه، ورزق الفقهاء والضعفاء والفقراء وأسبغ عليهم، وحرّم الاستجداء، وفرض لذوي الحاجات ما يكفيهم، وقد ضبط أُمور الخلافة أتمّ ضبط[٣].

عمّة السيدة نفيسة في مصر:

ومن المصادفات الغريبة أنّ عمّة السيدة نفيسة رضي الله عنها رحلت الى مصر وتوفّيت

---

(١) أُنظر تفصيل ذلك في خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) راجع تاريخ الطبري: ج ٨ ص ٩٧، تاريخ ابن الأثير: ج ٥ ص ٣، بلغة الظرفاء: ص ٢٣، تاريخ اليعقوبي: ج ٣ ص ٢٧، مروج الذهب: ج ٢ ص ١١٩ ـ ١٢٧، تاريخ الخميس: ج ٢ ص ٣١١، الذهب المسبوك: ص ٢٩.

بها. ومقامها بالقرب من السيدة نفيسة؛ إذ أنّها دُفنت بالدار التي وهبت لها من والي مصر، أخي زوجها عبدالله بن عبدالملك بن مروان. وكانت من الصالحات. وقد توفّيت قبل وفاة بنت أخيها.

والدها:

هو أبومحمد الحسن الأَنْوَر[1] ابن زيد الأَبْلَج ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، فهي من دوحة النبوّة التي طابت فرعاً وزكت أصلاً، ومن شعبة الرسالة التي سمت رفعةً ونُبلاً. قد اكتنفها العزّ والشرف. ولازمها السؤدد والكرامة:

يا حبذا روضة في الخلد نابتة ... مامثلها أبداً في الخلد من شجر
المصطفى أصلها والفرع فاطمة ... ثم اللقاح عليّ سيد البشر
والهاشميان سبطان لها ثمر ... والشيعة الورق الملتفّ بالثمر
هذا مقام رسول الله جاء به ... أهل الرواية في العالي من الخبر
إنّي بحبّهم أرجو النجاة غداً ... والفوز في زمرةٍ أفضل الزمر[2]

وكان والدها إماماً عظيماً، وعالماً جليلاً، من كبار أهل البيت، معدوداً من التابعين، مُجابَ الدعوة، فاضلاً شريفاً.

وفي سنة خمسين ومائة عزَل الخليفة العباسي أبوجعفر المنصور عامله جعفر بن

---

(١) المدني الهاشمي. وهو والد جدّ عبدالعظيم الحسني المدفون بطهران. عدّه الشيخ الطوسي في كتابه الرجال في أصحاب الإمام الصادق عليه السلام. وفي عمدة الطالب: ص ٧٠: كان عيناً للمنصور الدوانيقي، ومظاهراً له على بني عمّه الحسن المثنّى. وهو أول من لبس السواد من العلويّين.

وقال الخطيب البغدادي في تاريخه: ج ٧ ص ٣٠٩ ـ ٣١٣: كان أحد الأجواد، ولّاه المنصور المدينة خمس سنين، ثم غضب عليه واستصفى كلّ شيء له. وحبسه ببغداد. ثم أخرجه المهدي وردّ عليه كلّ شيء ذهب منه، ولم يزل معه....

(٢) أنشد الأبيات في بشارة المصطفى: ص ٧٦ ونسبه الى يعقوب البصراني. وفي الغدير: ج ٣ ص ٨ نسبه الى أبي يعقوب النصراني، وذكرها صاحب شرح الأخبار: ج ٣ ص ٩٨ ولم ينسبها لأحد. لكن قال محقّق الكتاب في هامشه: «أنشده أبوبكر الحلبي».

سليمان عن إمرة المدينة، وولّاها الحسن بن زيد. وقد بقي والياً على المدينة الى أن عزله المنصور لوشاية فيه سنة ستّ وخمسين ومائة[١].

فإنّ الحسن كان قد اصطفى ابن أبي ذئب محمد بن عبدالرحمان بن المغيرة، وآواه وأكرمه، لكنّه لم يأمن فلتات لسانه، فإنّ ابن أبي ذئب ذهب الى المنصور وأخبره بأنّ الحسن يطمع في الخلافة، ويعمل على عودها للعلويّين، فثارت ثائرة المنصور، وأمر بعزل الحسن وحبسه، وقد تسرّع ابن أبي ذئب في وشايته، إذ أنّه غلب على ظنّه طمع آل البيت في الخلافة، وما يعرفه أنّها حقّ لهم وهم أولى بها من غيرهم[٢]، مع أنّ الحسن كان معروفاً بمظاهرته لبني العباس، ومناصرته لدولتهم، وكان أول من لبس السواد شعار العباسيّين من العلويّين[٣].

وقد لبث الحسن في حبسه الى أن ولي المهدي الخلافة، وكان يعرف منه علمه واعتداله، وزهادته وعبادته، فأمر بإخراجه من حبسه، وقرّبه منه واصطفاه[٤].

وكان الحسن ذا حزم في ولايته، وعزم في إمرته، وشدّة في أخذ الناس بالحدود وحرمات الله، لا تأخذه رأفة في دين الله، ولا تقفه رحمة عن إقامة حدوده.

---

(١) أنظر تفصيله في تاريخ بغداد: ج ٧ ص ٣٠٩ وما بعده، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ج ٨ ص ٢٩٤، وشذرات الذهب: ج ٢ ص ٢١.

(٢) للنصوص المستفيضة والأخبار الكثيرة التي تؤكّد ذلك وتؤيّده بما لا يدع مجالاً للشكّ.

ويقول أحمد بن عبدالقادر العجيلي الشافعي في كتابه «ذخيرة المآل»: ص ١٧ في معرض شرحه لسند ومتن الحديث الشريف في خصوص أهل بيته ﷺ: «تعلّموا منهم وقدّموهم، تجاوزوا عنهم وعظّموهم» فقال: أمّا التعليم فقد صحّ أنّهم معادن الحكمة، وصحّ في حديث الثقلين: «فلا تقدّموهم فتهلكوا»، و «لا تعلّموهما فإنّهما أعلم منكم». وأمّا التقديم فهم أولى بذلك وأحقّ في مواضع كثيرة، منها: الإمامة الكبرى، وتقديمهم في الدخول والخروج والمشي والكلام، وغير ذلك من أموره.

(٣) أنظر عمدة الطالب: ص ٧٠.

(٤) راجع تفصيل ذلك: تاريخ بغداد: ج ٧ ص ٣٠٩، تهذيب التهذيب: ج ٢ ص ٢٧٩، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ج ٨ ص ٢٩٤، الشجر الكشّاف عن أصول السادة الأشراف: ص ٧٦، أعيان الشيعة: ج ٥ ص ٧٥.

ولمّا عاد إلى المدينة لم يعاتب ابن أبي ذئب[١].

ولمّا توفّي أبوه زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهو غلام، وترك عليه ديناً أربعة آلاف دينار. فحلف السيد حسن ألّا يظلّ رأسه سقف إلّا سقف مسجد رسول الله ﷺ، أوبيت رجل يكلّمه في حاجةٍ حتّىٰ يقضي دين أبيه، فوفىٰ بنذره، ووفّىٰ دين أبيه[٢].

ومن كرمه أنّه أُتي بشاب شارب متأدّب وهو عامل على المدينة، فقال: يابن رسول الله لا أعود. وقد قال رسول الله ﷺ: «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم» وأنا ابن أبي أُمامة ابن سهل بن حنيف، وقد كان أبي مع أبيك كما علمت، فقال: صدقت، هل أنت عائده؟ قال: لا والله. فأقاله وأمر له بخمسين ديناراً، وقال له: تزوّد بها وعُد إليّ. فتاب الشاب. فكان الحسن يحسن إليه[٣].

وكان الحسن والد السيدة نفيسة مجاب الدعوة. يقال: مرّت به امرأة وهو في الأبطح ومعها ولدها! فاختطفه عقاب. فسألت الحسن أن يدعو الله لها بردّه. فرفع يديه الى السماء ودعا ربّه. فإذا بالعقاب قد ألقى الصغير من غير أن يضرّه بشيء، فأخذته أمه[٤].

ودخل عليه بعض الشعراء فأنشده:

لله فرد وابن زيد فرد

فقال: بفيك الأثلب. ألا قلت:

لله فرد وابن زيد عبد

ونزل عن سرير الإمارة، وألصق خدّه بالأرض، يسبّح لله العليّ الكبير[٥].

وكان جليلاً سريّاً سخيّاً، وفيه يقول الشاعر:

---

(١) راجع خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٦.

(٢) حكاه البغدادي في تاريخه: ج ٧ ص ٣٠٩. وابن الجوزي في المنتظم: ج ٨ ص ٢٩٤. والمقريزي في الخطط: ج ٤ ص ٣٢٦.

(٣) أُنظر خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٥.

(٤) المرجع السابق: ص ٣٢٦.

(٥) حكاه الشبلنجي في كتابه نور الأبصار: ص ١٣٧.

إذا أمسى ابن زيد لي صديقاً ... فحسبي من مودّته نصيبي[١]

وقال آخر:

الى حسن بن زيد بات نضوي ... يجوب السهب وهناً والأكاما
الى رجلٍ أبوه أبو المعالي ... وأول مؤمن صلّى وصاما
أأشتم أن أحبّك يابن زيد ... وأن أهدي التحية والسلاما
وقد سلفت عليّ له أيادٍ ... تعيش الروح منها والعظاما
وكان هو المقدَّم من قريش ... ورأس العزّ منها والسناما
وخيرهم لجارٍ أو لصهرٍ ... بستكين الكلالة والذماما
وكان أشدّهم عقلاً وحلماً ... وأبرحهم إذا ازدحم الزحاما[٢]

وكان الحسن كثير الثراء، وله مال بالغابة، وقصره الحمراء كان من أعظم قصور المدينة، وقد أتاه مصعب بن ثابت الزبيري وابنه عبدالله وهو يريد الركوب الى ماله بالغابة، فأنشده مصعب:

يابن بنت النبي وابن عليّ ... أنت أنت المجير من ذا الزمان
من زمانٍ ألحّ ليس بناجٍ ... منه من لا يجيره الخافقان
من ديون تنوؤنا فادحات ... من يد الشيخ من بني ثوبان
في صكاك مكتبات علينا ... بمئين إذا عددن ثمان
بأبي أنت إن أخذن وأمي ... ضاق عيش النسوان والصبيان

فأرسل الحسن الى ابن ثوبان فسأله، فقال: على الشيخ سبعمائة، وعلى ابنه مائة، فقضى عنهما دينهما، وأعطاهما مائتي دينار[٣].

وقد خلف الحسن من الذكور تسعة، ومن البنات اثنتين: السيدة أم كلثوم وقد تزوّج بها أبو العباس السفّاح الخليفة العباسي، والسيدة نفيسة، ولم يبلغ واحد من أولاده من الشهرة وذيوع الذكر ما بلغته ابنته السيدة نفيسة، فهي درّته اليتيمة وغرّته الوضاءة.

---

(١) أنشده في غاية الاختصار: ج ١ ص ٢٧٦ عن بعضهم استعطاه فأكرمه غاية الكرم، فأنشده إيّاه.

(٢) أنشده الحاكم في المستدرك على الصحيحين: ج ٤ ص ٨٦.

(٣) راجع القصة كاملةً في تاريخ بغداد: ج ٧ ص ٣١٠ ـ ٣١١.

وأولاده الذكور[١] هم: القاسم، ومحمد، وعلي، وإبراهيم، وزيد، وعبدالله، ويحيى، وإسماعيل، وإسحاق. أمّا أُمّهم فأُم سلمة واسمها: زينب بنت الحسن عمّه ابن الحسن بن علي بن أبي طالب.

وتزوّج أُم كلثوم عبدالله بن علي بن عبدالله بن عباس رضي الله عنهم.

وقد توفّي سنة ١٦٨ هـ وهو في طريقه الى الحجّ في صحبة أميرالمؤمنين المهدي، ودفن في الحجاز. وقيل: بالحاجر[٢]. ويذكر الشعراني: أنّه مدفون بتربته المشهورة قريباً من جامع «القُرّاء» بين مجراة القلعة (العيون) وجامع عمرو ابن العاص[٣]. ويغلب على الظنّ أنّه دفن بالحاجر في الطريق الى مكّة.

وروي: أنّ الإمام زيد الأبْلَج والد السيد حسن الأنور، كان يأخذ بيد ولده الحسن ويدخل الى قبر النبي ﷺ ويقول: يا سيدي يا رسول الله، هذا ولدي الحسن، أنا عنه راضٍ، ثم يرجع وينصرف. فلمّا كان في بعض الليالي نام فرأى المصطفى ﷺ، وهو يقول له: «يا زيد إنّي راضٍ عن ولدك الحسن برضاك عنه، والحقّ سبحانه وتعالى راضٍ عنه برضاي عليه».

وجاء الحسن بالسيدة نفيسة الى المدينة، وكان دائماً يأخذ بيدها ويدخل بها الى القبر الشريف، ويقول: يا رسول الله إنّي راضٍ عن ابنتي نفيسة، ويرجع. فما زال يفعل حتّى رأى الرسول ﷺ في المنام وهو يقول: «يا حسن إنّي راضٍ عن ابنتك نفيسة برضاك عنها،

---

(١) ذكر صاحب عمدة الطالب في أنساب أبي طالب: ص ٧١: أنّه قد أعقب سبعة ذكور: القاسم وهو اكبرهم وكان مظاهراً لبني العباس على بني عمّه، وعلي ويكنّى أبا الحسن مات في حبس المنصور، وكان يتظاهر بالنصب، وزيد ويكنّى أبا زيد، وإبراهيم يكنّى أبا إسحاق، وعبدالله يكنّى أبا زيد، وإسحاق يكنّى أبا الحسن، كان أعور يلقّب الكوكبي. قيل: كان عيناً للرشيد فيمن بآل أبي طالب إليه، حتّى غضب عليه الرشيد آخر الأمر وحبسه فمات في حبسه، وإسماعيل ويكنّى أبا محمد وهو أصغر أولاده.

(٢) قاله الخطيب وأغلب النسّابة. راجع تاريخ بغداد: ج ٧ ص ٣٠٩ و٣١٣، وعمدة الطالب: ص ٧٠، والمنتظم: ج ٨ ص ٢٩٤. ويذكر: أنّ «حاجر» موضع على خمسة أميال من المدينة من جهة مكّة.

(٣) لواقح الأنوار في طبقات الأخيار: ج ٢ ص ٢٧١. وقد ذكر الخطيب عن محمدبن خلف وكيع أنّه مات ببغداد، ودُفن في مقابر الخيزران، ولم يقوّيه. راجع تاريخ بغداد: ج ٧ ص ٣٠٩.

والحقّ سبحانه وتعالى راضٍ عنها برضاي عنها»[١][٢].

وزيد الأبلَج هو ابن الحسن السبط ابن سيدنا الامام.

ويكفي أنّ رسول الله ﷺ كان يقول لسيدنا عليّ:

«إذنٌ منّي يا عليّ. خُلقت أنا وأنت من شجرةٍ. أنا أصلها. وأنت فرعها. والحسن والحسين أغصانها. فمن تعلّق بغصن منها أدخله الله الجنّة»[٣].

من هذا الغصن غصن القرن الأول للهجرة، جاءت نفيسة إحدى أغصان رياحين القرن الثاني.

أُمّها:

أمّا أمها فأُم ولد. وأمّا إخوتها فأُمهم أم سلمة زينب بنت الحسن بن الحسن بن عليّ رضي الله عنهم. وليس ذلك بضائرها. ولا ما ينقص من قدرها. فقديماً تسرّى الخليل إبراهيم عليه السلام هاجر فولدت له إسماعيل عليه السلام. فكان من نسله صفوة خلق الله محمد بن عبدالله ﷺ. وقد تسرّى رسول الله ﷺ مارية القبطية فولدت إبراهيم عليه السلام. وقد كان أبوها الحسن من أُم ولد.

---

(١) آل بيت النبي في مصر: ص ٨١.

(٢) وجد ما يدلّ على دفن السيد زيد الأبلَج بالقاهرة، قريباً من جامع القرّاء بين مجراة القلعة وجامع عمرو، في التربة المشهورة قريباً من جامع القراء. فقد وجد حجر عتيق شرقي مقام ولده السيد حسن الأنور بقرب جامع عمرو وبعد مجراة القلعة بقليل، مرقوم عليه نسب زيد.

أمّا الإمام محمد الأنور هم السيدة نفيسة ففي المشهد القريب من عطفة جامع طولون، ممّا يلي دار الخليفة، في الزاوية التي يُنزل إليها بدرج، وهو على يمين الطالب للسيدة سكينة، ومكتوب على بابه في لوح رخام هذا البيت:

مسجد حلّ فيه نجل لزيد ذلك الأنور الأجلّ محمد (منه)

(٣) أخرجه الخوارزمي في المقتل: ص ١٠٨، والگنجي في كفاية الطالب: ص ٣١٨، وابن المغازلي في المناقب: ص ٢٩٧. ومحمد الطاهر الشيرازي في كتابه الأربعين: ص ٧٨ و٢٧٧، ومحمد بن سليمان في المناقب: ص ٢٤٢، ورواه الشيخ الطوسي أيضاً في أماليه: ص ٦١١.

وكذا زيد بن عليّ رضي الله عنهما من أُم ولد. وقد دخل على هشام بن عبدالملك، فقال له هشام: بلغني أنّك تحدّث نفسك بالخلافة، ولا تصلح لها لأنّك ابن أَمة. فقال له: أمّا قولك: إنّي أُحدّث نفسي بالخلافة، فلا يعلم الغيب إلّا الله تعالى، وأمّا قولك: إنّي ابن أمة، فإسماعيل ابن أمة. أخرج الله من صلبه خير البشر محمد ﷺ. وإسحاق ابن حرّة أخرج من صلبه القردة والخنازير، فقال له: قم، فقال: إذن لا تراني إلّا حيث تكره، فلمّا خرج من الدار قال: ما أحبّ أحد الحياة إلّا ذلّ. فقال سالم مولى هشام: بالله لا يسمعنّ هذا الكلام منك أحد[١].

وقد كان زيد رضي الله عنه من أحسن بني هاشم عبادة، وأجلّهم سيادة، وكانت ملوك بني أُميّة تكتب الى صاحب العراق: أن امنع أهل الكوفة من حضور مجلس زيد بن علي، فإنّ له لساناً أقطع من ظبّة السيف، وأحدّ من شبا الأسنّة، وأبلغ من السحر والكهانة ومن النفث في العقد[٢].

وقال الشعبي: والله ما ولدت النساء أفضل من زيد بن عليّ، ولا أفقه ولا أشجع ولا أزهد[٣].

وقال أبو حنيفة: شاهدت زيد بن علي كما شاهدت أهله، فما رأيت في زمانه أفقه منه ولا أعلم، ولا أسرع جواباً، ولا أبْيَن قولاً، لقد كان منقطع النظير، وكان يُدعى بحليف القرآن، قرأ مرّة قوله تعالى: ﴿وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ فقال: إنّ هذا لوعيد وتهديد من الله تعالى، ثم قال: اللّهمّ لا تجعلنا ممّن تولّى عنك فاستبدلت به بديلاً...[٤]

---

(١) روى تفصيل القصة ابن عساكر في تاريخ دمشق: ج ٢١ ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤. والمسعودي في مروج الذهب: ج ٣ ص ٢٠٦. وابن حجر في الصواعق المحرقة: ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧. وأبو إسحاق الحصري القيرواني في زهر الآداب وثمر الألباب: ج ١ ص ١١٣.

(٢) أُنظر زهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني ج ١: ص ٧٢.

(٣) المرجع السابق.

(٤) تاريخ دمشق الكبير: ج ٢٣ ص ٢٩٩. خطط المقريزي: ج ٣ ص ٣٣٥. الروض النضير لأحمد السياغي: ج ١ ص ٩٨.

وقبل ذلك أعتق جدّه الحسين بن عليّ عليه السلام جاريةً له وتزوّج بها. وقد كان لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما بالمدينة من يكتب إليه بما يكون من أمور الناس وقريش خاصّةً. فكُتب إليه: أنّ الحسين بن علي أعتق جاريةً له فتزوّجها. فكتب معاوية الى الحسين: من أمير المؤمنين معاوية الى الحسين بن عليّ. أمّا بعد. فإنّه بلغني أنّك تزوّجت بجاريتك. وتركت أكفّاءك من قريش، ممّن تستحسنه للولد، وتمجّد به في الصهر. فلا لنفسك نظرت. ولا لولدك انتقيت.

فكتب إليه الحسين عليه السلام:

«أمّا بعد فلقد بلغني كتابك وتعييرك إيّاي بأنّي تزوّجت مولاتي وتركت أكفّائي من قريش. فليس فوق رسول الله صلى الله عليه وآله منتهىً في شرف. ولا غايةً في نسب. وإنّما كانت ملك يميني خرجت عن يدي بأمرٍ التمست فيه ثواب الله تعالى. ثم ارتجعتها على سنّة نبيّه صلى الله عليه وآله. وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة. ووضع عنّا به النقيصة. فلا لوم على امرئٍ مسلمٍ إلّا في أمر مأثم. وإنّما اللوم لوم الجاهلية».

فلمّا قرأ معاوية كتابه نبذه الى يزيد فقرأه. وقال: لشدّ ما فخر عليك الحسين. قال: لا ولكنّها ألسنة بني هاشم الحداد التي تفلق الصخر وتغرف من البحر[1]. وقد بيّنت ذلك كلّه في الفصول السابقة الخاصّة بأهل البيت.

وقال الأصمعي: كان أكثر أهل المدينة يكرهون الإماء، حتّى نشأ فيهم عليّ بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبدالله رضي الله عنهم، ففاقوا أهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً. فرغب الناس في السراري وأقبلوا على الزواج منهنّ. وقد تزوّج عليّ زين العابدين عليه السلام جاريةً له بعد أن أعتقها. فبلغ ذلك عبدالملك بن مروان، فكتب إليه يؤنّبه على فعلته. فكتب إليه عليّ:

«إنّ الله رفع بالإسلام الخسيسة. وأتمّ به النقيصة. وأكرم به من اللؤم»[2].

---

(١) أعيان الشيعة: ج ١ ص ٥٨٣.

(٢) نوادر الأصمعي: ج ٢ ص ٨١.

جدُّ السيِّدة نفيسة

زعيم أهل البيت

كان الإمام الحسن جدّ السيدة نفيسة عميد أهل البيت بعد أبيه، وقد اختلف العلماء في تعريف «أهل البيت» اختلافاً كبيراً.

ويرجع الاختلاف الى تفسير الآية الكريمة:

﴿يا نساء النبي لستنّ كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً وقرن في بيوتكن ولا تبرّجنّ تبرّج الجاهلية الأُولىٰ وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنّما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً واذكرن ما يتلىٰ في بيوتكنّ من آيات الله والحكمة إنّ الله كان لطيفاً خبيراً﴾[1].

والفريق الأول من المفسّرين[2] يتمسّكون بالسياق، ويرون أنّ أهل البيت المذكورين

---

(١) الأحزاب: ٣٢ ـ ٣٤.

(٢) لا يخفىٰ على المتتبّع أنّ عكرمة وحده، وربّما مقاتل أيضاً من بين المفسّرين كلّهم ينفردان بتخصيص «أهل البيت» المذكورين بالآية الكريمة بزوجات النبي ﷺ. ويرويان عبر التمسّك بالسياق العام للآيات الثلاثة: أنّ المراد بالبيت بيت النبي ﷺ ومساكن زوجاته. (راجع دلائل الصدق: ج ٢ ص ٦٥).

وهو قول عجيب ومريب في نفس الوقت. فالعجيب فيه أنّهما ينفردان لوحدهما، ويخالفان الأكثر من المفسّرين، من الصحابة والتابعين وأصحاب الحظّ الأوفر من العلم ونقل الحديث.

وأعجب منه أن يتحمّس له عكرمة كلّ هذا الحماس حتّى ينادي به في الأسواق والطرقات!! وممّا يريبنا في هذا الأمر أنّ الشخصين قد عُرفا بالكذب عند المحدّثين، ومتّهمان بالاضطراب والوضع والتدليس. فأمّا ←

في الآية هنّ زوجات الرسول ﷺ. ويقولون: إنّ المراد بالبيت بيت النبي ﷺ ومساكن زوجاته. لقوله: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكنّ﴾ وأيضاً السياق في الزوجات من قوله:

← الأول فكان خارجياً، وكان قد أتى نجدة الحروري، وكان يحدّث برأيه. على ما ذكره الذهبي في الكاشف: ج ٢ ص ٢٧٦.

وفي التهذيب: ج ٧ ص ٢٦٧ يروي ابن حجر عن يحيى البكّاء قال: سمعت ابن عمر يقول: لنافع: «اتّق الله. ويحك يا نافع. لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس»

وأيضاً فيه عن سعيد بن المسيّب أنّه كان يقول لغلامه: «يا بُرد. لا تكذب عليّ كما يكذب عكرمة على ابن عباس».

وكان قد اشتهر أمره بالكذب لدرجة أنّ الإمام مالك بن أنس لم يذكر عكرمة. وكان لا يراه ثقة. بل ويأمر أن لا يؤخذ منه. (راجع التهذيب).

وقال الإمام أحمد بن حنبل: عكرمة مضطرب الحديث. ويقول عنه أيّوب كما حكاه ابن عُلَية: كان قليل العقل. (راجع المصدر السابق).

وأمّا الثاني مقاتل بن سليمان فتكفي فيه كلمة الإمام البخاري في ترجمته في تاريخه الكبير: ج ٨ ص ١٤: «لا شيء ألبتة».

وفي التهذيب: ج ١٠ ص ٢٨١ عن العباس بن مصعب المروزي: كان مقاتل حافظاً للتفسير. لا يضبط الإسناد. وكان أبوحنيفة يقول: أتانا من المشرق رأيان خبيثان: جهم معطّل. ومقاتل مشبّه.

وكان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يقول: أخرجت خراسان ثلاثة لم يكن لهم في الدنيا نظير في البدعة والكذب: جهم ومقاتل وعمر بن صبح. وعن وكيع: أردنا أن نرحل الى مقاتل. فقدم علينا. فأتيناه فوجدناه كذّاباً. فلم نكتب عنه (المصدر المتقدّم). وينقل عنه ابن حجر أنّه كان مشهوراً عنه بأنّه كان يتبرّع للخلفاء والحكّام في وضع الأحاديث على النبي ﷺ. فقد قال أبو عبيدالله وزير المهدي: قال لي المهدي: ألا ترى الى ما يقول لي هذا ـ يعني مقاتلاً ـ يقول: إن شئت وضعت لك أحاديث في العباس!!

وقال فيه الإمام النسائي: الكذّابون المعروفون بوضع الحديث على رسول الله ﷺ أربعة: ابن أبي يحيى بالمدينة. والواقدي ببغداد. ومقاتل بن سليمان بخراسان. ومحمد بن سعيد بالشام. راجع وفيات الأعيان: ج ٤ ص ٣٤٢.

وما قال فيه ابن حجر في التقريب: ج ٢ ص ٢٧٢ يغني عن الإطالة. قال: مقاتل بن سليمان كذّبوه وهجروه ورمي بالتجسيم.

﴿يأيها النبي قل لأزواجك﴾ الى قوله: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكنّ من آيات الله والحكمة إنّ الله كان لطيفاً خبيراً﴾.

وعن طريق عِكْرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾.

يقولون: إنّها نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وآله، ويذهب عِكْرمة الى أنّ البيت أُريد به مساكن النبي صلى الله عليه وآله، ويقول: من شاء باهلته أنّها نزلت في أزواج النبي صلى الله عليه وآله[1]. ويُروىٰ عن عِكْرِمة أنّه كان ينادي في السوق: أنّ الآية نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وآله[2].

ويقول الزجّاج: إنّ أهل البيت في الآية المذكورة يُراد بهم نساء النبي صلى الله عليه وآله، وقيل: يُراد بهم نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته[3].

ويقول بعض المفسّرين[4]: إنّ ورود الآية في شأن أزواج النبي صلى الله عليه وآله يغلب على الظنّ دخولهنّ فيهنّ، والتذكير للتغليب. فإنّ الرجال وهم النبي وعليّ وأبناؤهم غلبوا علىٰ فاطمة وحدها أومع أُمهات المؤمنين، ثم أكّد التكاليف المذكورة بأنّ بيوتهنّ مهابط الوحي ومنازل الحكم والشرائع الصادرة من مشرع النبوّة ومعدن الرسالة، ثم ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿إنّ الله كان لطيفاً خبيراً﴾ إيذاناً بأنّ تلك الأوامر والنواهي هي لطف منه في شأنهنّ وهو أعلم.

وأمّا ما يتمسّك به الفريق الأعمّ والأكبر من المفسّرين[5] فيتجلّىٰ فيما روي عن أبي سعيد الخُدْري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

---

(١) رواه القرطبي في أحكام القرآن: ج ١٤ ص ١٨٢، وابن كثير في تفسيره: ج ٥ ص ٤٥٢.

(٢) رواه الواحدي في أسباب النزول: ص ٢٤٠، والطبري في تفسيره: ج ٢٢ ص ٧، وابن كثير في تفسيره: ج ٣ ص ٤٨٣.

(٣) معاني القرآن: ج ٤ ص ٢٢٦.

(٤) كالقرطبي في أحكام القرآن: ج ١٤ ص ١٨٣ ضمن تفسير الآية ٣٣ من سورة الأحزاب المباركة، وابن كثير في تفسيره: ج ٥ ص ٤٥٨ أيضاً.

(٥) راجع تفسير الماوردي الشافعي: ج ٤ ص ٤٠١، وتفسير البغوي المسمّىٰ بمعالم التنزيل: ج ٣ ص ٥٢٩، وتفسير الكشّاف: ج ص عنه تفسير قوله تعالى: (قل لا أسالكم عليه أجراً...)، وتفسير الخازن المسمّىٰ بلُباب التأويل في معاني التنزيل: ج ٣ ص ٢٥٩.

«نزلت هذه الآية في خمسةٍ: فيَّ وفي عليّ والحسن والحسين وفاطمة»[١] رضي‌الله عنهم جميعاً.

وأخرج الترمذي وصحّحه، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه من طرقٍ عن أم سلمة قالت:

في بيتي نزلت ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ وفي البيت: فاطمة وعليّ والحسن والحسين، فجلّلهم رسول الله ﷺ بكساءٍ كان عليه ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي فأذهِبْ عنهم الرجس وطهِّرهم تطهيراً»[٢].

وعن أُم سلمة أيضاً:

أنّ النبي ﷺ كان في بيتها على منامة له، عليه كساء خيبري، فجاءت فاطمة ببرمة فيها حريرة، فقال رسول الله ﷺ: «إدعي زوجك وابنيك حسناً وحسيناً» فدعتهم، فبينما هم يأكلون، إذ نزلت على النبي ﷺ الآية الكريمة، فأخذ النبي ﷺ بفضلة... كسائه فغشّاهم إيّاها، ثم أخرج يده من الكساء وألوىٰ بها الى السماء ثم قال: «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي وخاصّتي، فأذهِبْ عنهم الرجس وطهِّرهم تطهيراً» قالها ثلاث مرّات.

قالت أم سلمة: فأدخلت رأسي في الستر، فقلت: يا رسول الله وأنا معكم؟ فقال: «إنّك الى خير»[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٢٩٦ مسنداً، والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل: ج ٢ ص ١٣٦ ح ٧٦٩، وابن كثير في تفسيره: ج ٥ ص ٤٥٦، ورواه أيضاً الكنجي في كفاية الطالب: ص ٣٧٦، والشبلنجي في نورالأبصار: ص ١٢٤، ومحب الدين الطبري في الذخائر: ص ٢١.

(٢) سنن الترمذي: ج ٢ ص ٢٠٩، تفسير الطبري: ج ٢٢ ص ٦ المستدرك على الصحيحين: ج ٢ ص ٤٢٦، السنن الكبرىٰ: ج ٢ ص ١٥٠. وأخرجه أيضاً مسلم في الصحيح: ج ٢ ص ٣٣٢، وابن الأثير في أُسد الغابة: ج ٢ ص ١٦، والطحاوي في مشكل الآثار: ج ١ ص ٣٣٥، وابن عساكر في تاريخ دمشق: ج ٤ ص ٢٠٤، والرازي في تفسيره: ج ٦ ص ٧٨٣، وابن حجر في الإصابة: ج ٤ ص ٢٠٧، وفي الصواعق المحرقة: ص ٨٥، وورد أيضاً في كتب المناقب كما في الرياض النضرة: ج ٢ ص ١٨٨، والشرف المؤبّد: ص ١٠، والغدير: ج ١ ص ٣٨.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ج ٤ ص ١٠٧ وج ٦ ص ٢٩٢، تاريخ دمشق: ج ٤ ص ٣١٨، تفسير الطبري: ج ١٠ ←

وفي رواية أُخرىٰ ومن طرقٍ عديدةٍ وصحيحةٍ:

أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله جاء ومعه عليّ وفاطمة وحسن وحسين وقد أخذكلّ واحدٍ منهما بيده، حتّىٰ دخل فأدنىٰ عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً، وأجلس حسناً وحسيناً كلّ واحدٍ منهما بأعلىٰ فخذه. ثم لفّ عليهما كساءً، ثم تلا هذه الآية: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ وقال: «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي، فأذهبْ عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»[1].

وفي رواية: «اللّهمّ هؤلاء آل محمد، فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها علىٰ ابراهيم، إنّك حميد مجيد»[2].

وفي رواية أُخرىٰ لأُم سلمة:

أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ ثوباً وجلّله فاطمة وعليّاً والحسن والحسين، وهو معهم، وقرأ الآية: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس...﴾ قالت: فجئت أدخل معهم، فقال: «مكانك، إنّك علىٰ خير»[3].

← ص ٢٩٧. شواهد التنزيل: ج ٢ ص ١٣٠ ح ٧٦١ وص ١٢٨ ح ٧٥٨ و٧٥٩ و٧٦٠. المستدرك على الصحيحين: ج ٢ ص ٤١٦. كفاية الطالب: ص ٣٧١ ـ ٣٧٢. نور الأبصار: ص ١٢٣ ـ ١٢٤. ذخائر العقبىٰ: ص ٢٢. تفسير ابن كثير: ج ٥ ص ٤٥٤. كنزالعمال: ج ١٣ ص ٦٠٢ ح ٣٧٥٤٣.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتابه المصنّف: ج ١٢ ص ٧٢. والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل: ج ٢ ص ٦٤ ح ٦٨٦ ومابعده. وابن المغازلي الشافعي في المناقب: ص ٣٠٥. والذهبي في سير اعلام النبلاء: ج ٣ ص ٣٨٥. والشبلنجي في نور الأبصار: ص ١٢٣. وأورده الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين: ج ٢ ص ٤١٦. وقريب منه في ج ٣ ص ١٤٧.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخه المسمّىٰ بتاريخ دمشق: ج ٤ ص ٢٠٧ و٣١٨. والطبراني في المعجم الكبير: ج ٣ ص ٤٧. والطحاوي في مشكل الآثار: ج ٢ ص ٣٢٤. والكنجي الشافعي في كفاية الطالب: ص ٣٧٢. والشبلنجي في نور الأبصار: ص ١٢٣. وأورده المتقي الهندي في الكنز: ج ١٣ ص ٦٠٢ ح ٣٧٥٤٣.

(٣) رواه أحمد في المسند: ج ٦ ص ٢٩٦ و٣٠٤. وابن الأثير في أُسد الغابة: ج ٤ ص ٢٩ في ترجمة أمير المؤمنين عليه السلام. والكنجي الشافعي في كفاية الطالب: ص ٣٧٢. والشبلنجي في نور الأبصار: ص ١٢٣. والهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٦٦. والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل: ج ٢ ص ٩٨ ح ٧٢٣ وما بعده.

وعنها أيضاً قالت:

بينما رسول الله ﷺ في بيته يوماً إذ قالت الخادم: إنّ عليّاً وفاطمة بالسدّة. قالت: فقال لي: «قومي فتنحيّ عن أهل بيتي» قالت: فقمت فتنحّيت في البيت قريباً. فدخل عليّ وفاطمة ومعهم الحسن والحسين وهما صبيان صغيران. فأخذ الصبيّين فوضعهما في حجره وقبّلهما. واعتنق عليّاً بإحدىٰ يديه وفاطمة بالأُخرىٰ، وقبّل فاطمة وقبّل عليّاً. فأغدق عليهم خميصة ثم قال: «اللّهمّ إليك لا الى النار أنا وأهل بيتي» قلت: وأنا يا رسول الله؟ قال: «وأنت»[1].

والظاهر أنّ هذا الفعل تكرّر عن الرسول ﷺ في بيت أُم سلمة، يدلّ عليه اختلاف هيئة اجتماعهم وما جلّلهم به، ودعاؤه لهم. وجواب أُم سلمة به ـ والمنع وقع من دخولها معهم فيما جلّلهم به. وعليه يحمل قولها في الحديثين: «وأنا معهم». أي: أدخل معهم؟ لا أنّها ليست من أهل البيت، بل هي منهم ـ وكذلك لمّا قالت في الحديث الآخر: «وأنا». ولم تقل: معهم. أي: أنا أيضاً الى الله لا الى النار؟ قال: «وأنت الى الله لا الى النار». وكذلك لمّا قالت: وأنا من أهل البيت؟ قال: «وأنت من أهل البيت وابنتك أيضاً».

وعن عمرو بن شُعَيْب عن أبيه عن جدّه:

أنّه دخل ﷺ على زينب بنت أبي سلمة. فجعل حسناً من شقّ وحسيناً من شقّ. وفاطمة في حجره فقال: «رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميد مجيد» وأنا وأُم سلمة جالستان. فبكت أُم سلمة. فنظر إليها رسول الله ﷺ فقال: «ما يبكيك؟» فقالت: يا رسول الله خصصتهم وتركتني وابنتي. فقال: «إنّك وابنتك من أهل البيت»[2].

وعن أبي عمّار قال: إنّي لجالس عند واثلة بن الأسقع إذ ذكروا عليّاً عليه السلام فشتموه. فلمّا قاموا قال: اجلس حتّىٰ أُخبرك عن هذا الذي شتموه:

إنّي عند رسول الله ﷺ إذ جاء عليّ وفاطمة وحسن وحسين فألقىٰ عليهم كساءً له.

---

(١) رواه أحمد في المسند: ج ٦ ص ١٩٦ و ٣٠٤. والطبراني في المعجم الكبير: ج ٣ ص ٤٨ ضمن ترجمة الإمام الحسن عليه السلام. والجعفري في تفسيره: ص ٣٣. والطبري في تفسيره: ج ٢٢ ص ٧. وابن كثير في تفسيره: ج ٥ ص ٤٩٥. ومحب الدين في ذخائر العقبىٰ: ص ٢١ ـ ٢٢.

(٢) رواه في ذخائر العقبىٰ: ص ٢٣ وقال: أخرجه أبو الحسن الخلعي.

ثم قال: «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي. اللّهمّ أذهِبْ عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»[١].

وفي رواية أُخرىٰ: حدثنا الإمام محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعي، حدثنا شدّاد بن عمّار قال: دخلت علىٰ واثلة بن الأسقع ﷺ وعنده قوم، فذكروا عليّاً ﷺ فنتموه، فشتمته معهم، فلمّا قاموا قال لي: شتمت هذا الرجل؟ قلت: قد شتموه فشتمته معهم، قال: ألا أُخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ؟ قلت: بلىٰ، قال:

أتت فاطمة رضي الله عنها فأجلسها بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً رضي الله عنهما، كلّ واحدٍ منهما علىٰ فخذه، ثم لفّ عليهم ثوبه ـ أوقال: كساءه ـ ثم تلا ﷺ هذه الآية: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ وقال: «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحقّ»[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي شُرَيحُ بن يونس، أبوالحارث، حدثنا محمدبن يزيد قال: دخلت مع أبي علىٰ عائشة رضي الله عنها، فسألتها عن عليّ ﷺ، فقالت رضي الله عنها:

تسألني عن رجلٍ من أحبّ الناس الى رسول الله ﷺ، وكانت تحته ابنته وأحبّ الناس إليه؟! لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً رضي الله عنهم فألقىٰ عليهم ثوباً، فقال: «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي فأذهِبْ عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»[٣].

---

(١) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٢٩٧، وأبويعلى الموصلي في المسند: ج ١٣ ص ٤٧٠ ح ٧٤٨٦، وابن كثير في تفسيره: ج ٥ ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤، ومحبّ الدين في الذخائر: ص ٢٣ وقال: أخرجه أبوحاتم وأحمد في المسند.

(٢) رواه أحمد في المسند: ج ٤ ص ١٠٧، والطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٢٩٧، وابن المغازلي في المناقب: ص ٣٠٥، وابن أبي شيبة في المصنّف: ج ١٢ ص ٧٢، والثعلبي في تفسيره: ج ٣ ص ١٣٩ (مخطوط) ضمن تفسير الآية الكريمة، ومحبّ الدين الطبري في ذخائر العقبىٰ: ص ٢٤ عن مناقب أحمد، وابن كثير في تفسيره: ج ٥ ص ٤٥٣، والحاكم الحسكاني في شواهده: ج ٢ ص ٦٦ ح ٦٨٩ وما بعده من طرقٍ عدّة.

(٣) أخرجه عنه ابن كثير في تفسيره: ج ٥ ص ٤٥٦. وقريب منه رواية جُمَيع التميمي ودخوله مع أمّه على عائشة وحديثها عن علي ﷺ وولديه وزوجته، وإلقاء رسول الله ﷺ الثوب عليهم ودعائه لهم. راجع الحديث في ←

وقال الإمام الحسن عليه السلام في بعض خطبه:

«وأنا من أهل البيت الذي كان جبريل ينزل إلينا ويصعد من عندنا، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»[١].

وقال أيضاً:

«إنّا أهل بيت أكرمنا الله بالإسلام، واختارنا واصطفانا، وأذهب عنا الرجس وطهّرنا تطهيراً، لم تفترق الناس فرقتين إلّا جعلنا الله في خيرهما، من آدم الى جدّي محمد صلى الله عليه وآله، فلمّا بعثه الله للنبوّة، واختاره للرسالة، وأنزل عليه كتابه، ثم أمره بالدعوة الى الله عزّوجلّ، فكان أبي أوّل من استجاب لله ولرسوله، وأوّل من آمن وصدّق الله ورسوله صلى الله عليه وآله، وقد قال الله في كتابه المنزل على نبيّه المرسل: ﴿أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه﴾ يقول: فجدّي الذي على بيّنة من ربّه، وأبي الذي يتلوه وهو شاهد منه»[٢].

والفريق الثالث من المفسّرين جعل الآية شاملةً للزوجات، ولعليّ وفاطمة والحسن والحسين. أمّا الزوجات فلكونهنّ المراد في سياق هذه الآيات، ولكونهنّ الساكنات في بيوته صلى الله عليه وآله النازلات في منازله، ويؤيّد ذلك ما تقدّم عن ابن عباس وغيره، وأمّا دخول عليّ وفاطمة والحسن والحسين، فلكونهم قرابته صلى الله عليه وآله وأهل بيته في النسب، ويؤيّد ذلك ما ذكرناه من الأحاديث المصرّحة بأنّهم سبب النزول، وهي أحاديث كثيرة، فمن جعل الآية خاصّةً بأحد الفريقين فقد أعمل مايجب إعماله، وأهمل ما لا يجوز إهماله، وقد رجّح هذا القول جماعة من المحقّقين منهم القرطبي[٣] وابن كثير[٤] والطبري[٥] وغيرهم.

← تفسير الثعلبي ج ٣ ص ١٣٩، وتاريخ دمشق: ج ٢ ص ١٦٣ ترجمة أمير المؤمنين عليه السلام، وشواهد التنزيل: ج ٢ ص ٦١ ح ٦٨٣ وما بعده من طرق عدّة، وأمالي الصدوق: ص ٤٢٣ المجلس (٧٢).

(١) نقله في ذخائر العقبى: ص ١٣٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الجامع الأحكام القرآن: ج ١٤ ص ١٨٣.

(٤) تفسير ابن كثير: ج ٥ ص ٤٥٢.

(٥) تفسير الطبري: ج ٢٢ ص ٥.

ويقول بعض المفسّرين[١] من هذا الفريق: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس﴾ فاستعار للذنوب الرجس، وللتقوى الطهر. وإنّما أكّد إزالة الرجس بالتطهير لأنّ الرجس قد يزول ولم يطهر المحلّ بعد، و﴿أهل البيت﴾ نصب على النداء أوعلى المدح، وسنرى في شرح آية المباهلة أنّهم أهل العباء: النبي صلى الله عليه وآله لأنّه أصل، وفاطمة رضي الله عنها والحسن والحسين رضي الله عنهما بالاتّفاق، والصحيح: أنّ عليّاً عليه السلام منهم لمعاشرته بنت النبي صلى الله عليه وآله، وملازمته إيّاه. وورود الآية في شأن أزواج النبي صلى الله عليه وآله يغلب الظنّ دخولهنّ فيه، والتذكير للتغليب، فإنّ الرجال وهم: النبي وعليّ وأبناؤهم غلبوا على أُم سلمة وفاطمة وحدهما أومع أُمّهات المؤمنين. ثم أكّد التكاليف المذكورة: أنّ بيوتهنّ مهابط الوحي ومنازل الحكم والشرائع الصادرة من مشرع النبوة ومعدن الرسالة. ثم ختم الآية بقوله: ﴿إنّ الله كان لطيفاً خبيراً﴾ إيذاناً بأنّ تلك الأوامر والنواهي لطف منه في شأنهنّ وهو أعلم، وكذلك فإنّ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾[٢] أنّ الظاهر من الآية الكريمة: أنّها عامّة في جميع أهل البيت، من الأزواج وغيرهم.

والفريق الرابع من المفسّرين[٣] يقول: هم بنوهاشم. فعن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله خطيباً فقال:

«أذكّركم الله في أهل بيتي» ثلاثاً.

فقيل لزيد: من أهل البيت؟ قال: أهل البيت من حرم الصدقة بعده، وقيل: من هم؟ قال: آل عليّ وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس.

فهؤلاء ذهبوا الى أنّ المراد بالبيت بيت النسب، بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكنّ من آيات الله والحكمة﴾ أي: اذكرن موضع النعمة إذ صيّركنّ الله في بيوتٍ يتلى فيها آيات الله والحكمة، أو: اذكرنها وتفكّرن فيها لتتعظن بمواعظ الله، أو: اذكرنها للناس ليتّعظوا بها ويهتدوا بهداها.

---

(١) البيضاوي في أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ج ٤ ص ٢٣١.

(٢) سورة هود: ٧٣.

(٣) كالثعلبي في تفسيره المسمّى بالكشف والبيان عن تفسير القرآن: ج ٣ ص ١٦٨ (مخطوط)، عنه القرطبي في تفسيره: ج ١٤ ص ١٨٣. وذهب إليه الشافعي على ما حكاه عنه أبوعبيد الهروي في الغريبين: ج ١ ص ١٢٢.

وفي الصواعق[١]: أنّ المراد بالبيت في الآية يشمل بيت نسب النبي ﷺ وبيت سكناه، فتشمل الآية أزواجه عليه السلام. وهو ما ذكرناه في مقدّمة هذا البحث عن ابن عباس، وما ذكره أيضاً البيضاوي[٢] ويدلّ عليه ما قبل الآية وما بعدها.

وقال مسلم في صحيحه: حدثني زهير بن حرب وشجاع بن مخلّد جميعاً، عن ابن علية، قال زهير: حدثنا إسماعيل بن ابراهيم، حدثني أبوحيان، حدثني يزيد ابن حيّان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن سلمة الى زيد بن أرقم ﷺ، فلّما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصلّيت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، حدّثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: يا ابن أخي، والله لقد كبرت سنّي، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ، فما حدّثتكم فاقبلوا ومالا فلا تكلّفوا فيه. ثم قال:

قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعى «خما» بين مكّة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ووعظ وذكّر، ثم قال:

«أمّا بعد ألا أيّها الناس، فإنّما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربّي فأُجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما: كتاب الله تعالى، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحثّ على كتاب الله عزّوجلّ ورغّب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أُذكّركم الله في أهل بيتي، أُذكّركم الله في أهل بيتي» ثلاثاً.

فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه ليسوا من أهل بيته، ولكن من أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل عليّ وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس، قال: كلّ هؤلاء حرم الصدقة بعده؟ قال: نعم[٣].

وعن زيد بن أرقم أيضاً أنّه ذكر الحديث بنحو ما تقدّم[٤]، فقيل له: من أهل بيته،

---

(١) الصواعق المحرقة: ص ١٤٤.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ج ٤ ص ٢٣١.

(٣) صحيح مسلم: ج ٤ ص ١٨٧٣ ح ٢٤٠٨ (٣٦) وما بعده، وانظر: تفسير ابن كثير: ج ٥ ص ٤٥٧.

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح: ج ٤ ص ١٨٧٤ ح (٣٧)، وابن كثير في تفسيره: ج ٥ ص ٤٥٧.

نساؤه؟ قال: لا، وأيم الله إنّ المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلّقها، فترجع الى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبيّته الذين حرموا الصدقة بعده.

ويؤيّد السيد باقر شريف القرشي هذا الحديث، فيقول في كتابه عن حياة الإمام الحسن عليه السلام[1]:

«إنّ الأخبار الصحيحة التي لا مجال للشكّ فيها: في سندها، وفي دلالتها على اختصاص الآية الكريمة في الخمسة من أهل الكساء عليهم السلام، وعدم تناولها لغيرهم من أُسرة النبي صلى الله عليه وآله. ومعنى ذلك: أنّ ليس لنساء النبي صلى الله عليه وآله نصيب في هذه الآية، فقد اختصّ بها أهل الكساء، ودلّل على ذلك بما يأتي:

(١) خروجهنّ موضوعاً عن «الأهل»، فإنّه موضوع لعشيرة الرجل وذوي قرباه، ولا يشمل الزوجة. ويؤكّد هذا المعنى ما صرّح به زيد بن أرقم حينما سُئل: مَن أهل بيته ـ أي النبي صلى الله عليه وآله ـ نساؤه؟ فقال: لا ـ وأيم الله ـ إنّ المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلّقها فترجع الى أبيها وقومها، أهل بيته: أصله وعصبيّته الذين حُرموا الصدقة بعد.

(٢) أنّنا لو سلّمنا أنّ «الأهل» يطلق على الزوج، فلا بدّ من تخصيصه. ويفنّد السيد باقر القرشي ما قاله عِكْرِمة، يقول: «إنّ عِكْرِمة قال: إنّ الآية نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وآله، وكان ينادي بذلك في السوق! وبلغ من إصراره أن كان يقول: من شاء باهلته أنّها نزلت في أزواج النبي».

ومن رأي السيد باقر القرشي: أنّ عِكْرِمة لا يعوّل على روايته، لأنّه عُرف بعدم الدقّة. فعن ابن المسيّب أنّه قال لمولىً اسمه برد: لاتكذب عليَّ كما كذب عِكْرِمة على ابن عباس.

وعن عثمان بن مُرّة قال للقاسم: إنّ عِكْرِمة حدّثنا عن ابن عباس كذا، فقال القاسم: يا ابن أخي، إنّ عِكْرِمة كذّاب يحدّث غدوه حديثاً يخالفه عشيّاً.

ومع اتّهامه بالكذب كيف يمكن التعويل على حديثه؟! ويستمرّ الأُستاذ باقر شريف في تحليل شخصيّة عِكْرِمة[2]، وينتهي بنتيجة: أنّه لا يمكن التعويل على روايته، مضافاً الى أنّها

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ص ٣٤، وانظر الصواعق المحرقة: ص ٨٣.

(٢) قد تقدّم الكلام في شخصية عكرمة هذا، وما نقلته كتب الرجال في قدحه والطعن فيه، ووصفته بالكذّاب تارة.

من أخبار الآحاد، ولا تصلح لمعارضة الأخبار الصحيحة المتواترة.

ويقول السيد محمد صادق الصدر[١]: إنّ الخطاب لنساء النبي ﷺ، وكلّه بنون النسوة في الآيات السابقة على آية التطهير إلّا هذه الآية: ﴿إنّما يريد الله...﴾، ولو أراد الله تعالى أن يفصح عن عصمتهنّ لقال: إنّما يريد الله ليذهب عنكنّ الرجس ويطهّركن تطهيراً. والآيات كلّها خاصّةٌ بالنساء، وليس للرجال ذكر ليقال: إنّ الله أتى بالتذكير على نحو التغليب.. فيشمل النساء والذكور. إنّ الله سبحانه وتعالى استأنف التأنيث بعد آية التطهير، فقال تعالى: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكنّ من آيات الله والحكمة إنّ الله كان لطيفاً خبيراً﴾ أليس التأنيث المتكرّر في كلّ الآيات السابقة لآية التطهير واللاحقة لها كان مقصوداً[٢]؟

ولنذكر الأسباب المؤدّية الى نزول آيات النساء التي خصّت زوجات النبي ﷺ، فإنّنا إن أمعنّا النظر بمنطوق الآيات، وبسبب النزول، نعرف أنّ آية التطهير لا يمكن انطباقها على

← وصاحب بدع أُخرى، وغير ذلك، راجع حاشية ص ٧١ وما بعدها.

(١) الإجماع في التشريع الاسلامي: ص ١٥ وما بعده.

(٢) فلو تيسّرت لك ـ عزيزنا القارئ ـ تلاوة الآية الكريمة كاملة، وتمعّنت النظر في اختلاف الضمائر فيها، من حيث التذكير والتأنيث، لبرز امام عينيك بصورة جليّة لا يشوبها شكّ اختلاف آية التطهير عمّا قبلها وبعدها من الآي، واختلافهن في الضمائر فيما هو ظاهر. وبعد، نسأل: هل تبقى وحدة سياق بالمرّة؟ حتّى يكون هذا السياق معارضاً للأدلّة القاطعة باختصاص آية التطهير بالخمسة الطاهرين، فضلاً عن أنّه من الاجتهاد في قبال النصّ الصريح.

ينقل صاحب تفسير المنار: ج ٢ ص ٤٥١ ط ٢ عن أُستاذه الشيخ محمد عبده قوله: «إنّ من عادة القرآن أن ينتقل بالإنسان من شأن الى شأن آخر، ثم يعود الى مباحث المقصد الواحد المرّة بعد المرّة».

ثم إنّه لو سلّمنا جدلاً وافترضنا صحّة الاعتماد على دلالة السياق للآيات غير أنّ قوله تعالى: ﴿ليذهب عنكم﴾ و﴿يطهّركم﴾ بضمير المذكّر دون المؤنّث هو نصّ صريح على إخراج نساء النبي ﷺ من الآية. وليس أحد يشكّ أنّ دلالة النصّ الصريح مقدمة على دلالة السياق: لأنّها أقوى وأظهر.

هذا ويضاف إليه أنّ المفسّرين والقسم الكبير من المحدّثين الذين أتى على ذكرهم المؤلّف، والذين خصّوا الخمسة وحدهم دون غيرهم، إنّما اعتمدوا في إخراجهم على الحديث الصحيح عن الرسول الأعظم ﷺ. وقد اتفقت كلمة المسلمين على أنّ السنّة النبوية تفسير وبيان لكتاب الله تعالى.

الزوجات بصورة لاتقبل الشكّ[١].

ولو أراد المنصف أن يقتصر على ذلك لكفاه، فكيف وقد وردت أحاديث كثيرة متواترة ـ بيّنا ذلك سابقاً ـ مجمع على صحّتها تدعم هذه النظرية، وتساعد على فهم ذلك، وتبرهن ـ بما لا مزيد عليه ـ على أنّ لآية التطهير أسباباً لا تتّصل بالأسباب الأُولى دعت الى نزولها؟! وقد شهد بذلك رسول الله، وزوجتاه أُمّ سلمة والسيدة عائشة، وربيبه عمر بن أبي سلمة، وروى ذلك كثير من الصحابة والثقات، ولم يتّفق أن عنى المسلمون بمثل ما عنوا في شأن هذه الآية الكريمة.

أمّا سبب نزول آيات النساء فقد قال الخازن في تفسيره ما نصّه: سبب نزول هذه الآية: أنّ نساء النبي صلى الله عليه وآله طالبنه من عرض الدنيا شيئاً، وطلبن منه زيادة في النفقة، وآذينه بغيرة بعضهنّ على بعض، فهجرهنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وآلى ألّا يقربهنّ شهراً، ولم يخرج الى الصحابة، فقالوا: ما شأنه؟ وكانوا يقولون: طلّق رسول الله صلى الله عليه وآله نساءه، فقال عمر: لأعلمنّ لكم شأنه، قال: فدخلت على رسول الله فقلت: يا رسول الله أطلقتهنّ؟ قال: لا، قلت: يا رسول الله إنّي دخلت المسجد والمسلمون يقولون: طلّق رسول الله نساءه، أفأنزل فأخبرهم أنّك لم تطلّقهنّ؟ قال: نعم إن شئت، فقمت على باب المسجد وناديت بأعلى صوتي: لم يطلّق رسول الله نساءه[٢].

وروى الواحدي بالإسناد عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله جالساً مع حفصة فتشاجرا بينهما، فقال لها: هل لك أن أجعل بيني وبينك رجلاً؟ قالت: نعم، فأرسل الى عمر، فلمّا أن دخل عليها قال لها: تكلّمي، فقالت: يا رسول الله تكلّم ولا تقل إلّا حقّاً! فرفع عمر يده فوجأ وجهها، ثم رفع يده فوجأ وجهها، فقال النبي صلى الله عليه وآله: كُفّ، فقال

---

(١) بل ولا تشمل أقرباء النبي صلى الله عليه وآله أيضاً ولا حتّى أعمامه، ولا أيّ مصداق آخر غير العترة خاصّةً، لأنّ جميع فرق المسلمين تتّفق على عدم عصمة أُولئك، إذ لو كانت الآية تنطوي على الإطلاق، بحيث تشمل أعمام النبي صلى الله عليه وآله وأقرباءه ونساءه لكان منهم من ادّعى هذا الأمر، ولملأ الدنيا صراخاً بهذا الوسام العظيم الخالد بخلود الرسالة، والذي لا يمكن لأيّ أحد أن يزهد فيه أبداً، وهو ما يؤيّده التاريخ، حيث لم ينقل عن أحدٍ ادّعى ذلك، سوى العترة الطاهرة، كما هو ظاهر لكلّ متتبّع للتاريخ وإن لم يؤتَ حظّاً من الذكاء والنباهة.

(٢) لُباب التأويل في معاني التنزيل: ج ٣ ص ٢٥٥.

عمر: يا عدوّة الله. النبي لا يقول إلّا حقّاً. والذي بعثه بالحقّ لولا مجلسه ما رفعت يدي حتّى تموتي. فقام النبي ﷺ فصعد الى غرفته. فمكث فيها شهراً لا يقرب شيئاً من نسائه. يتغذّى فيها. فأنزل الله تعالى هذه الآيات[١].

ونستطيع أن نجزم أنّ السبب الرئيسي من هذه الأسباب التي استدعت غضبه وهجره لنسائه، هو الطعن الموجّه الى عدالته من زوجةٍ تعرف نبوّته، وتفهم أنّه المثل الأعلى للحقّ والعدالة.

لبث النبي الكريم ﷺ ينتظر الوحي، فورد الأمر بأن يخيّر نساءه بالبقاء أوالفراق:

﴿يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتنّ تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكنّ وأسرحكنّ سراحاً جميلاً وإن كنتنّ تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإنّ الله أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً يانساء النبي من يأت منكن بفاحشةٍ مبينةٍ يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ومن يقنت منكنّ لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرّتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً يانساء النبي لستنّ كأحدٍ من النساء إن اتّقيتنّ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً وقرن في بيوتكنّ ولا تبرجنّ تبرّج الجاهلية الأُولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله...﴾ الآيات[٢].

فخيّر الرسول الكريم نساءه بعد نزول آية التخيير بين البقاء والطلاق، فاخترن كلّهن البقاء، وآثرن الله ورسوله والدار الآخرة. وختمت هذه المشكلة برضا الرسول ﷺ. وعودة الحياة الهانئة الى بيت الزوجية في سعادةٍ ووئام.

هذا البيت الذي كان جوّه مكفهرّاً محزناً. والذي صوّرته الآيات السابقة. ووردت ضمنها آية التطهير: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾.

ويستمرّ الأُستاذ محمد صادق الصدر في شرح وجهة نظره[٣]، ويقول: «فماذا قصد الإله الكريم بهذه الآية؟ هل نفهم منها ما فهم عِكْرِمة؟ لا، إنّ عقلنا يأبى ذلك، وإنّ لساننا العربي لايفقه لغتها، ولا أخال أنّ المبتدئ في اللغة يقرّ هذا الفهم إذا كان عقله سليماً لم تؤثّر

---

(١) أسباب النزول: ص ٢٩٧.

(٢) سورة الاحزاب: ٢٨ ـ ٣٣.

(٣) الإجماع في التشريع الاسلامي: ص ١٧ ومابعده.

فيه الأغراض والأمراض.

كيف تنطبق الآية على النساء وقد شهد الله لأهل البيت بالعصمة من الذنوب، في حين أنّا نعلم أنّ سبب الهجر قد أدانهنّ بالذنب، كما أنّ هجرهنّ له صلى الله عليه وآله أثبت عليهنّ النشوز الشرعي، وهو محرّم صدوره مع الرجل أيّاً كان، فكيف إذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وقد فرضت طاعته عليهنّ كزوجٍ وكرسول الله صلى الله عليه وآله ؟!

يضاف الى ذلك التشكيك من بعضهنّ بعدالته، وهو النبي العادل الذي لا يمكن الشكّ في قوله أوعمله ممّا هو غنيّ عن البيان.

إذن، فكيف يشهد الله تعالىٰ لهنّ بالعصمة، إذا كنّ المقصودات في «أهل البيت» وهنّ في حال التلبّس في الذنب؟ هذا لا يصدر من الناس، فكيف ننسبه الى الله تعالىٰ عن ذلك علوّاً كبيراً؟!

وإذا كنّ غير مقصودات كما اتّضح ذلك، فمن هم إذن «أهل البيت»؟ ولماذا ذكر هنا هذا البيت؟

للرسول الكريم صلى الله عليه وآله بيتان: بيت الزوجية، وبيت النبوّة.

أمّا بيت الزوجية، فلم يكن بيتاً واحداً، وإنّما كان بيوتاً متعدّدة تسكنها زوجاته صلى الله عليه وآله، كما يشعر بتعدّدها صيغة الجمع في قوله تعالىٰ: ﴿وقرن في بيوتكنّ﴾ وفي قوله: ﴿واذكرن ما يتلىٰ فيه بيوتكنّ﴾.

وأمّا بيت النبوّة فقد كان منحصراً في بيت واحد تسكنه ابنته الزهراء وابن عمّه عليّ وريحانتاه الحسنان عليهم السلام[1].

---

(١) وهو ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله حريصاً علىٰ تحديدهم وتشخيصهم، ومنع إدخال مَن ليس منهم فيهم، فكان يشخّصهم عليهم السلام بأسمائهم كما في رواية عبدالله بن جعفر الذي يرويها الحاكم في المستدرك: ج ٣ ص ١٤٨: «فيقول صلى الله عليه وآله: ادعوا لي، ادعوا لي، فتقول صفية: من؟ فيقول صلى الله عليه وآله: أهل بيتي علياً وفاطمة والحسن والحسين» ثم يؤكّد هذا الحصر والتشخيص بقوله صلى الله عليه وآله: «اللّهمّ هؤلاء آلي، فصلّ على محمد وآل محمد»، فينزل الله فيهم قرآناً محكماً: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾.

ولا يخفى ما في هذه الكلمة «اللّهمّ هؤلاء آلي» من الدلالة على الحصر، حصر أهل البيت فيهم، ونفيه عن ←

وحيث قد انتفت العصمة عن تلك البيوت الممثّلة بالأزواج، بالنظر لارتكابهنّ المعصية، وخروجهنّ عن الطاعة، اتّجهت العصمة الى البيت الواحد، وأعلنها الوحي بقوله تعالى:

﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾.

فأورد «البيت» بالمفرد، وجاء بـ «ال» للعهد، ونصب «أهلاً» ليخصّ بالمدح أهل البيت بمفردهم في ظرفٍ لا يمكن توجيه المدح الى غيرهم.

← غيرهم. يضاف إليه إمعانه ﷺ في تشخيصهم وتحديدهم بحصرهم تحت الكساء دون غيرهم كما في رواية أُم سلمة، وهو أبلغ مايكون من الحصر، فكأنّما أراد النبي ﷺ أن يقطع على كلّ أحد حذر الالتباس، فتجاوز ﷺ دلالات الكلام بحصرهم تحت كساء واحد ليكون أبلغ في الحصر، وأقوىٰ في الدلالة.

هذا ويضاف إليه تصريحه ﷺ في ذلك تصريحاً لايترك لأحد شكّاً بعده، فيقول على ما رواه الطبري في تفسيره آية التطهير، والمحبّ الطبري في الذخائر أيضاً، وابن كثير في تفسيره بالإسناد الى أبي سعيد عنه ﷺ قوله: «نزلت هذه الآية في خمسة: فيَّ وفي علي وحسن وحسين وفاطمة» فهل يبقى لأحد شكّ بعد هذا البلاغ النبوي الشريف. الصادع بالمقصود من «أهل البيت» الوارد في الآية الكريمة في زمان نزولها؟ هذا إذا زدنا عليه ما رووه عنه ﷺ أنّه كان يمرّ كل يوم علىٰ باب فاطمة ويصيح: «الصلاة عليكم أهل البيت ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾».

فعن أبي برزة قال: صلّيت مع رسول الله ﷺ سبعة أشهر، فإذا خرج من بيته أتىٰ بيت فاطمة فقال: «الصلاة عليكم ﴿إنما يريد الله...﴾ الآية».

وعن ابن عباس قال: شهدت رسول الله ﷺ تسعة أشهر، يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كلّ صلاة فيقول: «السلام عليكم ورحمته وبركاته أهل البيت ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾» كلّ يوم خمس مرات.

وعن مالك بن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يمرّ بباب فاطمة ستة أشهر كلّما خرج الى صلاة الفجر ويقول: «الصلاة يا أهل البيت ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾».

فإنّه لا يختلج الشكّ أحداً بعد كلّ هذا الايضاح بأنّ الآية الكريمة لم يشمل حين نزولها غير أولئك الخمسة الطاهرين.

ويجدر ذكره أنّ ابن مردويه أخرج من مائة وثلاثين طريقاً: أنّ العترة علي وفاطمة والحسنان. راجع مناقب علي بن أبي طالب لابن مردويه: ص ٢٢٨ برقم ٣٢٤.

ولو أراد بيوت السكن التي تقدّم ذكرها لكرّر جمعها، وألحق بها نون النسوة، لتكون المقصودة بالذات.

فذكر «البيت» مفرداً ومتوسّطاً بين آيتين، في كلٍّ منهما جاء «البيت» بالجمع، لأكبر دليلٍ على أنّ هذا المفرد ليس من تلك البيوت، وأنّ أهله ليسوا مثل أهلها، فقد كان كلّ فردٍ من هذا البيت الطاهر أقرب الناس وأطوعهم الى امتثال أمره ونهيه، صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين.

إنّ بيت الزوجية يكوّنه السبب بإيقاع العقد الشرعي فيجعله سكناً ومسكناً، وتقوّض دعائمه في كلمة واحدة تؤذن بالطلاق. فإذا البيت يتهدّم، وإذا بالزوجة تصبح امرأة أجنبية تخرج من أهله الى أهلها.

والبيت الثاني «بيت النبوّة» يكوّنه النسب، وكانت آية التطهير حجر الأساس لبناء كيان هذا البيت، لأنّ العصمة ملكة في النفس تمنع صاحبها من أن تشوبه شائبة، فهو أبداً طاهر مطهّر، من طهر طاهر.

وقد أراد الله تعالىٰ بعد أن عرّف الناس بالبيت الأول: أن يعرّفهم منزلة البيت الثاني، ليتّضح الفرق بين البيتين، فيفهم كلّ بيتٍ علىٰ واقعه، وحتّىٰ لا يحصل الالتباس، أو يطبّق في حقّهما القياس، فيكون كقياس «إذ» على «إذا» والمبتدأ على الخبر.

وهم كما قال عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله:

«نحن أهل البيت لا يُقاس علينا أحد»[1].

إنّ البيت الأول تشيده كلمة وتهدمه كلمة، وإنّ البيت الثاني خالد ما خلد الدهر، لأنّهم سلام الله عليهم أمان لأهل الأرض، قال جدّهم صلى الله عليه وآله فيما أخرجه الإمام أحمد في المناقب:

«النجوم أمان لأهل السماء، فإذا ذهبت النجوم ذهب أهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض»[2].

---

(١) رواه أنس بن مالك، أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال: ج ١٢ ص ١٠٤ ح ٣٤٢٠١ عن الديلمي في فردوسه.

(٢) مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام: ص ٢١. وأخرجه الحاكم أيضاً في المستدرك: ج ٢ ص ٤٤٨ بسنده عن جابر، وقال: صحيح على شرط الشيخين. والهيثمي أيضاً في مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ١٧.

وهذا الحديث يشعرنا بوضوح ببقاء أهل البيت ذخراً للناس، يهتدون بهديهم، ويستضيئون بأنوارهم. كما يرشد الى ذلك قوله ﷺ، فيما رواه عمر بن الخطّاب، قال: إنّ النبي ﷺ قال:

«في خلوف من أُمّتي عدول من أهل بيتي، ينفون عن هذا الدين تحريف الغالبين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، ألا وإنّ أئمتكم وفدكم الى الله عزّوجلّ، فانظروا بمن توفدون»[1].

وإذا كان ابن نوح كُتب عليه الغرق، لأنّه عمل غير صالح، فلم يُكتب له النجاة في سفينة نوح أبيه، فإنّ أهل البيت هم سفن النجاة يسعفون كلّ من ركب سفينتهم، وتمسّك بحبل ولائهم.

إنّ أتباعهم يمخرون العباب متمسّكين بأعدال الكتاب، كما قال ﷺ:

«مثل أهل بيتي كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تعلّق بها فاز، ومن تخلّف عنها زُجّ في النار»[2].

هذا هو البيت الثاني الذي أراد الله عزّوجلّ أن يعرّف الأمة به، في قوله تعالى:

﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾

فجاءت الآية الكريمة مشتملة على ما يوجب تركيز الثقة، وتوطيد دعائم العصمة، في كلّ فردٍ من أفراد هذا البيت الطاهر، وينادي بفضل آل الرسول أعدال الكتاب، وقادة الأمة الى الحقّ والصواب، هذا هو البيت الذي أسّس قواعده، وشيّد أركانه، وقال فيه رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه شرف الدين في المراجعات: ص ٩٠ عن الصواعق المحرقة.

(٢) قد تواتر الحديث في كتب الحديث وإن اختلفت بعض الألفاظ اليسيرة ممّا لا تضرّ بالمعنى، حتّى اشتهر بحديث السفينة. راجع على سبيل المثال لا الحصر: المعجم الأوسط للطبراني: ج ٦ ص ٢٥١ رقم ٥٥٣٢، والمعجم الصغير: ج ٢ ص ٢٢، وأمالي الشجري: ج ١ ص ١٥٤، ومستدرك الحاكم: ج ٢ ص ٣٤٣، وج ٣ ص ١٥٠، وحلية الأولياء: ج ٤ ص ٣٠٦، وذخائر العقبى: ص ٢٠، وتاريخ بغداد: ج ١٢ ص ١٩، وكنز العمال: ج ١٢ ص ٩٨ ح ٣٤١٦٩ و ٣٤١٧٠، ومجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٦٨، والدر المنثور: ج ١ ص ٧١ ـ ٧٢ عند قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية... وقولوا حطّة﴾ البقرة / ٥٨، وكنوز الحقائق للمناوي: ص ١٣٢.

«الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت»

كما أخرجه الإمام أحمد في المناقب[١].

ومن حديث أُمّ سلمة، والذي سبق وأشرنا إليه، يرى السيد محمد الصدر[٢]: أنّ هناك عدّة أُمور حرص عليها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله تطبيقاً لآية التطهير:

(١) حصرهم تحت كساءٍ واحدٍ حتّى لا يمكن اشتراك أحد من أهل الدار في جلستهم الخاصّة، وكأنّ الحصر المعنوي ، «إنّما» أراد الرسول الأعظم تطبيقه بالفعل على الأشخاص الذين عناهم الله بالحصر.

(٢) لم يكتف الرسول صلى الله عليه وآله بحصرهم في نطاقٍ واحدٍ حتّى أشار إليهم بقوله: «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي وخاصّتي. فأذْهِب عنهم الرجس وطهِّرهم تطهيراً» فأخبره عنهم ـ وهو يعلم أنّه تعالى مطّلع على ذلك ـ أخبره ليعلن رأيه، فتسمع أُمّ سلمة ومن شاهد نزول هذه الآية، ليفهم أنّها خاصّة بهم دون سواهم، وكرّر تلاوة الآية ثلاث مرّات كي يؤكّدها، ويتأكّد من سماع أهل الدار لها.

(٣) قوله لأُمّ سلمة: «إنّك الى خير» مرّتين، إشعار لها بأنّها ليست من أهله الذين عناهم الله، ولذلك لم يأذن لها بالدخول معهم، وفي الوقت نفسه أكّد لها: أنّها على خير.

وفي الرواية الأُخرى التي ذكرها الخازن[٣] قول الرسول لها: «إنّك الى خير. أنت من أزواج النبي» لتعلم أنّ سبب عدم الإذعان لها بالدخول كونها من أزواجه، وهنّ لسن من أهله، وإلّا فهي على خير، مشعراً برضاه عنها، وأنّها من أهل الجنّة.

فتصريح أُمّ سلمة، وتصريح السيدة عائشة، وعمر بن أبي سلمة، وزينب بنت أبي سلمة، وواثلة بن الأسقع فيما ذكره المحبّ في ذخائره[٤] لم يُبق مجالاً للقول بأنّ «أهل البيت» القصد منه الزوجات، أوأنّهنّ يشتركن مع أقرباء النبي المذكورين في شمول إطلاق «أهل البيت» عليهنّ.

---

(١) مناقب علي بن أبي طالب: ص ٢٧.

(٢) الإجماع في التشريع الاسلامي: ص ٢٢ وما بعده.

(٣) لُباب التأويل في معاني التنزيل: ج ٣ ص ٢٥٩.

(٤) ذخائر العقبى: ص ٢١ ـ ٢٤.

إنّ جذب الرداء من أُم سلمة ـ وقد حاولت أن تكون معهم ـ لأقوىٰ دليل علىٰ عدم الشمول لهنّ في الإطلاق، وإلّا لأذن النبي ﷺ لها، ولا سيّما أنّهم في بيتها، وهي علىٰ خير برأي النبي ﷺ.

وكما أنّ صريح الحديث أنّ «الخمسة» عليهم السلام كانوا يأكلون، ثم نزلت الآية في حقّهم، ولم تُدعَ أُمّ سلمة الى مشاركتهم في الطعام، لأنّ مشاركتها لهم في ذلك تشعر بدخولها معهم في «أهل البيت»، وإذا دخلت فإنّ النساء الباقيات يدخلن بأجمعهنّ ولو كنّ غير موجودات، لأنّ أُمّ سلمة تعتبر ممثلّة لهنّ، وهذا خلاف الغرض الذي يرمي إليه تعالىٰ، ممّا حدا بالرسول الكريم ﷺ على ألّا يدعوها إلى الطعام، وألّا يدعها تدخل معهم تحت الكساء.

ونفهم بالإضافة الى ما تقدّم: أنّ الله تعالىٰ أنزل آية التطهير في وقتٍ كان الطعام من صنع الزهراء عليها السلام، وهي إحدى الأفراد الخمسة المعنيّين بالآية الكريمة، كي لا تكون للنساء أيّ علاقة في الموضوع، وأيّ مشاركة.

ونفهم أيضاً من طلب الرسول الكريم ﷺ الى بضعته الزهراء أن تدعو بعلها وابنيها: أنّه كان ﷺ علىٰ علم بما سينزل الله تعالى في شأنهم من فضل عظيم، وإلّا فلماذا يدعوهم الى طعامٍ صُنع في دارهم؟

ونستشعر من صنع الزهراء للحريرة: أنّ ذلك كان في الظرف الذي استدعى تخيير النساء بين الطلاق والبقاء، وأنّه ﷺ كان مضرباً عن تناول طعامهنّ أيضاً، بالإضافة الى تركهنّ، الأمر الذي استدعىٰ أن يُجلب الطعام له من دار بضعته الزهراء أُمّ الحسنين عليهما السلام.

ونفهم من تكرار الحديث: تكرار صنع الطعام وإن كانت الآية الكريمة نزلت بعد صنع الحريرة أول مرّة، وكلّها كانت من صنع الزهراء سيدة النساء.

وقد أذاع النبي الكريم ﷺ هذه الكرامة لأهل بيته، وأخذ يوطّدها في أذهان الناس، ويكرّرها كلّما مرّ في صلاة الفجر علىٰ «أهل البيت»[1].

---

(١) فقد روى ابن جرير وابن مردويه عن أبي الحمراء قال: حفظت عن رسول الله ﷺ ثمانية أشهر بالمدينة، ليس من مرّة يخرج الى صلاة الغداة إلّا أتى الى باب علي فوضع يده على جنبتي الباب، ثم قال: الصلاة الصلاة ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾. ورواه الطبراني أيضاً عنه ولفظه: ←

وهنا نقطة لابدّ من ملاحظتها، وهي: أنّ آية التطهير ـ كما يظهر مِن كلّ مَن نصّ على نزولها ـ أنّها آية مستقلّة، وليست جزءاً من آية.

ولم يكشف المفسّرون أوالمحدّثون عن الظرف الذي أحاط بالنزول، وهل وافق نزولها مع نزول الآيات التي خصّت نساء النبي صلى الله عليه وآله، أوكان ذلك من قبل أومن بعد؟

ولعلّ وضعها كان لوجود القدر الجامع بينها وبين آيات الأزواج، وهو رسول الله صلى الله عليه وآله عماد أهل البيت. فقد كان أبوالقاسم صلى الله عليه وآله القاسم المشترك للجميع، وكلّهم من رجال ونساء لايخرجون عن أهله، أوعن أهل داره، وهذا كافٍ لأن يجعل انسجاماً في العرض، ووحدة في السياق، بين آية التخيير في النساء، وآية التطهير في أهل البيت عليهم السلام. وفي هذا الدليل على عصمة أهل البيت المتمثّل بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين.

وأمّا عصمة أهل البيت من الخطأ فحسبنا الحديث النبوي المجمع على صحّته وتواتره:

«إنّي تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي: كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض، وعترتي أهل بيتي. ولن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض. فانظروا كيف تخلّفوني فيهما»[1].

← «رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يأتي باب علي وفاطمة ستة أشهر ...» بل في رواية السيوطي في الدر عن ابن مردويه عن ابن عباس قال: شهدنا رسول الله صلى الله عليه وآله تسعة أشهر يأتي كلّ يوم بيت علي بن أبي طالب عند وقت كلّ صلاة فيقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾. ويعلّق السيد الطباطبائي صاحب الميزان على هذه النصوص بقوله: والروايات في هذه المعاني من طرق أهل السنّة كثيرة، وكذا من طريق الشيعة، ومن أراد الاطّلاع عليها فليراجع غاية المرام للبحراني والعبقات. (تفسير الميزان: ج ١٦ ص ٣١٩).

(١) فقد تواتر حديث الثقلين بين علماء المسلمين لدرجة الإشباع وإن اختلفت بعض ألفاظه، وأجمعوا على صحّته، نذكر ممّن رواه وأخرجه من أعلام مفسّري ومحدّثي ومؤرّخي أهل السنة على سبيل المثال، لا الحصر: صحيح مسلم: ج ٤ ص ١٨٧٤ ح ٣٧ من كتاب الفضائل. سنن الترمذي: ج ٥ ص ٦٢٢ ح ٣٧٨٨. سنن الدارمي: ج ٢ ص ٤٣٢. مسند أحمد: ج ٣ ص ١٤ و٢٦ و٥٩ و٢١٧. وج ٤ ص ٣٦٧ و٣٧١. وج ٥ ص ←

وفي الحديث أمران، كلٌّ منهما يكفي للدلالة على العصمة من الخطأ:

الأول: جزم صلى الله عليه وسلّم بصورة قاطعة على أنّ التمسّك بالكتاب وبأهل بيته يستدعي ألّا يضلّ المسلم عن طريق الحقّ والصواب.

الثاني: حكم صلى الله عليه وسلّم حكماً لا يقبل الشكّ بأنّهما لن يفترقا، ولو جاز الخطأ لافترقا، ولا شكّ أنّ الذي يكون مع القرآن لايتصوّر في حقّه الخطأ. وهذا ما جعل الإمامية تجمع على حجّية إجماع أهل البيت عليهم السلام، معتبرة خلاف غيرهم كالعدم فلا يضرّ بالإجماع؛ لأنّ رأيهم من رأي جدّهم رسول الله صلى الله عليه وآله، وقوله وحي يوحى، فلا يجوز أن يترك رأيهم ويؤخذ رأي غيرهم وهو معرّض للخطأ والصواب.

وقد أراد النبي الكريم صلى الله عليه وآله أن يعرّف أُمته منزلة عترته العلمية، ليكون التمسّك بأهل بيته تمسّكاً من حيث الولاء، وتمسّكاً من حيث العلم، فقال صلى الله عليه وآله فيما رواه الطبراني[1] في

← ١٨٢ و١٨٩، خصائص النسائي: ص ٣٠، سنن البيهقي: ج ٢ ص ١٤٨، وج ٧ ص ٣٠ وج ١٠ ص ١١٤، مستدرك الحاكم: ج ٣ ص ١٠٩ و١١٠ و١٤٨ و٥٣٣، وكفاية الطالب: ص ١١ و١٣٠، طبقات ابن سعد: الطبقة الرابعة ص ٨، حلية الأولياء: ج ١ ص ٣٥٥، أُسد الغابة: ج ٢ ص ١٢ وج ٣ ص ١٤٧، المعجم الكبير: ج ٥ ص ١٥٣ ح ٤٩٢١، المعجم الصغير: ج ١ ص ١٣١ ح ١٣٥، العقد الفريد: ج ص ١٥٨ و٣٤٦ ضمن خطبة الوداع للنبي الاكرم صلى الله عليه وآله، تذكرة الخواص: ص ٣٢ ب ١٢٣، ذخائر العقبى: ص ١٦، السراج المنير للعزيزي: ج ١ ص ٣٢١، أمالي الشجري: ج ١ ص ١٥٤، الفصول المهمّة: ص ٢، نسيم الرياض لشهاب الدين الخفاجي: ج ٣ ص ٤١٠، تفسير الثعلبي ج ٣ ص ١٨، تفسير النيسابوري: ج ١ ص ٢٥٧ وج ٢ ص ٩٤ و٢١٢، تفسير ابن كثير: ج ٤ ص ١١٣ ضمن تفسير آية المودة، وج ٣ ص ٤٨٥ ضمن تفسير آية التطهير، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج ٦ ص ١٣٠ فصل في معنى العترة، مدارج النبوة: ص ٥٢٠، مفتاح كنوز السنّة: ص ٢ و٤٤٨، مصابيح السنّة: ج ٢ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦، الصواعق المحرقة: ٧٥ و٨٧ و٩٩ و١٣٦، مشكل الآثار: ج ٤ ص ٣٦٨ و٣٦٩، مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٦٢ و١٦٣ و١٦٤، إسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار: ص ١١٠، ينابيع المودّة: ص ١٨ و٢٥ و٣٠ و٣٢، وغيرها كثيرة.

ويذكر أنّ ابن مردويه أخرج الحديث من تسعة وثمانين طريقاً. راجع كتابه مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام: ص ٢٢٨ رقم ٣٢٣، وأيضاً الصراط المستقيم: ج ٢ ص ١٠٢.

(١) المعجم الكبير: ج ٥ ص ١٥٣ ح ٤٩٢١، والصغير أيضاً: ج ١ ص ١٣١ ح ١٣٥.

حديث الثقلين:

«فلا تقدموهما ـ أي القرآن والعترة ـ فتهلكوا، ولا تقصّروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم».

وقد علّق ابن حجر على هذه الفقرات من الحديث الشريف فقال: «في قوله صلى الله عليه وآله دليل على أنّ من تأهّل منهم للمراتب العليّة والوظائف الدينية كان مقدّماً على غيره»[1].

ولا شكّ أنّ المقصود من حثّه صلى الله عليه وآله على التمسّك بالقرآن والعترة إنّما هو الاهتداء بهما، والاسترشاد بحكمها وأقوالهما كي لايضلّوا. وواضح أنّ من ترك التمسّك بهما ضلّ الطريق بعد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وسلك طريقاً قد خالف القرآن والسنة: وهذا أمر معلوم من منطوق الحديث ومفهومه.

هذا رأي الإمامية في حجّية إجماع أهل البيت[2]. وأمّا رأي المذاهب الإسلامية

---

(١) الصواعق المحرقة: ص ١٥١.

(٢) لايخفى أنّ هذا القول قد درج عليه جماعة كبيرة من علماء وأُصولي أهل السنّة ونسبوه الى الشيعة الإمامية. أمثال: ابن الحاجب في منتهى الوصول والأمل: ص ٥٧. وصاحب المدخل الى مذهب أحمد: ص ١٣٢. والشنقيطي في نشر البنود: ج ٢ ص ٩١. والقاضي في شرحه: ص ١٣٣. والشيرازي في تبصرته: ص ٣٦٨. والآمدي في إحكامه: ج ١ ص ٢٠٩. والشوكاني في الإرشاد: ج ١ ص ٢٩٤ وغيرهم. على أنّ الإجماع ـ أيّ إجماع ـ لا ينعقد إلّا بإجماع العترة. وأمّا سواه فهو عارٍ عن الصحّة والمنجّزية. ولعلّ المؤلف يذهب الى هذا المشهور الدارج على الألسن كما يظهر من كلماته الشريفة.

والحقيقة أنّ هذا القول لم يقل به من الشيعة غير الزيدية. ويظهر بجلاء كلّ من رغب في مراجعة الكتب التالية: شرح طلعة الشمس للسالمي: ج ٢ ص ٨٠٩. وشفاء غليل السائل: ص ٨٥. والبحر الزخّار لأحمدين يحيى: ج ١ ص ١٨٥.

وأمّا الإمامية، فلا يرون هذا الرأي، ولا يذهبون إليه، وذلك أنّهم يرون أنّه لا حاجة في اعتبار أقوال العترة الى حصول الإجماع بينهم عليها، ولم يشترطوا قولهم عليه السلام في انعقاده. بل اعتقادهم ينصبّ في أنّ كلّ قول أوفعل أوتقرير الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً هو حجّة برأسه، باعتبار كون ما يصدر عنه إنّما هو امتداد للنبي صلى الله عليه وآله وسنّته الشريفة الصحيحة. وأنّ الإجماع يكفي بانعقاده اتّفاق جماعة من مجتهدي ←

الأربعة في إجماعهم عليهم السلام فهو عدم الحجّية، لأنّهم يرون أن أهل البيت بعض الأمة فلا يحقّق قولهم إجماعاً.

قال الشوكاني في كتابه «إرشاد الفحول» ما نصّه: وذهب الجمهور أيضاً الى أنّ إجماع «العترة» وحدها ليس بحجّة. وقالت الزيدية والإمامية: هو حجّة.

ثم قال: وقد استدلّوا بأحاديث كثيرة جدّاً تشتمل على مزيد شرفهم، وعظيم فضيلتهم، ولا دلالة فيها على حجّية قولهم، وقد أبعد من استدلّ بها على ذلك[1].

ويقول عبدالعزيز البخاري في شرحه «كشف الأسرار» على أُصول البزدوي: وكذا ما تمسّك به الفريق الثاني، لأنّ المراد من قوله: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾: أزواج النبي صلى الله عليه وآله.

ثم قال: وكذا قوله: «تركت فيكم الثقلين» من الآحاد، وخبر الواحد ليس بحجّة عندهم، على أنّه يفيد التمسّك بالكتاب والعترة، لا العترة وحدها، مع أنّه معارض بنحو: «أصحابي كالنجوم» الدالّ على جواز التمسّك بكلّ واحد من الصحابة، وكون التمسّك مهدياً وإن خالف الصحابي أهل البيت، وحينئذٍ لا يكون قولهم واجب الاتّباع[2].

أمّا قوله: «إنّ آية التطهير المقصود منها الأزواج» فقد أوضحنا بما لا مزيد عليه: أنّ المقصود من أهل البيت هم العترة الطاهرة، لا الأزواج.

← وعلماء هذه الأمة وإن لم يكن شكل الأكثرية، على تفصيل موكول في محلّه. راجع في ذلك الذريعة للسيد المرتضى: ج ٢ ص ٦٠٥، والوافية للتوني: ص ٥٧، ومصادر الحكم الشرعي لكاشف الغطاء: ص ٢٣، ودرر الفوائد للحائري: ج ٢ ص ٣٧١، وأصول الفقه المقارن للحكيم، ضمن مبحث: سنّة أهل البيت، تجد فيها الكلام وافياً.

نعم، يُذكر في البين أنّ الحلّيين ـ المحقّق والعلّامة ـ قد تعرّضا لعنوان «إجماع العترة» في كتابيهما: معارج الأصول: ص ١٣٠، ومبادئ الوصول الى علم الأصول: ص ١٩٥ غير أنّهما ذكراه باعتبار أنّ العترة مشتملة على المعصوم، فإجماعهم إنّما هو كاشف عن قول المعصوم، وقد صرّح ببيانه المحقّق الحلّي في كتابه المعارج، فليراجع.

(١) إرشاد الفحول الى تحقيق الحقّ من علم الأصول: ج ١ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٢) كشف الأسرار: ج ٣ ص ٤٤٨.

وقد اعترف الشوكاني في «إرشاد الفحول»[١] بهذه الحقيقة، فقال ما نصّه ردّاً على من قال: إنّها نزلت في النساء:

«ويجاب عن هذا بأنّه قد ورد بالدليل الصحيح أنّها نزلت في عليّ وفاطمة والحسنين، وقد أوضحنا الكلام في هذا في التفسير الكبير الذي سمّيناه (فتح القدير[٢])».

وأمّا قوله: «حديث الثقلين خبر واحد، وأنّه ليس بحجّة عندنا» فهذا مردود، لأنّ خبر الثقلين متواتر، ومجمع على صحّته[٣]. وقد نصّ ابن حجر في صواعقه[٤] بأنّ طرقه كثيرة، وأنّه ورد عن نيف وعشرين صحابيّاً، وأنّه تكرّر الحديث منه صلى الله عليه وآله في موارد عديدة، اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترة الطاهرة.

وأمّا قوله: بأنّ «خبر الواحد ليس بحجّة عندنا» فهو قول لأحد أعلامنا المتقدّمين، وإلّا فإنّ الإمامية ـ منذ السابق وإلى اليوم ـ مجمعة على حجّية الخبر إذا صحّ وروده عن المعصوم، وهذا أمر واضح لكلّ من رجع الى كتبنا الأُصولية.

وأمّا قوله: «إنّ حديث الثقلين يفيد التمسّك بالكتاب والعترة، لا بالعترة وحدها» فهذا صحيح، والإمامية لاترى غير ذلك، وتجزم معتقدةً بأنّ الكتاب والعترة متلازمان لا يفترقان، كما هو صريح الحديث، وهذا هو حجر الأساس في حجّية قول أهل البيت دون سواهم.

وأمّا قوله: «إنّ حديث الثقلين معارض بنحو: «أصحابي كالنجوم» فقد عرفت أنّ الحديث ثابت الوضع، فلا يقوى على المعارضة[٥].

---

(١) إرشاد الفحول: ج ١ ص ٢٩٥.

(٢) فتح القدير: ج ٤ ص ٢٧٨ ـ ٢٨٠.

(٣) إذ أنّ طرق رواية هذا الحديث تبلغ تسعين طريقاً أوأكثر. وتفصيل ذلك يحسن مراجعة الرسالة القيّمة التي أصدرتها دارالتقريب بين المذاهب الاسلامية / القاهرة، والتي نقشتها يراعة فضيلة الشيخ الحجّة قوام الدين الوشنوي، وقد طبعت تحت عنوان «حديث الثقلين».

(٤) الصواعق المحرقة: ص ١٥٠.

(٥) فالحديث باطل عند الباحثين والمحقّقين من العلماء وأهل النظر، فلا يقضي علماً ولا عملاً، لكونه مطعون في سنده ودلالته معاً.

←

وكان على صاحب «كشف الأسرار» أن يكشف لنا عن سرّ المرجّح الذي قدّم القول المكذوب على الحديث الثابت. اللّهمّ إلّا أن يكون السرّ هو الميل القلبي إلى قوم، والانحراف بالقلب عن آخرين. ويدلّ على ذلك تقديمه لقول الصحابي بمفرده على رأي أهل البيت بمجموعهم!

وللإمام جلال الدين السيوطي بحث مستفيض في أهل البيت قال:

← أمّا من حيث السند فلأن في طريقه حمزة النصيبي والحارث بن غصين، والأول متّهم، والثاني مجهول. قال الحافظ الذهبي في كتابه ميزان الاعتدال: ج ١ ص ٣٨٤: قال ابن معين: حمزة النصيبي لا يساوي فلساً! وقال البخاري: منكر الحديث. وقال الدارقطني: متروك. وقال ابن عدي: مروياته موضوعة.

وقال ابن حجر في لسان الميزان: ج ٢ ص ١٥٦: الحارث بن غصين، قال ابن عبدالبرّ: مجهول.

وقد قال ابن عبدالبرّ في كتابه جامع العلم: ج ٢ ص ١١١ عند إيراده الحديث المذكور: هذا إسناد لاتقوم به الحجّة، لأنّ الحارث بن غصين مجهول.

وإنّما بطلان دلالته فلأنّ المخاطبين حينئذٍ بلفظ «التدريتم» هم أصحابه، والمشبّهون بالنجوم هم جميع أصحابه، لأنّ الجمع المنكر المضاف في قوله «أصحابي» يفيد العموم عند علماء الأصول. فيحتمل إذاً أن يكون المراد والمدلول: أن يقتدي كلّ فرد منهم بغيره، مع أنّ كلّ واحد منهم نجم يُقتدى به، وهو موجب للاضطراب في مدلوله، إذ ما عسى أن يُقال في قتلة عثمان والمتقاعدين عن نصرته؟!!! ثم ما حكم القاتلين والمقتولين في الحروب التي اندلعت نيرانها إبّان صدر الإسلام بين طوائف المسلمين، وكان الصحابة موزّعين في الطرفين؟!!

ثم إنّه معارض بما هو صحيح السند وصريح الدلالة بخلافه، وهو حديث الحوض الذي أخرجه البخاري في الصحيح: ج ٤ ص ٩٤ باب «الصراط جسر جهنّم» من أنّه ﷺ قال: «يرد عليّ الحوض رجال من أصحابي، فيُجلون عنه، فأقول: يارب، أصحابي، فيقال: إنّك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنّهم ارتدّوا على أدبارهم القهقرى».

وأخرج ايضاً في نفس الصفحة عنه ﷺ «ليردنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يُحال بيني وبينهم، فأقول: إنّهم منّي، فيُقال: إنّك لاتدري ما أحدثوه بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً لمن غيّر بعدي».

وأخرج أيضاً في: ج ٣ ص ٨٥ باب «وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم» أنّه ﷺ قال: «يُجاء برجال يوم القيامة، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقال: إنّك لاتدري ما أحدثوه بعدك، انّ هؤلاء لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتهم».

«أولاد السيدة زينب من عبدالله بن جعفر عليه السلام موجودون بكثرة» وتكلّم عليهم من عشرة أوجه:

(١) أنّهم من آل النبي صلى الله عليه وآله أهل بيته بالإجماع. لأنّ آل البيت هم المؤمنون من بني هاشم والمطلّب.

وأخرج مسلم[١] والنسائي[٢] ـ كما سبق وذكرنا ـ عن زيد بن أرقم. قال:

قام رسول الله صلى الله عليه وآله خطيباً فقال: «أذكّركم الله في أهل بيتي» ثلاثاً. فقيل لزيد بن أرقم: ومن أهل بيته؟ قال: أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده. قيل: ومن هم؟ قال: آل عليّ وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس.

(٢) أنّهم من ذرّيته وأولاده بالإجماع. وهذا المعنى أخصّ من الذي قبله. وقال البغوي في التهذيب[٣]: «أولاد بنات الإنسان لا ينسبون إليه وإن كانوا معدودين في ذرّيته. حتّى لو أوصى لأولاد أولاد فلان يدخل فيه ولد البنت».

(٣) أنّهم هل يشاركون أولاد الحسن والحسين عليهما السلام في أنّهم ينسبون الى النبي صلى الله عليه وآله؟ الجواب: لا. وهذا المعنى أخصّ من الوجه الذي قبله، وقد فرّق الفقهاء بين من يسمّى ولداً للرجل وبين من ينسب إليه، ولهذا قالوا: لو قال: وقّفت على أولادي، دخل ولد البنت، ولو قال: وقّفت على من ينسب الى من أولادي، لم يدخل ولد البنت.

وقد ذكر الفقهاء من خصائصه صلى الله عليه وآله أنّه ينسب إليه أولاد بناته، ولم يذكروا مثل ذلك في أولاد بنات بناته. فالخصوصية للطبقة العليا فقط. فأولاد فاطمة عليها السلام الأربعة يُنسبون إليه. وأولاد الحسن والحسين يُنسبون إليهما فيُنسبون إليه. وأولاد زينب وأُمّ كلثوم يُنسبون الى أبيهم عمر وعبدالله، لا الى الأُمّ، ولا الى النبي صلى الله عليه وآله، لأنّهم أولاد بنته لا أولاد بنت بنته، فجرى الأمر فيهم على قاعدة الشرع في: أنّ الولد يتبع أباه في النسب لا أُمّه. إنّما خرج أولاد فاطمة وحدها؛ للخصوصية التي ورد الحديث بها، وهو مقصور على ذرّية الحسن والحسين.

أخرج الحاكم في المستدرك عن جابر قال:

---

(١) صحيح مسلم: ج ٤ ص ١٨٧٣ ـ ١٨٧٤ ح ٢٤٠٨ وما بعده.

(٢) خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: ص ٣٠.

(٣) التهذيب في فقه الإمام الشافعي: ج ٥ ص ٧٦.

قال رسول الله ﷺ: «لكلّ بني أُمٍّ عصبةٌ، إلّا أبني فاطمة، أنا وليّهما وعصبتهما»[١].

فانظر الى لفظ الحديث كيف خصّ الانتساب والتعصب بالحسن والحسين دون أُختيهما، لأنّ أولاد أُختيهما إنّما يُنسبون الى آبائهم.

ولهذا جرى السلف والخلف على أنّ ابن الشريفة لا يكون شريفاً، ولو كانت الخصوصية عامةً في أولاد بناته وإن سفلن، لكان ابن كلّ شريفة شريفاً، تحرم عليه الصدقة وإن لم يكن أبوه كذلك كما هو معلوم. ولهذا حكم ﷺ لابني فاطمة دون غيرها من بناته؛ لأنّ أُختها زينب بنت رسول الله ﷺ لم تعقّب ذكراً حتّى يكون كالحسن والحسين في ذلك، وإنّما أعقبت بنتاً هي أُمامة بنت أبي العاص بن الربيع، فلم يحكم لها ﷺ بهذا الحكم مع وجودها في زمنه. فدلّ على أنّ أولادها لا يُنسبون إليه لأنّها بنت بنته. وأمّا هي فكانت تُنسب إليه بناءً على أنّ أولاد بناته يُنسبون إليه. ولو كان لزينب ابنة رسول الله ﷺ ولد ذكر، لكان حكمه حكم الحسن والحسين في أنّ أولادها يُنسبون إليه ﷺ.

هذا تحرير القول في هذه المسألة، وقد خبط جماعة من أهل العصر في ذلك ولم يتكلّموا فيه بعلم.

(٤) أنّهم هل يطلق عليهم أشراف؟ والجواب: أنّ اسم «الشريف» كان يُطلق في الصدر الأول على كلّ من كان من أهل البيت، سواء كان حسنيّاً أم حسينيّاً، أم علويّاً من ذريّة محمد بن الحنفية وغيره من أولاد علي بن أبي طالب، أم جعفريّاً، أم عقيليّاً، أم عباسيّاً. ولهذا تجد تاريخ الحافظ الذهبي مشحوناً في التراجم بذلك، يقول: الشريف العباسي، الشريف العقيلي، الشريف الجعفري، الشريف الزينبي، فلمّا ولي الخلفاء الفاطميون بمصر قصروا اسم الشريف على ذريّة الحسن والحسين فقط، فاستمرّ ذلك بمصر الى الآن.

وقال الحافظ ابن حجر في كتاب «الألقاب»[٢]: الشريف ببغداد لقب لكلّ عباسي، وبمصر لكلّ علوي. ولا شكّ أنّ المصطلح القديم أولى، وهو إطلاقه على كلّ علوي وجعفري

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ج ٣ ص ١٦٤. والحديث يرويه الطبراني في المعجم: ج ٣ ص ٤٤، وابن حجر في الصواعق: ص ٢٣٦.

(٢) نزهة الألباب في الألقاب: ج ١ ص ٣٩٩ برقم (١٦٦٩).

وعقيلي وعباسي، كما صنعه الذهبي، وكما أشار إليه الماوردي[١] من أصحابنا. والقاضي أبويعلىٰ[٢] من الحنابلة. كِلاهما في الأحكام السلطانية. ونحوه قول ابن مالك في الألفية[٣]:

وآله المستكملين الشرفا

فلا ريب في أنّه يطلق علىٰ ذرّية زينب المذكورين أشراف، وكم أطلق الذهبي في تاريخه في كثيرٍ من التراجم قوله: الشريف الزينبي، وقد يُقال: يطلق علىٰ مصطلح أهل مصر «الشريف» أنواع عام لجميع أهل البيت، وخاصّةً بالذرّية، فيدخل فيه «الزينبية»، وأخصّ منه شرف النسبة، وهو مختصّ بذرّية الحسن والحسين عليهما السلام.

(٥) أنّهم تحرم عليهم الصدقة بالإجماع، لأنّ بني جعفر من الآل.

(٦) أنّهم يستحقّون سهم ذوي القربىٰ بالإجماع.

(٧) أنّهم يستحقّون من وقف بركة الحبش بالإجماع. لأنّ بركة الحبش لم تقف علىٰ أولاد الحسن والحسين خاصّةً، بل وقفت نصفين:

النصف الأول: على الأشراف، وهم أولاد الحسن والحسين.

والنصف الثاني: على الطالبيّين، وهم ذرّية علي بن أبي طالب، من محمد بن الحنفية وإخوته، وذرّية جعفر بن أبي طالب، وذرّية عقيل بن أبي طالب. وثبت هذا الوقف ـ علىٰ هذا الوجه ـ علىٰ قاضي القضاة بدر الدين يوسف السنجاري في ثاني عشر من ربيع الآخر سنة أربعين وستمائة. ثم اتّصل ثبوته علىٰ شيخ الإسلام عزّالدين بن عبدالسلام تاسع عشر من ربيع الآخر من السنة المذكورة، ثم اتّصل ثبوته علىٰ قاضي القضاة بدرالدين بن جماعة، ذكر ذلك ابن المتوّج في كتابه «إيقاظ المتأمل»[٤].

(٨) هل يلبسون العلامة الخضراء؟

والجواب: أنّ هذه العلامة ليس لها أصل في الشرع، ولا في السنّة، ولا كانت في الزمن القديم، وإنّما حدثت في سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، بأمر الملك الأشرف شعبان بن

---

(١) الأحكام السلطانية: ص ٦٢.

(٢) الأحكام السلطانية والولايات الدينية: ج ٢ ص ٩٠.

(٣) ألفيّة ابن مالك: ص ٣، وهو عجز البيت الثاني من الألفية، وصدره: «مصلّياً على النبي المصطفىٰ».

(٤) إيقاظ المتأمّل: ص ٢٢.

حسين. وقال في ذلك جماعة من الشعراء ما يطول ذكره. من ذلك قول أبي عبدالله ابن جابر الأندلسي الأعمى، صاحب شرح الألفية. المشهور بالأعمى والبصير:

جَعلُوا لأبناء الرسولِ علامةً ... إنّ العلامةَ شأنُ مَن لم يشهرِ

نورُ النُبوّةِ في وسيمِ وجوههم ... يُغني الشريفَ عن الطراز الأخضرِ[1]

وقال الأديب شمس الدين محمد بن إبراهيم الدمشقي:

أطرافُ تيجانٍ أتت من سُندسٍ ... خضر بأعلامٍ من الأشرافِ

والأشرف السلطانُ خصّصهم بها ... شرفاً ليعرفهم من الأطرافِ[2]

وحظّ الفقيه في ذلك إذا سُئل أن يقول: ليس هذه العلامة إلّا بدعة مباحة. لا يمنع منها من أرادها من شريف وغيره. ولايؤثّر بها من تركها من شريف وغيره.

وبالمنع منها لأحدٍ من الناس كائناً من كان ليس أمراً شرعيّاً، لأنّ الناس مضبوطون بأنسابهم الثابتة. وليس لبس العلامة ممّا ورد به الشرع. فيتّبع إباحةً ومنعاً. أقصى ما في الباب أنّه أحدث التميز بها لهؤلاء عن غيرهم. فمن الجائز أن يخصّ ذلك بخصوص الأبناء المنتسبين الى النبي ﷺ. وهم ذريّة الحسن والحسين. ومن الجائز أن يعمّم في كلّ ذرّيته وإن لم ينسبوا إليه كالزينبية. ومن الجائز أن يعمّم في كلّ أهل البيت كباقي العلوية. والجعفرية. والعقيلية. كلٌّ جائز شرعاً.

وقد يستأنس فيها بقوله تعالى: ﴿يأيّها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾[3] فقد استدلّ بها بعض العلماء على تخصيص أهل العلم بلباسٍ يختصّون به. من تطويل الأكمام، وإدارة الطيلسان. ونحو ذلك. ليُعرفوا فيُجلّوا. تكريماً للعلم. وهذا وجه حسن. والله أعلم.

(٩) هل يدخلون في الوصية على الأشراف؟

(١٠) هل يدخلون في الوقف على الأشراف؟

والجواب: أنّه إن وجد في كلام الموصي والواقف نصٌّ يقتضي دخولهم أوخروجهم

---

(١) ذكر الأبيات ابن حجر في الصواعق: ج ١ ص ١٨٥.

(٢) أنشد البيتين السيوطي في حسن المحاضرة: ج ٢ ص ١٣٦. وابن حجر في الصواعق المحرقة: ج ١ ص ١٨٥.

(٣) سورة الأحزاب: ٥٩.

اتّبع، وإن لم يوجد فيه ما يدلّ على هذا ولا هذا فقاعدة الفقه: أنّ الوصايا والأوقاف تنزل على عُرف البلد، وعُرف مصر من عهد الخلفاء الفاطميّين الى الآن: أنّ «الشريف» لقب لكلّ حسني وحسيني خاصّةً، فلا يدخلون على مقتضى هذا العرف، وإنّما قدّمت دخولهم هذا في وقف بركة الحبش؛ لأنّ واقفها نصّ في وقفه على ذلك حيث وقف نصفها على الأشراف، ونصفها على الطالبيين.

ويقول الأُستاذ أحمد فهمي[1]: إنّ الشرف بمعنى الرفعة والفضيلة كان يطلق في الصدر الأول ـ منذ انبثاق نور الإسلام ـ على كلّ من كان من أهل البيت، الذين ينتظمهم قول القائل:

عليٌّ وعباسٌ وعقيلٌ وجعفرٌ وحمزةُ هُم آل النبيّ بلا نكر

وإنّ نظرة الى تاريخ الذهبي الكبير، تراه مملوءاً في تراجمه بـ«الشريف العباسي»، «الشريف العلوي»، «الشريف العقيلي»، «الشريف الجعفري»، «الشريف الحمزي»... إلخ، هذا.

وإنّ تخصيص الشرف بذريّة السبطين ليس بشرعي، بل هو عرفي، وقد تواضع عليه القوم وأحدثوه بعدالقرون الثلاثة الأُولى، لمزيد قرب السبطين من النبي صلى الله عليه وآله، ولقوله صلى الله عليه وآله:

«إنّ لكلّ بني أبٍ عصبةً ينتمون إليها، إلّا ولد فاطمة، فأنا وليّهم وعصبتهم، وهم عترتي، خُلقوا من طيني، ويل للمكذّبين بفضلهم، ومن أحبّهم أحبّه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»[2].

وشرف ذريّة السبطين عام، لافرق فيه بين أولاد ذكورهما وأولاد إناثهما؛ لأبوّة النبي صلى الله عليه وآله، كتاباً وسنّةً وإجماعاً، فقوله تعالى: ﴿ومن ذرّيته داود وسليمان﴾ الآية[3]، آية على أنّ ابن البنت من الذريّة، إذ جعل الله عيسى من ذرّية نوح أو ابراهيم.

---

(١) كريمة الدارين: ص ٢٧.

(٢) أخرجه عماد الدين الطبري في بشارة المصطفى: ص ٧٥ رقم (٦) بسنده عن جابربن عبدالله عنه صلى الله عليه وآله، وقال في آخره: فهذا الخبر دليل على أنّ عترة محمد صلى الله عليه وآله هم أولاد فاطمة عليها السلام دون غيرهم؛ لأنّه خصّهم بذلك عليها السلام. وبنحوه أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٣ ص ٤٤ ح ٢٦٣١ و٢٦٣٢ بسنده عن ابن عمر تارةً، وأخرى عن فاطمة عليها السلام. وأخرجه أيضاً ابن حجر في الصواعق: ص ٢٣٦.

(٣) سورة الأنعام: ٨٤.

وفي مطالب السؤول في مناقب آل الرسول[١] لمحمد بن طلحة، قال:

قد نقل أنّ الشعبي كان يميل الى آل الرسول ﷺ، وكان لا يذكرهم إلّا وهو يقول: هم أبناء رسول الله ﷺ وذرّيته. فنقل عنه ذلك الى الحجّاج بن يوسف، وتكرّر ذلك عنه. وكثر نقله عنه. فأغضبه ذلك من الشعبي ونقم عليه. فاستدعاه الحجّاج يوماً. وقد اجتمع لديه أعيان المصرَيْن: الكوفة والبصرة. وعلماؤهما وقرّاؤهما. فلمّا دخل الشعبي لم يهش له. ولا وفّاه حقّه من الردّ عليه. فلمّا جلس قال له: يا شعبي. ما أمر بلغني عنك. فيشهد عليك بجهلك؟ قال: ما هو يا أمير؟! قال: ألم تعلم أنّ أبناء الرجل هل ينسبون إلّا إليه. والأنساب لا تكون إلّا بالآباء. فما بالك تقول عن أبناء عليٍّ: إنّهم أبناء رسول الله ﷺ وذرّيته؟ وهل لهم اتّصال برسول الله ﷺ إلّا بأُمّهم فاطمة. والنسب لا يكون بالبنات. وإنّما يكون بالأبناء؟!

فأطرق الشعبي ساعةً. حتّى بالغ الحجّاج في الإنكار عليه. ووقع إنكاره في مسامعه. والشعبي ساكت. فقال: يا أمير ما أراك إلّا تكلّمنا بكلام من يجهل كلام الله وسنّة نبيّه ﷺ أويعرض عنهما. فازداد الحجّاج غضباً منه وقال: ألمثلي تقول هذا يا ويلك؟ قال: نعم. هؤلاء قرّاء المصرَيْن. حَمَلَة الكتاب العزيز. أليس قد قال الله تعالى: ﴿يا بني آدم﴾. ﴿يا بني اسرائيل﴾ وعن ابراهيم: ﴿ومن ذرّيته عيسى﴾. وهل كان اتّصال عيسى بالثلاثة إلّا بأُمّه. وقد صحّ النقل عن رسول الله ﷺ: «هذا ابني سيّد شباب أهل الجنّة».

فخجل الحجّاج. وعاد يتلطّف الشعبي!!

وقد قال أبوبكرة: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن الى جنبه. ينظر الى الناس مرّةً وإليه مرّةً. ويقول:

«إنّ ابني هذا سيّد. ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[٢].

وقد سأل عراقي ابن عمر رضي الله عنهما عن دم البعوض يصيب الثوب. فقال ابن عمر: انظروا إلى هذا. يسأل عن دم البعوض وقد قتلوا ابن رسول الله ﷺ!! سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) مطالب السؤول: ج ١ ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في الصحيح: ج ٣ ص ٢٤٤ وج ٩ ص ٧١. وأحمد بن حنبل في المسند: ج ٥ ص ٣٨. وأخرج قريباً منه في ص ٤٤. والطبراني في المعجم الكبير: ج ٣ ص ٣٣ برقم (٢٥٨٨). وابن كثير في كتابه البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٧ وص ٣٦. والترمذي في السنن: ج ٥ ص ٦١٦ ح ٣٧٧٣.

«إنّ الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا»[١].

وفي صحيح الترمذي[٢]: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يخطب إذ جاء الحسن والحسين عليهما السلام، وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله من المنبر، فجمعهما ووضعهما بين يديه، ثم قال:

«صدق الله ﴿إنّما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ نظرت الى هذين الصبيّين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتّى قطعت حديثي ورفعتهما».

وقال جابربن عبدالله: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في حجّة الوداع يوم عرفة، وهو على ناقته يخطب، فسمعته يقول:

«يأيها الناس قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي»[٣].

وممّا أخرجه الطبراني في كبيره[٤] عن جابر، والخطيب في تاريخه[٥] عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إنّ الله تعالى جعل ذرّية كلّ نبي في صلبه، وجعل ذرّيتي في صلب عليّ».

أي: أولاده من فاطمة دون غيرها، فمن خصائصه صلى الله عليه وآله: أنّ أولاد بناته يُنسبون إليه.

وقد قال عمر رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«كلّ سببٍ ونسبٍ منقطع يوم القيامة، إلّا سببي ونسبي، وكلّ ولد أُمٍّ فإنّ عصبتهم

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: ج ٥ ص ٢٢٣٤ من كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله، وج ٣ ص ١٣٧١ من كتاب الفضائل باب مناقب الحسن والحسين عليهما السلام، والترمذي في السنن: ج ٥ ص ٦١٥ ح ٣٧٧٠.

(٢) سنن الترمذي ج ٥ ص ٦١٦ ـ ٦١٧ ح ٣٧٧٤ بسنده عن أبي بريدة.

(٣) تقدم تخريج حديث الثقلين من قبل بالتفصيل، فراجعه.

(٤) المعجم الكبير: ج ٣ ص ٤٣ ـ ٤٤ برقم (٢٦٣٠).

(٥) تاريخ بغداد: ج ١ ص ٣١٧ وروايته هكذا: «قال: كنت أنا وأبي العباس بن عبدالمطلب جالسين عند رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ دخل علي بن أبي طالب فسلّم، فردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وبشّ به، وقام إليه واعتنقه وقبّل بين عينيه، وأجلسه الى يمينه، فقال العباس: يا رسول الله، أتحبّ هذا؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: «ياعم رسول الله، والله لله أشدّ حبّاً له منّي، إنّ الله جعل ذرّية كلّ نبي في صلبه، وجعل ذرّيتي في صلب هذا».

لأبيهم. ما خلا ولد فاطمة، فإنّي أنا أبوهم وعصبتهم»[1].

وأخرج الطبراني[2] أنّه ﷺ قال:

«كلّ بني أُمٍّ ينتمون الى عصبةٍ، إلّا ولد فاطمة، فأنا وليّهم وعصبتهم».

ولهذا الحديث طرق كثيرة، يقوّي بعضها بعضاً، ويشهد لصحّته: صحّة حديث تزوّج عمر بأُمّ كلثوم، فقد خطبها عمر الى عليّ، فذكر له صغرها، فقيل له: إنّه ردّك، فعاوده، فقال له عليّ: أبعث بها إليك، فإن رضيت فهي امرأتك، فأرسل بها إليه، فكشف عن ساقها، فقالت له: لولا أنّك أمير المؤمنين للطمت عينيك، وفي رواية: لكسرت أنفك، ثم جاءت أباها فقالت: بعثتني الى شيخ سوءٍ، وأخبرته، فقال لها: يا بنيّة إنّه زوجك، فتزوّج بها على مهر أربعين ألفاً، ثم جاء عمر إلى المهاجرين فقال: زفّوني، فزفّوه، فقالوا: بمن تزوّجت؟ قال: بنت عليٍّ، إنّ النبي ﷺ قال:

«كلّ نسبٍ وسببٍ سيقطع يوم القيامة، إلّا نسبي وسببي».

قال: وكنت قد صاهرت، فأحببت هذا أيضاً[3].

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ:

«ابن أُخت القوم منهم»[4].

---

(١) أخرجه الطبراني مسنداً في المعجم الكبير: ج ٣ ص ٤٤ و٤٥ برقم ٢٦٣٣ ـ ٢٦٣٥ من طرق عدّة، والحاكم في المستدرك: ج ٣ ص ١٤٢، وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ: ج ٨ ص ٤٦٣، وأبونعيم في حلية الأولياء: ج ٢ ص ٣٤، والقندوزي في ينابيع المودّة: ج ٢ ص ٩٢ ـ ٩٣ وقال: أخرجه أبوصالح والحافظ عبدالعزيز بن الأخضر وأبونعيم في معرفة الصحابة والدارقطني والطبراني في الأوسط.

وفي هذا الباب يروي الغزالي في كتابه «مقامات العلماء»:

أنّه لمّا ولي عمر حُمل إليه مال ليفرّقه على المسلمين، فبدأ أول ما بدأ بالحسن والحسين، فالتفت إليه ابنه عبدالله فقال: يا أبتي أنا أحقّ أن تقدّمني بالعطية عليهما، لمكانك في الخلافة، فقال عمر:

«هل لك أب كأبيهما، أو جد كجدّهما، أو أمّ كأُمّهما حتّىٰ أُقدّمك في العطية عليهما؟!».

(٢) المعجم الكبير: ج ٣ ص ٤٤ برقم (٢٦٣٢) بسنده عن فاطمة عليها السلام عن أبيها ﷺ.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف: ج ١ ص ٢٢٧، وراجع موسوعة عمر بن الخطاب: ص ٨٢٧.

(٤) أخرجه أبوداود في السنن: ج ٤ ص ٣٣٢ ح ٥١٢٢، وأحمد بن حنبل في المسند: ج ٤ ص ٣٩٦.

وقد استدلّ به الإمام أبوبكر من كبار الحنابلة على: أنّه لا يجوز دفع الزكاة الى ولد هاشمية من غير هاشميٍّ، اعتباراً بأُمّه.

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إنّي تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله عزّوجلّ حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تلحقون بي فيهما»[1].

وعنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أيّها الناس، إنّما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربّي عزّوجلّ فأجيبه، وإنّي تارك فيكم الثقلين، أوّلهما: كتاب الله فيه الهدى والنور، فتمسّكوا بكتاب الله عزّوجلّ وخذوا به» وحثّ فيه، ورغّب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي» ثلاث مرّات.

فقيل لزيد: من أهل بيته؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: بلى، إنّ نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته مَن حرم عليهم الصدقة بعده، قيل: ومَن هم؟ قال: آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل عباس، قيل: أكلّ هؤلاء حرم عليهم الصدقة؟ قال: نعم. أخرجه مسلم[2].

ولا خلاف في انعقاد الإجماع على شرف السبطين وأُختيهما، لشرف أُمّهم عليها السلام بولادة رسول الله صلى الله عليه وآله لها، فوجب أن يطّرد انعقاده في كلّ من له بالنبي صلى الله عليه وآله ولادة من قِبَل أُمّ أو أب.

وقد قال العلّامة الزرقاني، في شرح المواهب[3] عند تعريف المصنّف بالسيدة زينب بنت الزهراء عليها السلام: إنّها تزوّجت بابن عمّها عبدالله بن جعفر، وولدت له عدّة أولاد منهم: عليّ

---

(١) تقدّم تخريج هذا الحديث المتواتر بين علماء المسلمين من قبل، ويجدر ذكره هنا أنّ الحديث ورد بألفاظ متعدّدة، تختلف بعض الألفاظ اختلافاً يسيراً، لكنّه على كلّ حال تواتر الى حدّ كبير عن أكثر من ثلاثين رجلاً وامرأة غير زيد بن أرقم، كلّهم رووا عن النبي صلى الله عليه وآله.

بل أنّ العلّامة السيد مير خالد حسين الهندي قد رواه عن جماعة تقرب من (٢٠٠) شخص من أكابر علماء المذاهب من المائة الثانية إلى المائة الثالثة عشر.

(٢) صحيح مسلم: ج ٤ ص ١٨٧٣ ح ٢٤٠٨ (٣٦) ومابعده.

(٣) شرح المواهب: ج ١ ص ١١٢.

وأُمّ كلثوم. وأُم كلثوم هذه تزوّجت القاسم بن محمد بن جعفر، وولدت له عدّة أولاد، منهم: فاطمة تزوّجت حمزة بن عبدالله بن الزبير، وله منها عقب.

ثم قال: بالجملة: فعقب عبدالله بن جعفر انتشر من عليّ وأُخته أُمّ كلثوم ابني زينب بنت الزهراء عليها السلام.

قال الزرقاني: ولا ريب أنّهم تحرم عليهم الصدقة إجماعاً؛ لأنّ بني جعفر من الآل، وأنّهم يستحقّون سهم ذوي القربى بالإجماع، وأنّهم من ذريّة النبي صلى الله عليه وآله وأولاده عليهم السلام إجماعاً[١].

وقد ورد في البخاريّ[٢]: أنّ عمر بن الخطّاب، قسّم مُروطاً[٣] بين نساءٍ من نساء المدينة، فبقي مِرْط جيد، فقال له بعض من عنده: يا أميرالمؤمنين، أَعطِ هذا ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله التي عندك، يريدون أُمّ كلثوم بنت عليّ، فقال عمر: أُمّ سليط أحقّ، وأُمّ سليط من نساء الأنصار ممّن بايع رسول الله صلى الله عليه وآله، قال عمر: فإنّها كانت تزفر لنا القِرَب يوم أُحد، وتزفر: تخيط.

وقد قال ابن القيّم في كتابه: «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» في فصلٍ عقده لمعنى «الذريّة»: فالذريّة: الأولاد وأولاد أولادهم، وهل يدخل فيها أولاد البنات. فيه قولان للعلماء، هما روايتان عن أحمد، أحدهما: يدخلون وهو مذهب الشافعي، والثاني: لا يدخلون وهو مذهب أبي حنيفة. واحتجّ من قال بدخولهم بأنّ المسلمين يجمعون على دخول أولاد فاطمة عليها السلام في ذريّة النبي صلى الله عليه وآله، المطلوب لهم من الصلاة؛ لأنّ أحداً من بناته لم يعقّب غيرها[٤].

* * *

ثانياً[٥]: قال الله سبحانه وتعالى:

---

(١) المصدر السابق: ص ١١٤.

(٢) صحيح البخاري: ج ٣ ص ٤٣٦ ب ٧٠٨ من كتاب الجهاد والسير ح ١٠٧٧.

(٣) المُروط، واحده: مِرْط ـ بكسر الميم ـ وهي أكسية من صوف أو خزّ كان يُؤتزر بها.

(٤) جلاء الأفهام: ص ١٧١.

(٥) لم يذكر المؤلّف «الأولّ» لكي يورد «الثاني» هنا، ولعلّ مراده ـ كما يظهر من السياق ـ أنّه عطف على ص ٨٥.

﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربىٰ ومن يقترف حسنة نزد له فيها

← حيث يورد هناك أولاً آية التطهير وأقوال المفسّرين لها، ثم يصل هنا فيقول: "ثانياً" فيذكر آية القربىٰ وأقوال المفسّرين لها أيضاً، لذا اقتضى التنويه.

ولا يخفىٰ أنّ القرآن الكريم قد تحدّث عن أهل البيت عليهم السلام في أكثر من موضع، حيث أورد صراحةً تارة وإشارةً أخرىٰ، من خلال تسجيل أحداث ووقائع تخصّهم وحدهم. فنزلت الآيات الكثيرة وهي تتحدّث عن فضيلتهم ومقامهم. وتثني عليهم، وتمجّدهم أشدّ التمجيد:

فمنها: آية المباهلة: ﴿فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ آل عمران/٦١. حيث أجمع علماء التفسير قاطبةً علىٰ أنّه لمّا نزلت دعا رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة وبعلها علي وابنيها الحسن والحسين، فاحتضن النبي الحسين وأخذ بيد الحسن، ومشت فاطمة خلفه، وعلي خلفها، وتقدّمهم النبي صلى الله عليه وآله. فعلم أنّهم المراد من الآية، وفيها يباهل الله ورسوله بهم أعداءه، فيعرّف بمقامهم العظيم ومنزلتهم الرفيعة.

ومنها: آية الإطعام والإيثار: ﴿ويطعمون الطعام علىٰ حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنّما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاءً ولا شكوراً...﴾ الانسان / ٨ ـ ١٢. فالحادثة التاريخية ثابتة الوقوع عند جميع المؤرّخين والمفسّرين، وأطبق علماء التفسير علىٰ أنّهم هم وحدهم نزلت فيهم هذه الآيات.

ومنها: آية الخصاصة: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ الحشر / ٨.

ومنها: قوله تعالىٰ: ﴿إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ المائدة / ٥٥.

ومنها: قوله سبحانه: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد﴾ البقرة / ٢٠٧.

وقوله: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عندالله والله لايهدي القوم الظالمين﴾ التوبة / ١٩.

وقوله: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لايستوون﴾ السجدة / ١٨.

وآيات أخرىٰ كثيرة يلزم لإحصائها إفراد كتاب. وهو الأمر الذي دفع ببعض العلماء الأعلام إلى خوضه. ولعلّ من أبرزهم الحافظ عبيدالله بن عبدالله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني الحنفي النيسابوري. من أعلام القرن الخامس. الذي ألّف كتابه المسمّىٰ «شواهد التنزيل لقواعد التفضيل في الآيات النازلة في أهل البيت عليهم السلام» الذي طُبع في مجلّدين.

حسناً إنّ الله غفور شكور﴾[١]

يقول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿لا أسألكم عليه أجراً﴾[٢] أي: قل يا محمد: لا أسألكم علىٰ تبليغ الرسالة جعلاً، إلّا المودّة في القربىٰ.

قال الزجّاج: ﴿إلّا المودّة﴾ استثناء ليس من الأولّ، أي: إلّا أن تودّوني لقرابتي فتحفظوني، والخطاب لقريش خاصّةً، قاله ابن عباس وأبومالك والشعبي وغيرهم[٣].

قال الشعبي[٤]: أكثر الناس علينا في هذه الآية، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها، فكتب: أنّ رسول الله ﷺ كان أوسط الناس في قريش، فليس بطن من بطونهم إلّا وقد ولده، فقال الله له: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربىٰ﴾ إلّا أن تودّوني في قرابتي منكم، أي: تراعوا ما بيني وبينكم فتصدّقوني.

و ﴿القربىٰ﴾ ها هنا: قرابة الرحم، كأنّه قال: اتّبعوني للقرابة إن لم تتّبعوني للنبوّة.

قال عِكْرِمة: وكانت قريش تصل أرحامها، فلمّا بُعث النبي ﷺ قطعته، فقال: «صلوني كما كنتم تفعلون». فالمعنىٰ علىٰ هذا: قل لا أسألكم عليه أجراً، لكن أذكّركم قرابتي، على استثناءٍ من الأوّل، ذكره النحّاس[٥].

---

(١) سورة الشورىٰ: ٢٣.

(٢) يقول الشوكاني في تفسيره: إنّ المعنىٰ: لا أسألكم أجراً قطّ، ولكن أسألكم المودّة في القربىٰ التي بيني وبينكم، أرقبوني فيها ولا تعجلوا إليّ، ودعوني والناس. وعن أبي الديلم قال: لمّا جيء بعلي بن الحسين عليه السلام أسيراً، فأُقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم، وقطع قرني الفتنة، فقال علي بن الحسين عليه السلام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن، ولم أقرأ آل حم، قال: ما قرأت ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربىٰ﴾؟ قال: وإنكم لأنت هم؟ قال: نعم. (منه)

أقول: ذكره الشوكاني في فتح القدير: ج ٤ ص ٥٣٤.

(٣) معاني القرآن: ج ٣ ص ١٧٦.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج ٢ ص ٤٤٤، والفخر الرازي في تفسيره: ج ٢٧ ص ١٦٤.

(٥) إعراب القرآن: ج ٤ ص ٨٠.

وفي البخاري[١]: عن طاوس، عن ابن عباس: أنّه سُئل عن قوله تعالىٰ: ﴿إلّا المودّة في القربىٰ﴾ فقال سعيد بن جُبَير: قربىٰ آل محمد. فقال ابن عباس: عجلت! إنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يكن بطن من قريش إلّا كان له فيهم قرابة. فقال: «إلّا أن تصلوا ما بينكم من القرابة» فهذه قول.

وقيل: ﴿القربىٰ﴾ قرابة الرسول صلى الله عليه وآله، أي: لا أسألكم أجراً إلّا أن تودّوا قرابتي وأهل بيتي، كما أمر بإعظامهم ذوي القربىٰ. وهذا قول علي بن حسين وعمرو بن شُعيب والسُدّي[٢].

وفي رواية سعيد بن جبير، عن ابن عباس: لمّا أنزل الله عزّوجلّ ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربىٰ﴾ قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين نودّهم؟ قال:

«علي وفاطمة وأبناؤهما»[٣].

ويدلّ عليه أيضاً: ما روي عن علي عليه السلام قال: شكوت إلى النبي صلى الله عليه وآله حسد الناس لي. فقال:

«أما ترضىٰ أن تكون رابع أربعة. أولّ من يدخل الجنّة: أنا وأنت والحسن والحسين، وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا، وذرّيتنا خلف أزواجنا»[٤].

---

(١) صحيح البخاري: ج ٤ ص ١٨١٩ ح ٤٥٤١.

(٢) أخرجه عنهم الطبري في تفسيره: ج ١٢ ص ٣٣ ـ ٣٤ ح ٢٣٦٩٨ ـ ٢٣٧٠١، والفخر الرازي في تفسيره: ج ٢٧ ص ١٦٦، والزمخشري في كشّافه: ج ٤ ص ٢٢٠.

(٣) أخرجها الطبراني في المعجم الكبير: ج ٣ ص ٤٧ ح ٢٦٤١، والقندوزي في ينابيع المودة: ج ١ ص ١٠٥ وعزاه إلى أحمد وابن أبي حاتم والحاكم في المناقب والواحدي في الوسيط وأبي نعيم في الحلية والثعلبي في تفسيره والحموئي في فرائد السمطين.

كما وأخرجها ابن كثير في تفسيره: ج ٤ ص ١٦٩ ـ ١٧٠، والقرطبي في أحكام القرآن: ج ١٦ ص ٢٢، والزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠، والهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٦٨، وعلي بن ابراهيم القمي في تفسيره: ج ١ ص ٢٧٥.

(٤) أخرجها الطبراني في المعجم الكبير: ج ٣ ص ٤١ ح ٢٦٢٤، والقرطبي في أحكام القرآن: ج ١٦ ص ٢٢، والزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٢٠، والهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٧٤.

وعن النبي ﷺ:

«حُرِّمت الجنّة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي، ومن اصطنع صنيعةً الى أحدٍ من ولد عبدالمطلب ولم يجازه عليها، فأنا أجازيه عليها غداً إذا لقيني يوم القيامة»[١].

وقال الحسن وقتادة: المعنى: إلّا أن يتودّدوا إلى الله عزّوجلّ ويتقرّبوا إليه بطاعة[٢]. و(القربى) على هذا بمعنى القُربة، يقال: قُرْبة وقُرْبى بمعنىً، كالزُّلْفة والزُّلْفى.

وروى فزعة بن سويد، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: ﴿قل لا أسألكم﴾ على ما أتيتكم به ﴿أجراً إلّا﴾ أن تودّوا وتقرّبوا إليه بالطاعة[٣].

وروى منصور وعوف عن الحسن: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى﴾ قال: يتودّدون إلى الله عزّوجلّ، ويتقرّبون منه بطاعته[٤].

وقال قوم[٥]: الآية منسوخة، وإنّما نزلت بمكّة، وكان المشركون يؤذون النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية، وأمرهم الله بمودّة نبيّه ﷺ وصلة رحمه، فلمّا هاجر آوته الأنصار ونصروه، وأراد الله أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قال: ﴿وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلّا

---

(١) أخرج الحديث الزمخشري في الكشّاف: ج ٤ ص ٢٢٠، والنيسابوري في تفسيره: ج ٢٥ ص ٣١، والعسقلاني في الكاف الشاف: ص ٦٤٥، وابن حجر في الصواعق المحرقة: ص ١٨٦ وعزاه إلى الخطيب، والعلّامة محمد خواجه پارسا البخاري في فصل الخطاب نقلاً عن ينابيع المودّة: ص ٢٤٩، والعلّامة السيد محمد بن عبد الغفّار الهاشمي في كتابه ائمة الهدى: ص ٥.

(٢) أخرج عنهما الطبري في تفسيره: ج ١٣ ص ٣٤ ـ ٣٥ ح ٢٣٧٠٣ و ٢٣٧٠٤، والقرطبي في أحكام القرآن: ج ١٦ ص ٢٢.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ١٣ ص ٣٤ ح ٢٣٧٠٢، وأحمد في المسند: ج ١ ص ٢٦٨، والقرطبي في أحكامه: ج ١٦ ص ٢٢.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ج ١٣ ص ٣٤ ح ٢٣٧٠٣ وما بعده، والقرطبي في أحكامه ج ١٦ ص ٢٢.

(٥) فمن المفسّرين: القرطبي في أحكام القرآن: ج ١٦ ص ٢٢، ومن التابعين فيذكرهم المؤلّف بنفسه عمّا قليل.

على ربّ العالمين﴾[١] فأنزل الله تعالى: ﴿قل ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم إن أجري إلّا على الله﴾[٢].

فنُسخت بهذه الآية، وبقوله: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجرٍ وما أنا من المتكلّفين﴾[٣] وقوله: ﴿أم تسألهم خرجاً فخراج ربّك خير﴾[٤] وقوله: ﴿أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون﴾[٥].

قاله الضحّاك، والحسين بن الفضل، ورواه جويبر عن الضحّاك عن ابن عباس[٦].

قال الثعلبي: وليس بالقويّ، وكفى قبحاً بقول من يقول: إنّ التقرّب إلى الله بطاعته ومودّة نبيّه صلى الله عليه وآله وأهل بيته منسوخ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله:

«من مات على حبّ آل محمّدٍ مات شهيداً، ومن مات على حبّ آل محمّدٍ جعل الله زوّار قبره الملائكة والرحمة، ومن مات على بغض آل محمّدٍ جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه: آيس اليوم من رحمة الله، ومن مات على بغض آل محمد لم يرح رائحة الجنّة، ومن مات على بغض آل بيتي فلا نصيب له في شفاعتي»[٧].

والزمخشري في تفسيره[٨] يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

---

(١) سورة الشعراء: ١٠٩ و١٢٧ و١٤٥ وغيرها.

(٢) سورة سبأ: ٤٧.

(٣) سورة ص: ٨٦.

(٤) سورة المؤمنون: ٧٢.

(٥) سورة الطور: ٤٠، والقلم: ٤٦.

(٦) راجع أحكام القرآن للقرطبي: ج ١٦ ص ٢٢.

(٧) تفسير الثعلبي المسمّى بالكشف والبيان في تفسير القرآن: ج ٣ ص ٢١.

(٨) تفسير الكشّاف: ج ٤ ص ٢٢٠. وقد روى الخبر جمع كبير من علماء المسلمين علاوةً على الزمخشري، نأتي على بعضٍ ممّن عثرنا على مصدره وتوافر: ابن الصباغ في الفصول المهمّة: ص ١١٠، وابن المغازلي في المناقب: ص غير أنّ ليس فيه: «فتح له بابان في الجنّة» و«مات كافراً»، والادريسي في رفع اللبس والشبهات: ص ٥٣، والأمرتسري في أرجح المطالب: ص ٣٢٠، والصفوري في نزهة المجالس: ج ٢ ص ←

«من مات على حبّ آل محمّدٍ مات مؤمناً مستكمل الإيمان. ألا ومن مات على حبّ آل محمّدٍ يُزَفّ إلى الجنّة كما تُزَفّ العروس الى بيت زوجها. ألا ومن مات على حبّ آل محمّدٍ فُتح له في قبره مزار ملائكة الرحمة. ألا ومن مات على حبّ آل محمّدٍ مات على السُنّة والجماعة. ألا ومن مات على بغض آل محمّدٍ مات كافراً. ألا ومن مات على بغض آل محمّدٍ لم يشمّ رائحة الجنّة».

قال النحّاس: ومذهب عِكْرِمة ليست بمنسوخة. قال: كانوا يصلون أرحامهم. فلّما بُعث النبي ﷺ قطعوه. فقال:

«قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا أن تودّوني وتحفظوني لقرابتي. ولا تكذّبوني»[1].

قلت: وهذا هو معنى قول ابن عباس في البخاري. والشعبي عنه بعينه. وعليه: لا نسخ[2].

قال النّحاس: وقول الحسن حسنٌ. ويدلّ على صحّته الحديث المسند عن رسول الله ﷺ قال:

«لا أسألكم على ما أنبئكم به من البيّنات والهدى أجراً. إلّا أن توادّوا الله عزّوجلّ. وأن تتقرّبوا إليه بطاعته»[3].

فهذا المبيَّن عن الله عزّوجلّ قد قال هذا. وكذا قالت الأنبياء عليهم السلام قبله: ﴿إن أجري

← ٢٢٢. وفي كتابه المحاسن المجتمعة أيضاً: ص ٨٩. والدهلوي في تجهيز الجيش: ص ١٣. وابن شهاب العلوي في رشفة الصادي: ص ٤٥. والقندوزي في ينابيع المودّة: ص ٢٠٧ و٢٦٣. والحمويني في فرائد السمطين: ج ٢ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦. وابن حجر في الصواعق المحرقة: ص ٢٠٣. والعسقلاني في كتابه الكاف الشاف: ص ١٤٥. وفي كتابه لسان الميزان: ج ٢ ص ٤٥٠. وابن الفوطي في كتابه الحوادث الجامعة: ص ١٥٣. والعلّامة باكثير الحضرمي في وسيلة المآل: ص ١١٩ (مخطوط) نقلاً عن إحقاق الحقّ: ج ٩ ص ٤٨٨. والنبهاني في الشرف المؤبّد: ص ١٥٢.

(١) الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: ص ٧٢.

(٢) أُنظر أحكام القرآن للقرطبي: ج ١٦ ص ٢٣.

(٣) معاني القرآن: ج ٢ ص ١٣٨.

إلّا على الله﴾[١].

وقيل في سبب نزول الآية: عن الحسن عليه السلام: نزلت حين تفاخرت الأنصار والمهاجرون: فقالت الأنصار: نحن فعلنا، وفخرت المهاجرون بقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله[٢].

وعن ابن عباس قال: سمع رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً، فخطب فقال للأنصار: «ألم تكونوا أذلّاء فأعزّكم الله بي؟ ألم تكونوا ضلّالاً فهداكم الله لي؟ ألم تكونوا خائفين فأمّنكم الله بي؟ ألا تردّون عليّ؟» فقالوا: بم نجيبك؟ قال: «تقولون: ألم يطردك قومك فآويناك؟! ألم يكذّبك قومك فصدّقناك؟!» فعدّد عليهم، قال: فجثوا على ركبهم فقالوا: أنفسنا وأموالنا لك، فنزلت ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى﴾[٣].

وقال قتادة: قال المشركون: لعلّ محمداً فيما يتعاطاه يطلب أجراً، فنزلت هذه الآية ليحثّهم على مودّته ومودّة أقربائه[٤].

قال الثعلبي: وهذا أشبه بالآية، لأنّ السورة مكّية، وقوله تعالى: ﴿ومن يقترف حسنةً﴾ أي: يكتسب[٥].

وقال ابن عباس: ﴿ومن يقترف حسنةً﴾ قال: المودّة لآل محمد صلى الله عليه وآله ﴿نزد له فيها حسناً﴾ أي: نضاعف له الحسنة بعشرٍ فصاعداً ﴿إن الله غفور شكور﴾[٦].

قال قتادة: ﴿غفور﴾ لذنوب ﴿شكور﴾ للحسنات[٧].

وقال السدّي: ﴿غفور﴾ لذنوب آل محمد صلى الله عليه وآله ﴿شكور﴾ لحسناتهم[٨].

وقال الحسن بن الفضل، ورواه ابن جرير عن الضحّاك: إنّ الآية نزلت بمكّة، وكان

---

(١) سورة يونس: ٧٢، وسورة هود: ٢٩، وسورة سبأ: ٤٧.

(٢) قاله القرطبي في أحكام القرآن: ج ١٦ ص ٢٤.

(٣) حكاه عنه القرطبي في كتابه المتقدّم.

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص ٣١٥ ذيل حديث ٧٧٨، والقرطبي في أحكام القرآن: ج ١٦ ص ٢٤.

(٥) الكشف والبيان في تفسير القرآن: ج ٣ ص ٧٢، عنه القرطبي في أحكامه: ج ١٦ ص ٢٤.

(٦) أخرجه عنه القرطبي في الأحكام: ج ١٦ ص ٢٤.

(٧) أخرجه عنه القرطبي أيضاً في المصدر السابق.

(٨) حكاه عنه القرطبي في الأحكام أيضاً.

المشركون يؤذون رسول الله ﷺ، فأمرهم الله بمودّته. فلمّا هاجر آوته الأنصار ونصروه، فأنزل الله عليه: ﴿وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلّا على ربّ العالمين﴾ وأنزل عليه: ﴿قل ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم إن أجري إلّا على الله﴾[١].

ويشير لتلك الآية الكريمة سيدي محيي‌الدين ابن العربي في قوله:

أرىٰ حبّ أهل البيت عندي فريضةً ... علىٰ رغم أهل البُعد يورثني القربىٰ
فما اختار خيرُ الخلق منّا جزاءَه ... علىٰ هديه إلّا المودّة في القربىٰ[٢]

ويشير الإمام الشافعي الى مضمون الآية الكريمة فيقول:

يا أهل بيت رسول الله حبّكم ... فرض من الله في القرآن أنزله[٣]

ويقول الشيخ شمس الدين ابن العربي:

رأيت ولائي آل طه فريضةً ... علىٰ رغم أهل البُعد يورثني القربىٰ
فما طلب المبعوث أجراً على الهدىٰ ... بتبليغه إلّا المودّة في القربىٰ[٤]

وروى البزّار والطبراني: أنّ الحسن بن عليّ ﷺ خطب يوماً فقال:

«من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن، ابن محمد ﷺ، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن آل البيت الذين افترض الله مودّتهم على كلّ مسلم، وأنزل فيهم: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربىٰ ومن يقترف حسنةً نزد له فيها حسناً﴾ فاقتراف الحسنات مودّتنا أهل البيت»[٥].

---

(١) تفسير الطبري: ج ١٣ ص ٣٢ ح ٢٣٦٩٥.

(٢) ديوان ابن العربي: ص ٢٥٣. وذكر البيتين ابن حجر في الصواعق المحرقة: ص ١٠١ باختلاف في بعض الألفاظ.

(٣) ديوان الإمام الشافعي: ص ١١٥. وذكر البيت القندوزي في الينابيع: ص ٣٥٧ عن الحافظ جمال الدين محمد بن أبي المظفّر. وأيضاً في مشارق الأنوار: ص ١١١. ومفتاح النجاة: ص ١٢. والشرف المؤبّد: ص ٢٧. ونور الأبصار: ص ١٢٧.

(٤) أورد البيتين ابن حجر في الصواعق: ص ١٠١.

(٥) المعجم الأوسط للطبراني: ج ٣ ص ٨٧ ـ ٨٩ ح ٢١٧٦. وأخرج الحديث أيضاً العلّامة القندوزي في ينابيع ←

وأفاد الفخر الرازي[١] مانصّه: وإذا ثبت هذا، يعني: أنّها نزلت في عليٍّ وفاطمة وابنيهما، وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم. وتدلّ عليه عدّة وجوه:

(أ) قوله تعالى: ﴿إلّا المودّة في القربى﴾ ووجه الاستدلال به: أنّ آل محمّد صلى الله عليه وآله هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكلّ من كان من أمرهم إليه أشدّ وأكمل كانوا هم «الآل». ولا شكّ أنّ فاطمة وعليّاً والحسن والحسين عليهم السلام كان التعلّق بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام أشدّ التعلّقات، فوجب أن يكونوا هم «الآل».

(ب) ولا شكّ أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يحبّ فاطمة عليها السلام. وثبت بالنقل المتواتر عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه كان يحبّ عليّاً والحسن والحسين (كما سيرى القارئ في الفصول القادمة) وإذا ثبت ذلك وجب على كلّ الأُمّة مثله. لقوله تعالى: ﴿واتّبعوه لعلّكم تهتدون﴾[٢]. ولقوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾[٣]. ولقوله: ﴿إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله﴾[٤] ولقوله سبحانه وتعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة﴾[٥].

(ج) أنّ الدعاء للآل منصب عظيم، ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهّد في الصلاة. فإنّ ملايين المسلمين في كلّ العصور والأزمان يصلّون على النبي وآله في صلواتهم، في أثناء الليل والنهار.

أليس كلّ مسلم كان أوسيكون يختم صلاته قائلاً:

«التحيّات المباركات، الصلوات الطيّبات لله، السلام عليك أيّها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمداً

← المودّة: ج ١ ص ٨، وج ٣ ص ١٥٠ عن الحافظ جمال الدين الزرندي في درر السمطين، وفي ج ٢ ص ٩٥ أيضاً لكنّه زاد: أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط والبزّار. وأخرجه أيضاً ابن حجر في الصواعق المحرقة: ص ٢٢٨ وعزاه إلى الدولابي.

(١) التفسير الكبير: ج ٢٧ ص ١٦٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٨.

(٣) سورة النور: ٦٣.

(٤) سورة آل عمران: ٣١.

(٥) سورة الأحزاب: ٢١.

رسول الله، اللّهمّ صلّ على محمد وعلىٰ آل محمد».

وهذا التعظيم لم يوجد في حقّ غير «الآل». فكلّ ذلك يدلّ علىٰ أنّ حبّ آل محمّدٍ واجب. وسنزيد القارئ تفصيلاً في الفصول القادمة إن شاء الله.

وأخيراً، فقد روىٰ أبونعيم بسنده عن جابرٍ، قال:

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أعرِضْ عليَّ الإسلام. فقال: «تشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله» قال: تسألني عليه أجراً؟ قال: «لا. إلّا المودّة في القربىٰ» قال: قرباي أوقرباك؟ قال: «قرباي» قال: هاتِ أبايعك. فعلىٰ من لا يحبّك ولا يحبّ قرباك لعنة الله. قال صلى الله عليه وسلّم: «آمين»[1].

---

(١) حلية الأولياء: ج ٣ ص ٢٠١، وج ٤ ص ٢٠٣.

السُّنَّة وأهل البيت عليهم السلام

في فضل قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله :

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: توفّي لصفيّة بنت عبدالمطّلب رضي الله عنها ابن، فبكت عليه، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله:

«تبكين يا عمّة؟! من توفّي له ولد في الإسلام كان له بيت في الجنّة يسكنه».

فلمّا خرجت لقيها رجل، فقال لها: إنّ قرابة محمّدٍ لن تغني عنك من الله شيئاً، فبكت، فسمع رسول الله صلى الله عليه وآله صوتها، ففزع من ذلك فخرج، وكان صلى الله عليه وآله مكرماً لها، يبرّها ويحبّها، فقال لها:

«يا عمّة، تبكين وقد قلتُ لك ما قلتُ؟!»

قالت: ليس ذلك أبكاني، وأخبرته بما قال الرجل، فغضب صلى الله عليه وآله، وقال:

«ما بال أقوام يزعمون أنّ قرابتي لاتنفع، إنّ كلّ سببٍ ونسبٍ ينقطع يوم القيامة، إلّا سببي ونسبي، وإنّ رحمي موصولة في الدنيا والآخرة»[1].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى: ج ٨ ص ٤٦٣، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: ج ٦ ص ١٨٢ بلفظ «كلّ سبب وصهر»، والإصفهاني في محاضرات الأدباء: ج ٤ ص ٤٧٩، والبيهقي في السنن: ج ٤ ص ٦٣، والإدريسي في رفع اللبس والتشبهات: ص ٨١، وابن أبي الحديد في شرح النهج: ج ٣ ص ١٢٤، والذهبي في تذكرة الحفّاظ: ج ٣ ص ١١٧، والسيوطي في الجامع الصغير: ص ٢٣٦، والبدخشي في مفتاح النجاة: ص ١٠٠، والقندوزي في الينابيع: ص ١٨٦، والمناوي في الكنوز: ص ١١٣، والحبيب علوي الحداد في القول الفصل: ج ٢ ص ١٩، والحنفي الأمرتسري في أرجح المطالب: ص ٢٤٢، والحاكم في المستدرك: ج ٣ ص ←

وقال عمر بن الخطّاب: فتزوّجت أُمّ كلثوم لمّا سمعت من رسول الله ﷺ يومئذٍ، وأحببت أن يكون بيني وبينه نسب وسبب[٢٨١].

ومن مزيد فضلهم: أنّ الله قد وكّل بعض الملائكة بمعونتهم، وكما ورد عنه ﷺ: أنّ أباذر كان ينادي عليّاً، فرأى رحىٰ تطحن في بيته وليس معها أحد! فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال:

«يا أباذر، أما علمت أنّ لله ملائكة سيّاحين في الأرض، قد وكّلوا بمعونة آل محمّد ﷺ»[٣].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال:

كان لآل رسول الله ﷺ خادم تخدمهم يقال لها: بُرَيْرة، فلقيها رجل، فقال لها: يا بُرَيْرة غطّي شُفَيْعاتك[٤]، فإنّ محمداً ﷺ لن يغني عنك من الله شيئاً، قالت: فأخبرت النبي ﷺ، فخرج يجرّ رداءه، وكنّا معشر الأنصار نعرف غضبه بجرّ ردائه وحمرة وجنتيه، فأخذنا السلاح ثم أتيناه، فقلنا: يا رسول الله، مرنا بما شئت، والذي بعثك بالحقّ نبيّاً لو أمرتنا بآبائنا وأُمّهاتنا وأولادنا لمضينا لقولك فيهم، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: «من أنا؟»

← ١٥٨، وابن حجر في الصواعق: ص ١٨٦ و٢٤٣، وابن عبد ربّه في العقد الفريد: ج ٢ ص ٣٢، وابن الأثير في النهاية: ج ٢ ص ١٤٩، والهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٨ ص ٢١٦ ثم قال بعد أن أورده مطولاً: رواه البزّار. وأخرج الحديث في فضائل الخمسة من الصحاح الستّة: ج ٢ ص ٦٩ ـ ٧٠.

(١) لمّا خطب عمر بن الخطاب لنفسه أُم كلثوم بنت فاطمة من أبيها علي بن أبي طالب، فأعتلّ سيدنا عليّ بصغرها، وبأنّه حابسها لولد أخيه جعفر، فألحّ عليه عمر، ثم صعد المنبر فقال: أيّها الناس، والله ماحملني على الإلحاح علىٰ عليٍّ في ابنته إلّا أنّي سمعت النبي ﷺ يقول: «كلّ سبب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة، إلّا سببي ونسبي وصهري». (منه).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف: ج ١ ص ٢٢٧، وراجع موسوعة عمر بن الخطاب: ص ٨٢٨. وقد تقدّم ذكره من قبل، فراجع.

(٣) رواه العلّامة القندوزي في ينابيع المودّة: ج ٢ ص ١٠٣ وقال: أخرجه الملّا في سيرته.

(٤) الشُفَيْعَة: الذؤابة من الشعر.

قالوا: أنت رسول الله.

قال: «نعم، ولكن من أنا؟»

قلنا: محمد بن عبدالله بن عبدالمطّلب بن هاشم بن عبد مناف.

قال: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر، وأوّل من ينفض التراب عن رأسه ولا فخر، وأوّل داخل الجنّة ولا فخر، وصاحب لواء الحمد ولا فخر، وفي ظلّ الرحمان يوم لا ظلّ إلّا ظلّه ولا فخر، ما بال أقوام يزعمون أنّ رحمي لا ينفع، بل تنفع حتّى تبلغ حكم وحاه[1]، إنّي لأُشفّع فأشفع، حتّى أنّ من أشفع له ليُشفّع فيشفع، حتّى أنّ إبليس ليتطاول طمعاً في الشفاعة»[2] [3].

وصيّة الرسول صلى الله عليه وآله في أهل بيته:

روى جابر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم بعرفات وعليٌّ تجاهه:

«إدْن منّي يا عليّ، خُلِقت أنا وأنت من شجرةٍ، أنا أصلها، وأنت فرعها، والحسن والحسين أغصانها، فمن تعلّق بغصنٍ منها أدخله الله الجنّة»[4].

وعن أبي بكر الصدّيق أنّه صلى الله عليه وآله قال:

«يأيّها الناس ارقبوا محمداً في أهل بيته»[5] أي: احفظوني فيهم فلا تؤذوهم.

---

(١) هما إحدى قبيلتين من اليمن، وقيل: هما حيّان من اليمن، من رواء رمل بيرين. (منه).

(٢) أخرجه ابن البحتري. (منه).

(٣) أقول: وأخرجه الحاكم في المستدرك: ج ٢ ص ٦٠٤ وقال: صحيح الإسناد، عنه في كنز العمال: ج ١١ ص ٤٣٤ ح ٣٢٠٤٠، وأخرجه أيضاً العلّامة القندوزي في ينابيع المودّة: ج ٢ ص ٩٢ وفيه: «بُرَيْدة» بدل «بُرَيرة» وفيه سمّى الرجل المعترض وهو عمر بن الخطّاب، ثم قال: أخرجه أبو جعفر البحتري والحاكم.

(٤) أخرجه الخوارزمي في المقتل: ص ١٠٨، والكنجي في كفاية الطالب: ص ٣١٨، والمغازلي في المناقب: ص ٢٩٧، والطوسي في الأمالي: ص ٦١١ ح ١٢٦٣، والعلّامة القندوزي في الينابيع: ج ٢ ص ٦٩، ومحمد طاهر الشيرازي في كتابه الأربعين: ص ٧٨ و٢٧٧.

(٥) أخرجه العلّامة القندوزي في ينابيع المودّة: ج ٢ ص ٩٦ وقال: أخرجه الحافظ الحنفي والملّا في سيرته.

←

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ النبي ﷺ قال:

«خيركم خيركم لأهلي من بعدي»[1].

وأخرج ابن سعد: أنّ الرسول ﷺ قال:

«استوصوا بأهل بيتي خيراً، فإنّي أُخاصمكم عنهم غداً، ومن أكن خصيمه أخصمه الله، ومن أخصمه الله أدخله النار»[2].

أهل البيت مكان الرأس من الجسد:

إنّ الواجب على المسلمين أن يجعلوا أهل بيت نبيّهم مكان الرأس من الجسد، ومكان العينين من الرأس، فيتمسّكوا بأهدافهم، ويأخذوا بأفعالهم وأقوالهم، ولو أنّهم حقّقوا

← والسيوطي في الدر المنثور: ج ٦ ص ٧ وعزاه إلى البخاري.

وممّا يجدر ذكره هنا أنّ لأبي بكر حديثاً آخر يرويه عن النبي ﷺ في حقّ علي عليه السلام ينقله صاحب الينابيع: ج ٢ ص ٥٨، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبابكر، كفّي وكفّ عليّ في العدل سواء» ثم قال صاحب الينابيع: رواه صاحب الفردوس.

ورواية أُخرى عنه يرويها ابن حجر في الصواعق عن ابن السمّاك: أنّ أبابكر قال لعلي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يجوز أحد الصراط إلّا من كتب له عليٌّ الجواز».

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد: ج ٧ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧، والحاكم النيسابوري في المستدرك: ج ٣ ص ٣١١، والعلّامة القندوزي في الينابيع: ج ٢ ص ١٣٣، وابن حجر في الصواعق المحرقة: ص ١٨٦، والهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٧٤.

(٢) لم نعثر عليه في الطبقات الكبرى المطبوعة، وعنه يرويه القندوزي في الينابيع: ج ٢ ص ٩٨ وزاد: والملّا في سيرته. وأخرجه أيضاً المحبّ الطبري في ذخائر العقبى: ص ١٨ وقال: أخرجه ابن سعد والملّا في سيرته. أيضاً الشبلنجي الشافعي في نور الأبصار: ص ٢٢٩، والأمرتسري الحنفي في أرجح المطالب: ص ٣٤٢، والعلّامة محمدبن عبدالغفار الحنفي في كتابه ائمة الهدى: ص ١٤٨، وابن شهاب العلوي في رشفة الصادي: ص ٨٩ و٢٧٣، والسيد شاه تقي علي في الروض الأزهر: ص ٣٥٧، والنبهاني في الشرف المؤبّد: ص ٥٩، والشعراني في لطائف المنن: ص ١٢٩ والقاضي عياض في كتابه الشفاء: ج ٢ ص ٤٠، والعطّاس في تاريخ حضرموت: ج ٢ ص ٢٤٦، وابن حجر في الصواعق المحرقة: ص ٢٣١.

ذلك لكانوا سادات الأُمم وهُداة الشعوب، ولكنّهم ناصبوهم العداء، وأخّروهم عن مراتبهم، وأزالوهم عن مكانتهم، فأُصيبت الأُمّة بالنكسات، وحفّت بها الخطوب والأخطار.

وعن أبي ذر رضي الله عنه:

«اجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد، ومكان العينين من الرأس، ولا تهتدي الرأس إلّا بالعينين»[١].

وصحّ أنّ بنت أبي لهب لمّا هاجرت إلى المدينة، قيل لها: لن تغني عنك هجرتك، أنت بنت حطب النار!! فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وآله فاشتدّ غضبه، ثم قال:

«ما بال أقوامٍ يؤذوني في بيتي وذوي رحمي، ألا من آذىٰ نسبي وذوي رحمي فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»[٢].

أساس الإسلام حبّ أهل البيت:

ممّا لا شكّ فيه أنّ المسلمين مسؤولون أمام الله عن مودّة أهل البيت، وعن حبّهم، ومن أظهر ألوان الحبّ: الأخذ بأقوالهم، والاقتداء بهم في جميع المجالات[٣].

---

(١) أخرجه العلّامة القندوزي في الينابيع: ج ٢ ص ٢٩ وقال: أخرجه الملاّ في سيرته. وأخرجه أيضاً الطبراني في المعجم الكبير: ج ص ١٣١ ح عن سلمان بلفظ: «إنزلوا آل محمد» وأبونعيم في أخبار إصفهان: ج ١ ص ٤٤، والخوارزمي في المقتل: ص ١١٠، والهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٧٢، وابن المغازلي في المناقب: ص ٢٠، والنبهاني في الشرف المؤبّد: ص ٥٨.

ومن الجدير ذكره هنا أنّ الخطيب أخرج في تاريخه بسنده عن البراء، والديلمي في فردوسه عن ابن عباس حديثاً في الباب، قالا: إنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «علي منّي بمنزلة رأسي من بدني». أُنظر ينابيع المودّة: ج ٢ ص ١٠٩، وقريب منه ما أخرجه الهيثمي في المجمع: ج ٩ ص ١٧٢ عن سلمان وقال: رواه الطبراني.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل بسنده عن أبي هريرة: ج ٧ ص ٢٦٢ وسمّى ابنة أبي لهب «سُبَيْعة». والذهبي في الميزان: ج ٤ ص ٤٣٤ برقم (٩٧٢٦)، وابن حجر في الصواعق: ص ٢٣١.

(٣) فالمتبادر عند إطلاق لفظة «الحبّ» معنيان:

الأول: بمعنى الميول القلبي والعواطف الهادرة باتجاه المحبوب.

←

← الثاني: بمعنى الطاعة والالتزام والانقياد للمحبوب.

ويشهد لهذين المعنيين: التاريخ الطويل، من خلال ما يرويه من صور وحكايات شتّى على هذا الصعيد. وعلى هذا الامتداد فقد نشأ اتّجاهان في هذا المضمار، كلٌّ يؤكّد معنىً دون الآخر، ويبرز مواقف يبدو من خلالها الاهتمام بأحدهما دون الآخر بصورة مفرطة، والتغافل عن الآخر.

كما برزت ميول أخرى أيضاً في هذا الاتّجاه، اشتملت على نزعة مغالطة، ذهبت إلى مديات بعيدة، تجاوزت كل الحدود والمفترقات، تنشد ترجمة هذا «الحبّ» إلى واقع محسوس لكنّه بصورة مفرطة للغاية، تجلّى فيها الغلوّ والإفراط بصورة كبيرة، وأحياناً الجنون.

وقد مرّت تجربة حبّ أهل البيت عليهم السلام في هذين الاتّجاهين، وشملته النزعة الإفراطية التي تجلّت فيها معالم الغلوّ والإفراط، كما تجسّد فيهم اتّجاه أخذ من التفريط بهم صفةً له. وقد نقل التاريخ صوراً عديدة تجسّدت فيها هذه الاتّجاهات خلال مواقف وسير الملوك والأمراء والقوّاد من جهة، والعلماء والفقهاء وطلّاب العلم والمعرفة والحكمة والأخلاق من جهة أخرى، ومن الشخصيات الاجتماعية والأدبية من جهة ثالثة.

ثم ظهور الغلاة، وما أوجدوه من ظاهرة غير إيجابية، كان لها إسهام كبير في تفتيت أواصر الأُمة المسلمة، وتدمير كل بنية تأسّست لغرض إصلاحها، كلّ ذلك كانت صوراً شفّافة تحكي بوضوح عن الطامّة التي اوجدتها هذه الاتّجاهات المغالطة، وعن دورها في تخريب معالم الدين الحنيف، وهتك حرمة مقدّسات الأمة الاسلامية الكبيرة.

وعلى ضوء ذلك، فالرؤية المطلوبة هي الاتّزان والوسطية في هذا الاتّجاه، بعيداً عن الغلوّ والتقصير، أو الإفراط والتفريط، الذي قد ذهب به البعض إلى حدّ منكر، تمثّل في إيجاد ظاهرة النصب والنواصب، الذين زادوا في ثلم الإسلام، وتفتيت أوصال هذه الأمة.

فالرؤية التي تشتمل على الميل القلبي العميق، ثم العمل على ترجمة هذا الحبّ إلى واقع ملموس، من خلال الالتزام بسيرة المحبوب، والتأسّي بسنّته، وتحقيق ما يسرّه ويرضاه بالامتثال لأوامره، وترك ما من شأنه أن يؤدّي إلى ازعاجه وامتعاضه بالاجتناب عن نواهيه، هي الرؤية المطلوبة والمتّزنة.

ذلك لأنّ الذي يظهر التعلّق بأحدٍ، ويتظاهر بمودّته والتحبّب إليه، ثم يخالفه في مقام العمل والامتثال، لا يعدّ محبّاً، ويفتقد ـ في الواقع ـ المحبّة الحقيقية، وبالتالي فهي رؤية مجردّة عن الاتّزان، وبعيدة عن الواقع المطلوب، بل ومنبوذة أيضاً. ألا ترى لو أنّ أحداً ادّعى حبّه للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وأظهر التودّد له، وأبدى من العواطف

←

← الهادرة نحوه، لكنّه لم يستنّ بسنّته، ويخالفه في الامتثال لأوامره، بل ويعارض أقواله وأفعاله وينكرها، أيسمّى هذا بمحبّ للرسول؟ فالحبّ الحقيقي لا يتجرّد عن الأداء والفعل والامتثال، وأيّ افتراق حاصل بين الحبّ والعمل بمقتضى هذا الحبّ، سيؤدّي ـ بلا شك ـ إلى اختلال في مفهوم الحبّ وانهيار أساسه.

يقول الهيثمي في كتابه مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ٢٨٠: إنّ محبّة الإنسان الفاضل الكامل ومودّته تستلزم رقيّه وصعوده إلى سلّم الكمال، فإنّ الإنسان مع من أحبّ كما يقول الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله.

وهذا مقرّر بالوجدان، ويشهد له التاريخ وسيرة العقلاء منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض.

إذ أنّ الميل القلبي وحده عند القاضي تجاه أحد الخصمين المترافعين إليه لا يقدح في عدالته. إلّا إذا أبرزه عملياً ويترتّب عليه أثر في الخارج، ويدخل في مسير الحكم، وكذلك الحال بالنسبة إلى الزوج وميله إلى إحدى زوجتيه لا يحقّق قدحاً في عدالته ما لم يرتّب أثراً على ميله ومحبّته تجاه إحداهما، فإذا رتّب أثراً عندئذٍ تقدح عدالته.

فلا شكّ أنّ حبّ أهل البيت عليهم السلام الذي أوجبته الشريعة المقدّسة، وأمر به ربّ العزّة والجلالة في كتابه الكريم، ونطق به نبيّه صلى الله عليه وآله هو الحبّ بالمعنى الثاني الذي يعني الانقياد والطاعة والامتثال لأوامرهم، والتأسّي بسيرتهم.

فإذا عمل الإنسان في إطار هذا المعنى ـ أي المعنى الثاني ـ وسار وفقاً لمنهاجه المرسوم، فإنّه يؤثّر بلاشك في إيجاد الحبّ في المعنى الأول ويتجسّد بالضرورة. ذلك لأنّ هذا الحبّ يعني بكلّ تأكيد: الدين والمعرفة والطاعة والإيمان، وليس فقط: العواطف العابرة. يقول الامام الصادق عليه السلام «الدين هو الحبّ، والحبّ هو الدين» وروى ابن حجر في الصواعق عن الصادق عليه السلام أيضاً قوله: «الحبّ فرع المعرفة». فالحبّ إذاً يتفرّع عن المعرفة، وإلّا كيف يصدق الحبّ بدون معرفة، وهل يحبّ الإنسان ما يجهله؟!

إنّ محبّة أهل البيت لا تتجرّد عن الأداء والفعل والامتثال، وأيّ افتراق بين حبّهم ومودّتهم، وبين العمل والانقياد والطاعة لهم، سيؤدّي إلى اختلال صارخ في مفهوم الحبّ، وانهيار قواعده. وهذا ما يوضّحه الإمام الباقر عليه السلام في قوله لجابر: «يا جابر لا تذهبنّ بك المذاهب، أحسب الرجل أن يقول: أحبّ علياً وأتولّاه، ثم لا يكون مع ذلك فعالاً؟! فلو قال: إنّي أحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله ثم لا يتّبع سيرته، ولا يعمل بسنّته، ما نفعه حبّه إيّاه شيئاً».

فالحبّ الصادق لأهل البيت عليهم السلام، هو ما إذا ترجم إلى عملٍ واقع، وتجسّد في الخارج بالطاعة والامتثال ←

أخرج البخاري في تاريخه عن الحسن بن عليّ عليه السلام. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«لكلّ شيْ أساس. وأساس الإسلام حبّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وحبّ أهل بيته»[١].

وأخرج الديلمي عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أثبتكم على الصراط أشدّكم حبّاً لأهل بيتي وأصحابي»[٢].

وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«لا تزول قدما عبدٍ حتّىٰ يُسأل عن أربعٍ: عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله فيما أنفقه، ومن أين اكتسبه، وعن محبّته أهل البيت»[٣].

← لأوامرهم ومناهجهم، وتبلور إلى التزام بسلوكياتهم وأخلاقهم. وأمّا الحبّ الذي يظهر التعلّق بهم، والمودّة إليهم، ثم يخالفهم في العمل، فإنّه يفتقد المحبّة الحقيقية التي أمر بها الله سبحانه ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله. وفي ذلك يشير البيتان المنسوبان للإمام الصادق عليه السلام:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه ... هذا لعمري في الفعال بديعُ

لو كان حبّك صادقاً لأطعته ... إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيعُ

(١) لم نعثر على هذا الحديث في تاريخ البخاري. ولا في صحيحه. بهذا اللفظ ولا قريب منه. ولكنّ الحديث بعينه أورده العلّامة السيوطي في الدر المنثور: ج ص ٧ وعزاه إلى تاريخ ابن النجّار.

وممّن أخرج الحديث أيضاً: ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان: ج ٥ ص ٣٨٠ عن جابر بلفظ: «لكل شيْ أساس. وأساس الدين حبّنا أهل البيت». والمتّقي الهندي في الكنز: ج ٦ ص ٢١٨ عن علي عليه السلام بلفظ: «وأساس الإسلام حبّي وحبّ أهل بيتي». والسند النقشبندي الكمشخانوي في كتابه رموز الحديث: ص ٤٩٨. كلّهم ليس فيه: «حبّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله».

(٢) أخرجه عنه المتقي الهندي في الكنز: ج ١٢ ص ٥٦ ح ٣٤١٥٧ وعن ابن عدي في الكامل: ج ٦ ص ٣٠٢. وأخرجه أيضاً المناوي في الفيض: ج ١ ص ١٤٨. وفي الكنوز أيضاً: ص ٥.

(٣) المعجم الكبير: ج ١١ ص ٨٣ ـ ٨٤ ح ١١١٧٧. وأخرجه أيضاً ابن المغازلي في المناقب: ص ١٢٠. والهيثمي في مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ٣٤٦. والسيوطي في إحياء الميت المطبوع بهامش الاتحاف: ص ١١٥. والقندوزي في الينابيع: ص ٢٧١. والحموئني في فرائد السمطين: ج ٢ ص ٣٠١. والخوارزمي في المناقب: ←

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أدّبوا أولادكم على ثلاث خصالٍ: حبّ نبيّكم، وحبّ أهل بيته، وعلى قراءة القرآن، فإنّ حَمَلَة القرآن في ظلٍّ من أنبيائه وأصفيائه»[1].

وأخرج الديلمي عن عليّ عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أربعة أنا لهم شفيعٌ يوم القيامة: المُكرِم لذرّيتي، والقاضي لهم الحوائج، والساعي لهم في أُمورهم عندما اضطرّوا إليه، والمُحبّ لهم بقلبه ولسانه»[2].

الاقتداء بأهل البيت:

قال صلى الله عليه وآله:

«من سرّه أن يحيا حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنّة عدن غرسها ربّي، فليوال

← ص ٤٥. وفي المقتل: ص ٤٣، والكشفي في المناقب المرتضوية: ص ٩٩، والأمرتسري في أرجح المطالب: ص ١٨٣. والذهبي في الميزان: ج ١ ص ٢٠٦. وابن حجر في لسان الميزان: ج ٤ ص ١٥٩. وابن شهاب الدين في رشفة الصادي: ص ٤٥. والنبهاني في الشرف المؤبّد: ١٧٨. والثعلبي في تفسيره كما في مناقب علي بن أبي طالب: ج ٢ ص ٤. وابن بطّة في الإبانة كما في المناقب أيضاً المتقدّمة.

(١) أخرجه العلّامة القندوزي في الينابيع: ج ٢ ص ٢٧١. والعجلوني في كشف الخفاء: ج ١ ص ٧٦. والمتقي الهندي في الكنز: ج ١٦ ص ٤٥٦ ح ٤٥٤٠٩ وعزاه إلى أبي نصر عبدالكريم الشيرازي في فوائده والديلمي في فردوسه وابن النجّار في تاريخه. وأخرجه أيضاً المناوي في فيض القدير: ج ١ ص ٢٥٥. وابن حجر في الصواعق: ص ١٠٣. والسيوطي في إحياء الميت المطبوع بهامش الإتحاف: ص ١١٥ وعزاه الى الديلمي. وفي الجامع الصغير أيضاً: ج ١ ص ٤٢. والنبهاني في كتابه الفتح الكبير: ج ١ ص ٥٩. وفي الشرف المؤبّد: ص ٨٠. والقدوسي الحنفي في سنن الهدى: ص ١٩. والعلّامة باكثير الحضرمي في كتابه وسيلة المآل: ص ٤١٧.

(٢) أخرجه عنه في الكنز: ج ١٢ ص ١٠٠ ح ٣٤١٨٠. وأخرجه أيضاً الزبيدي في الاتحاف: ج ٨ ص ٧٣. والمحبّ الطبري في ذخائر العقبى: ص ١٨. وابن حجر في الصواعق: ص ٢٣٧. والسيوطي في إحياء الميت المطبوع بهامش الاتحاف: ص ١١٥. والخوارزمي في المقتل: ج ٢ ص ٢٥ بلفظ: «أنا لهم شفيع يوم القيامة ولو أتوا بذنوب أهل الأرض: الضارب بسيفه أمام ذرّيتي، والقاضي لهم... الخ».

علياً من بعدي، وليوالِ وليّه، وليقتدِ بأهل بيتي من بعدي، فإنّهم عترتي، خُلِقوا من طينتي، ورُزِقوا فهمي وعلمي، فويلٌ للمكذّبين بفضلهم من أُمّتي، القاطعين فيهم صلتي، لاأنالهم الله شفاعتي»[١].

أهل البيت لا يُقاس أحد بهم:

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«نحن أهل البيت لا يُقاس بنا أحد»[٢].

الحثّ على حبّ أهل البيت، والزجر عن بغضهم:

أشاد القرآن الكريم بفضل أهل البيت، كما احتفى بهم رسول الله ﷺ فقرنهم بمحكم الكتاب، ونطق كتاب الله العظيم ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ بفضل أهل البيت وسموّ مكانهم عند الله، فواجب كلّ مسلم التفاني في حبّ أهل البيت.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنّ رسول الله ﷺ قال:

«يا بني عبدالمطّلب، إنّي سألت الله لكم ثلاثاً: أن يثبّت قائمكم، وأن يهدي ضالّتكم، وأن يعلّم جاهلكم. وسألت الله أن يجعلكم جوداء نجداء رحماء، فلو أنّ رجلاً صفّ بين الركن والمقام فصلّى وصام، ثم لقي الله وهو مبغض لأهل بيت محمد، دخل

---

(١) أخرجه أبونعيم في الحلية: ج ١ ص ٨٦ بسنده عن ابن عباس، وبسند آخر عن حذيفة، لكن باختلاف في بعض اللفظ، وفي ج ٤ ص ١٧٤ من نفس الكتاب. وأخرجه أيضاً الشجري في الأمالي: ج ١ ص ١٣٦، والسيوطي في اللآلئ المصنوعة: ج ١ ص ١٩١ وكلاهما مسنداً عن ابن عباس. وفي الكنز: ج ١٢ ص ١٠٣ ح ٣٤١٩٨ وعزاه إلى الطبراني والرافعي، وأخرجه المناوي في كنوز الحقائق: ص ١٥٣، والمحبّ الطبري في ذخائر العقبى: ص ١٧ وقال: أخرجه الملّا في سيرته، وفي الرياض النضرة أيضاً: ج ٢ ص ٢٠٨ عن ابن عمر.

(٢) أخرج الحديث القندوزي في الينابيع: ج ٢ ص ٩٩، والأمرتسري في أرجح المطالب: ص ٣٣٠، ومحبّ الدين الطبري في ذخائر العقبى: ص ١٧، والمتقي الهندي في الكنز: ج ١٢ ص ١٠٤ ح ٣٤٢٠١ وعزاه الى الديلمي في فردوسه.

النار»[١].

وبسنده عن ابن عباس، قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أحبّوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبّوني لحبّ الله، وأحبّوا أهل بيتي لحبّي»[٢].

وبسنده عن أبي سعيد الخدري، وصحّحه على شرط مسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«والذي نفسي بيده، لا يبغضنا أهل البيت أحدٌ إلّا أدخله الله النار».

وفي رواية: «إلّا أكبّه الله في النار»[٣].

وعنه أيضاً: أنّ الرسول صلى الله عليه وآله قال:

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج ٣ ص ١٤٨ ـ ١٤٩ وفيه «أجواداً» بدل «جوداء». و«صفن» بدل «صفّ». والعلّامة القندوزي في ينابيع المودّة: ج ٢ ص ١٠١ وقال: أخرجه الحاكم وابن أبي خيثمة في تاريخه. وفي الكنز: ج ١٢ ص ٤٣ ح ٣٣٩١٠ عزاه إلى الطبراني والحاكم. وفيه: «صفن» بدل «صفّ». وأخرجه أيضاً ابن حجر في الصواعق: ص ٢٤٠.

(٢) أخرجه الطبراني في معجم الكبير: ج ٣ ص ٤٦ ح ٢٦٣٩. والترمذي في السنن: ج ٥ ص ٦٢٢ ح ٣٧٨٩. والحاكم في المستدرك: ج ٣ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ وقال: صحيح الإسناد. وأبونعيم في الحلية: ج ٣ ص ٢١١. والخطيب في تاريخ بغداد: ج ٤ ص ١٦٠.

(٣) يريد الحاكم في المستدرك: ج ٣ ص ١٥٠ بسنده عنه وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. وأورد الحديث أيضاً ابن حجر في الصواعق: ص ١٤٣ وقال: إنّه صحيح. والسيوطي في الدر المنثور: ج ٦ ص ٧ وقال: أخرجه أحمد وابن حبّان والحاكم عن أبي سعيد الخدري. ولبن المغازلي في المناقب: ص ١٣٨. والزرندي في نظم درر السمطين: ص ١٠٦. والكازروني في شرف النبي: ص ٢٨١. والذهبي في تاريخ الاسلام: ج ٢ ص ٩٠. والسيوطي في الخصائص الكبرى: ج ٢ ص ٢٦٦. وفي إحياء الميت المطبوع بهامش الإتحاف: ص ١١١. وفي الإكليل أيضاً: ص ١٩٠. والمتّقي الهندي في المنتخب المطبوع بهامش المسند لأحمد: ج ٥ ص ٩٤. والصبان في إسعاف الراغبين: ص ١٢٦. والقندوزي في ينابيع المودّة: ص ٤٨. وأحمد زيني في سيرته المطبوعة بهامش السيرة الحلبية: ج ٣ ص ٣٣٣. والبدخشي في مفتاح النجاة: ص ١. والأمرتسري الحنفي في أرجح المطالب: ص ٣٣٤. والقلندر في الروض الأزهر: ص ٣٦٠. والعلّامة باكثير الحضرمي في وسيلة الآمال: ص ١٦. وابن شهاب العلوي في رشفة الصادي: ص ٤٧. والنبهاني في جواهر البحار: ج ١ ص ٣٤١. والحبيب علوي الحداد في كتابه القول الفصل: ص ٦٥ و٤٤٧.

«اشتدّ غضب الله على من آذاني في عترتي»[١].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يحبّنا أهل البيت إلّا مؤمن تقي، ولا يبغضنا إلّا منافق شقي»[٢].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من أبغض أهل البيت فهو منافق»[٣].

وعن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اللّهمّ ارزق من أبغضني وأهل بيتي كثرة المال والعيال»[٤] [٥].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«والذي نفسي بيده، لا تفارق روح جسد صاحبها حتّى يأكل من ثمر الجنّة أومن

---

(١) أخرج الحديث في الكنز: ج ١٢ ص ٩٣ ح ٣٤١٤٣ عن الديلمي في الفردوس وكذا عنه القندوزي في الينابيع: ص ١٣٣، وأخرجه أيضاً ابن حجر في الصواعق: ص ١٨٦، والمناوي في فيض القدير: ج ١ ص ٥١٥ وقال: أخرجه الديلمي عن أبي سعيد. وشرح الفيض أيضاً أورده ثم قال: وكذا أبونعيم عنه أيضاً. وفي الكنوز: ص ١٧ أيضاً، والخوارزمي في المقتل: ص ٨٣، والسيوطي في إحياء الميت المطبوع بهامش الاتحاف: ص ١١٥، والبدخشي في مفتاح النجاة: ص ١١، والصبّان في إسعاف الراغبين المطبوع بهامش نورالأبصار: ص ١٢٦، والنبهاني في الفتح الكبير: ج ١ ص ١٨٥، والقندوسي الحنفي في سنن الهدى: ص ٢٣ و٥٦٤، والأمرتسري في أرجح المطالب: ص ٤٤٦.

(٢) أخرجه ابن حجر في الصواعق المحرقة: ص ٢٣٢ و٢٣٩، ومحب‌الدين الطبري في ذخائر العقبى: ص ١٨ ثم قال: وأخرجه الملّا في سيرته.

(٣) أخرجه السيوطي في الدرّ المنثور: ج ٦ ص ٧ وعزاه إلى ابن عدي، وقال: أخرجه أحمد في المناقب والمناوي في كنوزه. وأيضاً أخرجه السيوطي في إحياء الميت المطبوع بهامش الاتحاف: ص ١١١، وفي الإكليل: ص ١٩٠، والقسطلاني في المواهب: ج ٧ ص ٩، والقندوزي في ينابيع المودّة: ص ٣٧ و١٨١ عن الملّا في سيرته، والعلّامة باكثير في كتابه وسيلة المآل: ص ٦١، والصبّان في إسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار: ص ١٢٦، والأمرتسري في أرجح المطالب: ص ٣٤١.

(٤) قال ابن حجر: كفاهم أن يكثر مالهم فيطول حسابهم، وأن تكثر عيالهم فتكثر شياطينهم. (منه).

(٥) أخرجه المحبّ الطبري في ذخائر العقبى: ص ٢٠ وقال: أخرجه الملّا في سيرته.

شجر الزقّوم، وحتّى يرى ملك الموت ويراني، ويرى عليّاً وفاطمة والحسن والحسين، فإن كان يحبّنا قلت: يا ملك الموت، ارفق به، فإنّه كان يحبّني وأهل بيتي، وإن كان يبغضني ويبغض أهل بيتي قلت: يا ملك الموت، شدّد عليه، فإنّه كان يبغضني ويبغض أهل بيتي، لا يحبّنا إلّا مؤمن، ولا يبغضنا إلّا منافق شقي».

وأخرج الطبراني عن الحسن بن عليّ عليه السلام أنّه قال لمعاوية بن خديج:

«يا معاوية بن خديج، إيّاك وبغضنا، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا يبغضنا أحد، ولا يحسدنا أحد إلّا زيل يوم القيامة عن الحوض بسياطٍ من نار»[1].

وكان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالىٰ ـ يقول: لو كان لي مدخل في العصية مع قَتَلَة الحسين بن عليّ، وخُيِّرت بين الجنّة والنار، لاخترت دخول النار؛ حياءً من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقع بصره عليّ في الجنّة[2].

ولمّا ضرب جعفر بن سليمان مالكاً رحمه الله، غشي علىٰ مالك، فدخل عليه الناس، فلمّا أفاق قال لهم: أُشهدكم أنّي قد جعلت ضاربي في حلٍّ، فقيل: لم؟ فقال: خفت أن أموت فألقىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله فأستحي أن يدخل أحد من آله النار بسببي، فلمّا تولّى المنصور طلب أن يقتصّ له منه، فقال الإمام مالك رحمه الله: أعوذ بالله، ولله ما ارتفع منها سوط عن جسمي إلّا وقد جعلته في حلٍّ منه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله[3].

---

(١) المعجم الأوسط: ج ٣ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ح ٢٤٢٦ وفيه «ذيد» بدل «زيل»، و«ذيد» أي طُرد.

(٢) حكاه عنه ابن شهاب العلوي في رشفة الصادي: ص ٩٦. وحكي أيضاً في ص ٩٥ بهذا اللفظ عن عمر بن عبدالعزيز، أنّه قال لمن حضر مجلسه من بني أُميّة، وكان حديثهم عن قتل الحسين عليه السلام، وما جرىٰ في كربلاء، فقال لهم عمر: لو كنت من قَتَلة الحسين، وأُمرت أن أدخل الجنّة، لما فعلت؛ حياءً أن تقع عليَّ عينا رسول الله صلى الله عليه وآله.

وفي الباب أيضاً ما رواه الزمخشري في ربيع الابرار: ج ٢ ص ١٠٤ عن الحسن أنّه كان يمتدح فاطمة الزهراء كثيراً، ويذكر فضلها وولديها بخير، حبّاً منه لأهل البيت عليهم السلام، وتعظيماً لأبنائها وأحفادها من السلالة الطيّبة، وهو القائل في حقّها: «ما كان في هذه الأُمة أعبد من فاطمة، كانت تقوم حتّى تورّمت قدماها».

(٣) حكاه ابن شهاب الدين العلوي في كتابه الرشفة: ص ٩٧ ثم عقّب قائلاً: ولقد بلغ من تعظيم جعفر العباسي هذا ←

ولأبي حسن ابن جبير، حمدالله:

وحبّ النبي المصطفى وابن عمّه ... عليٍّ وسبطيه وفاطمة الزهرا
هُمُ أهل بيتٍ أذهب الرجس عنهم ... وأطلعهم أفق الهدىٰ أنجماً زهرا
موالاتهم فرض علىٰ كلّ مسلمٍ ... وحبّهم أسنى الذخائر في الأخرىٰ
وما أنا للصحب الكرام بمبغضٍ ... فإنّي أرى البغضاء في حقّهم كفرا
هم جاهدوا في الله حقّ جهاده ... وهم نصروا دين الهدىٰ بالظبا نصرا
عليهم سلام الله ما دام ذكرهم ... لدى الملأ الأعلىٰ وأكرِمْ به ذكرا[1]

الرسول أوّل من يشفع لآل البيت يوم القيامة:

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ[2]:

«أوّل من أشفع له يوم القيامة من أُمتي أهل بيتي، ثم الأقرب فالأقرب، ثم

← المبلغ. فما ظنّك بتعظيم أهل بيت نبيّه وذرّيته الذين هم بضعة منه ﷺ!!

وكان سبب ضرب جعفر للامام مالك أنّه شاعت بين الناس أنّ مالكاً أفتىٰ بفساد بيعة من بايع المنصور، إذ لابيعة لمكره، وهذا ما أثار حفيظة والي المدينة جعفر بن سليمان، فأمر بحبسه والتضييق عليه لأنّه تدخّل فيما لايعنيه، ثم أمر بضربه ضرباً مبرّحاً كما ضرب من قبل أبوحنيفة. راجع مالك بن أنس لمحمد أبوزهرة: ص ٥٩، وتاريخ المذاهب الاسلامية: ص ٣٩٢.

(١) أنشدها الشبلنجي الشافعي في نورالأبصار: ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣. وفي الباب أيضاً ما نقله الشبلنجي عن بعضهم:

هم العروة الوثقىٰ لمعتصم بها ... مناقبهم جاءت بوحيٍ وإنزال
مناقب في «الشورىٰ» وفي «هل أتىٰ»
أتت ... وفي سورة الأحزاب يعرفها التالي
وهم ال بيت المصطفىٰ فوادهم ... على الناس مفروض بحكم واسجال

(٢) ولا يتنافىٰ بين هذا وبين مارواه البزّار والطبراني وغيرهما: «أول من أشفع له من أُمتي أهل المدينة، ثم أهل مكة، ثم أهل الطائف» فإنّ هذا ترتيب من حيث البلدان، وذاك من حيث القبائل، فيحتمل أنّ المراد: البداءة في قريش بأهل المدينة، ثم مكة، ثم الطائف، وكذا في الأنصار من بعدهم. (منه).

الأنصار، ثم من آمن بي واتّبعني من أهل اليمين، ثم سائر العرب، ثم الأعاجم»[١].

وفي خبر عنه صلى الله عليه وآله:

«أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذرّيتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في أُمورهم عندما اضطرّوا إليه، والمحبّ لهم بقلبه ولسانه»[٢].

وأخرج الخطيب في تاريخه عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«شفاعتي لأُمّتي مَن أحبَّ أهل بيتي»[٣].

وأخرج الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أوّل من أشفع له من أُمّتي: أهل بيتي»[٤].

أهل البيت مثل سفينة نوح:

حديث السفينة وباب حِطّة، وهو قوله صلى الله عليه وآله:

«مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تأخّر عنها هلك».

أو: «من ركب فيها نجا، ومن تخلّف عنها غرق».

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم: ج ١٢ ص ٣٢١ ح ١٣٥٥٠، والمناوي في فيض القدير: ج ٣ ص ٩٠ وقال: أخرجه الطبراني، وفي شرحه بعد ايراده الحديث قال: ورواه الدارقطني في الافراد، وأبو الطاهر المخلص أيضاً. وأخرج الحديث أيضاً ابن حجر في الصواعق المحرقة: ص ١١١ و ٩٥، والمحبّ الطبري في الذخائر: ص ٢٠، وقال: أخرجه الديلمي في الفردوس، وأخرجه أيضاً الفيروزآبادي في فضائل الخمسة: ج ٢ ص ٨٢، والمتّقي الهندي في الكنز: ج ١٢ ص ٩٤ ح ٣٤١٤٥ وعزاه إلى الطبراني والحاكم، وأخرجه أيضاً السيوطي في مسالك الخفاء: ص ١٤، البدخشي في مفتاح النجاة، ص ٨، والقندوزي في ينابيع المودّة: ص ٢٦٨، والصبّان في إسعاف الراغبين المطبوع بهامش نورالأبصار: ص ١٢٣، والشعراني في كشف الغمّة: ج ٢ ص ٢٦٠، والنبهاني في الشرف المؤبّد: ص ٧٩، والحبيب علوي الحداد في القول الفصل: ج ٢ ص ٤٠.

(٢) تقدّم تخريجه عمّا قليل.

(٣) تاريخ بغداد: ج ٢ ص ١٤٦، عنه كنز العمال: ج ١٢ ص ١٠٠ ح ٣٤١٧٩ وج ١٤ ص ٣٩٩ ح ٣٩٠٧٥.

(٤) المعجم الكبير: ج ١٢ ص ٣٢١ ح ١٣٥٥٠، عنه مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ٣٨٠.

أو: «من دخلها نجا، ومن تخلّف عنها هلك»[١].

وقال ابن حجر في الصواعق[٢]: جاء من طرق عديدة يقوّي بعضها بعضاً:

«إنّما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا».

وفي رواية مسلم: «ومن تخلّف عنها غرق» وفي رواية: «هلك».

و«إنّما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حِطّة في بني إسرائيل، من دخل غُفِر له»

وفي رواية: «غفر له الذنوب»[٣].

وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن حنش الكناني: سمعت أباذر يقول وهو آخذ باب الكعبة: مَن عرفني فأنا من عرفتم، ومن أنكرني فأنا أبوذر، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق»[٤].

وتمثيلهم بسفينة نوح صريح في وجوب اتّباعهم، والاقتداء بأقوالهم وأفعالهم، وحرمة اتّباع من خالفهم، وأيّ عبارةٍ أبلغ في الدلالة على ذلك من قوله:

«من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق».

فكما أنّ كلّ من ركب مع نوح في سفنيته نجا من الغرق، ومن لم يركب غرق وهلك، فكذلك كلّ من اتّبع أهل البيت أصاب الحقّ ونجا من سخط الله وفاز برضوانه، ومن خالفهم

---

(١) تقدّم تخريج هذا الحديث الشريف من قبل، ويذكر أنّ ممّن أخرجه بلفظ «غرق»: الطبراني في الأوسط: ج ٦ ص ٢٥١ ح ٥٥٣٢، وفي الصغير أيضاً: ج ٢ ص ٢٢، والشجري في الأمالي: ج ١ ص ١٥٤، وابن حجر في المطالب العالية: ج ص ح ٤٠٠٣، وسيأتي إشارة المؤلّف إلى مسلم والحاكم ونقلهما الحديث بلفظ «غرق» أيضاً. وممّن أخرجه بلفظ «هلك» ابن حجر في الميزان: ج ٤ ص ١٦٧ برقم ٨٧٢٨.

(٢) الصواعق المحرقة: ج ١ ص ١٨٦.

(٣) أخرج هذا الحديث الطبراني في الأوسط: ج ٦ ص ٤٠٦ ح ٥٨٦٦، والشجري في الأمالي: ج ١ ص ١٥٢، بسندهما عن أبي سعيد، وأخرجه أيضاً النبهاني في الأربعين: ص ٢١٦ ح ١٨ بلفظ «غفر له الذنوب»، وأخرجه أيضاً القندوزي في الينابيع: ص ١٧، والحلبي في سيرته: ج ٣ ص ١١، والأمرتسري في أرجح المطالب: ص ٢٣٩، والعلّامة عثمان مدوخ المصري في العدل الشاهد: ص ١٤٣.

(٤) المستدرك على الصحيحين: ج ٢ ص ٣٤٣ وج ٣ ص ١٥٠، عنه مجمع الزوائد: ج ٩ ص ٦٨.

هلك ووقع في سخط الله وعذابه، وذلك دليل عصمتهم وإلّا لما كان كلّ متّبعٍ لهم ناجياً، وكلّ مخالفٍ لهم هالكاً، وهذا عامّ مخصوص، كما سيجيء في حديث الثقلين.

وليس المراد به إلّا أئمة أهل البيت، الذين وقع الاتّفاق على تفضيلهم، واشتهروا بالعلم والفضل والزهد والورع والعبادة، واتّفقت الأُمة على عدم عصمة غيرهم، وغير المعصوم لايكون متّبعه ناجياً، ومخالفه هالكاً على كلّ حال.

ولا يقصر عنه في الدلالة خبر تسميتهم بباب حِطّة الدالّ على أنّ النجاة في اتّباعهم، والخلاص من الذنوب والمعاصي بالأخذ بطريقتهم.

وفي بيان هذا الحديث أيضاً يقول الإمام شرف الدين:

وأنت تعلم أنّ المراد من تشبيهم عليهم السلام بسفينة نوح: أنّ من لجأ إليهم في الدين، فأخذ فروع وأُصوله عن أئمتهم الميامين نجا من عذاب النار، ومن تخلّف عنهم كان كمن آوىٰ يوم الطوفان الى جبلٍ ليعصمه من أمر الله، غير أنّ ذاك غرق في الماء، وهذا في الحميم والعياذ بالله.

والوجه في تشبيههم عليهم السلام بباب حِطّة، هو: أنّ الله تعالىٰ جعل ذلك الباب مظهراً من مظاهر التواضع لجلاله، والخنوع لحكمه، وبهذا كان سبباً للمغفرة[1].

وهذا وجه الشبه، وقد حاول ابن حجر إذ قال بعد أن أورد هذه الأحاديث وغيرها من أمثالها:

ووجه تشبيههم بالسفينة: أنّ مَن أحبّهم وعظّمهم شكراً لنعمة مشرفهم، وأخذ يهدىٰ علمائهم، نجا من ظلمة المخالفات، ومَن تخلّف عن ذلك غرق في بحر كفر النِعَم، وهلك في مفاوز الطغيان... إلى أن قال:

وبباب حِطّة ـ يعني ووجه تشبيههم بباب حِطّة ـ: أنّ الله تعالىٰ جعل دخول ذلك الباب الذي هو باب أريحا أوبيت المقدس مع التواضع والاستغفار سبباً للمغفرة، وجعل لهذه الأُمة مودّة أهل البيت سبباً لها[2].

---

(١) المراجعات: ص ٢٤ برقم (٨).

(٢) الصواعق المحرقة: ج ١ ص ١٥٣.

وجوب محبّة أهل البيت وإكرامهم وتوقيرهم والتمسّك بهم:

حبّ آل البيت فرض على كلّ مؤمن[١]؛ لأنّهم شجرة النبوّة، ومحطّة الرسالة، ومنبع الرحمة، ومعدن العلم... .

---

(١) لاشكّ أنّ وجوب حبّ أهل البيت ﷺ من المتواترات على ألسنة أغلب علماء المسلمين، حيث ألزموا محبّتهم وحرّموا بغضهم، بل أضحت هذه المسألة من المسلّمات كما يقول العلّامة الشيخ محمد بهجت ابن الشيخ بهاء الدين الدمشقي في كتابه «نقد عين الميزان»: ص ١٣: «أمّا مودّة أهل البيت، وكونها من الواجبات ففضية مسلّمة مقبولة، ومعلومة غير مجهولة». ويعلّل ذلك العلّامة الشيخ حسن النجار المصري في كتابه «الأشراف»: ص ٢١، حيث يقول: «وروي عن سيدي الخوّاص أنّه كان يقول: ومن حقّ الأشراف علينا أن نفديهم بكل مانملك؛ لسريان لحم رسول الله ودمه الكريمين فيهم. فهم بضعة منه. وللبعض في الإجلال والتوقير والتعظيم ماللكلّ. وحرمة جزئه ﷺ ميتاً كحرمة جزئه حيّاً على حدّ سواء».

بل ورد عن الإمام أحمد مع ما ذكره ابن مفلح الحنبلي في كتابه «الآداب الشرعية» من حادثة مرور الإمام الفقيه ولقائه بصبي هاشمي عند باب المسجد، ووقوفه وفسح المجال للصبي بالمرور أولاً بعد أن قبّل يديه ثم قال: إنّ هذا من أهل بيت أوجب الله علينا احترامه. وهكذا ينقل صاحب رشفة الصادي عن الإمام الشعراني ما كان يرويه عن شيخه إبراهيم المتبولي، وما كان يظهره من خشوع وانكماش إذا ما حضر بين يديه هاشمي ويقول: إنّه بضعة من رسول الله ﷺ، ويؤكّده بقوله: لاينبغي لمن يؤمن بالله ورسوله أن يتوقّف عن تعظيم الشريف والإحسان إليه حتّى يعرف صحّة نسبه، بل يكفيه تظاهر الشريف بالشرف.

ومن جميل ما ينقل في المقام كلام لصاحب رشفة الصادي قال: من أطلق لسانه في الذرّية العلية لايمت إلّا مرتداً عن الإسلام إن لم يتب توبة مثمرة للندم والإقلاع والعزم على أن لايعود، مع استيفاء التعزير الشرعي من السابّ، والاستحلال من الشريف الذي سبّه، فواجب على ولاة المسلمين أن يشدّدوا في التنكيل والتهديد على فعل ذلك، لمخالفته القرآن والسنّة.

وما ينقله السيد السمهودي في كتابه «جواهر العقدين» على ما في رشفة الصادي: ص ٥٠، فيقول بعد كلام طويل في الباعث على لزوم محبّة أهل البيت، والآثار الدنيوية والأخروية المترتّبة عليها، وما يستلزم من سلوك في هذا المجال، فيعقّب بعد ذلك ويقول: وبالحقيقة لايعدّ من المؤمنين من لم يجد رسول الله ﷺ وذرّيته أحبّ إليه وأعزّ عليه من أهله وولده والناس أجمعين.

ويقول صاحب كتاب «الرشفة»: ص ٥٠: قال المجد البغوي في تفسيره: إنّ مودّة النبي ﷺ ومودّة أقاربه من فرائض الدين، وذكر نحوه الثعلبي وجزم به البيهقي.

وهم ينابيع الحكمة، فيهم كرائم القرآن، وهم كنوز الرحمان، إن نطقوا صدقوا... .

ناصرهم ومحبّهم ينتظر رحمة الله ونفحاته، وعدوّهم ومبغضهم يستقبل نقمة الله وسطواته، بهم هدايتنا من الظلماء... .

وهم موضع سرّ المصطفىٰ صلى الله عليه وآله، وملجأ أمره، ومؤمّل كلمه، فهم أساس الدين، وعماد اليقين.

وإكرام أهل البيت واجب، تعظيماً للرسول صلى الله عليه وآله.

وعن أنس قال: بينما النبي صلى الله عليه وآله في المسجد إذ أقبل عليٌّ فسلّم، ثم وقف، فنظر النبي صلى الله عليه وآله في وجوه الصحابة أيّهم يفسح له، وكان أبوبكر عن يمين رسول الله صلى الله عليه وآله فتزحزح عن مجلسه، قال: ها هنا يا أباالحسن، فجلس بين النبي صلى الله عليه وآله وبين أبي بكر، فعرف البِشْر في وجه الرسول صلى الله عليه وآله وقال:

«يا أبابكر، إنّما يعرف الفضل من الناس ذوو الفضل»[1].

وفي المناقب: عن هشام بن حسّان، قال: خطب الحسن بن علي عليه السلام بعد بيعة الناس له بالأمر، فقال:

«نحن حزب الله الغالبون، ونحن عترة رسوله الأقربون، ونحن أهل بيته الطيّبون، ونحن أحد الثقلين اللّذين خلّفهما جدّي صلّى الله عليه وسلّم في أُمته، ونحن ثاني كتاب الله، فيه تفصيل كلّ شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيمٍ حميدٍ، فالمعوّل علينا في تفسيره، ولا تظنّن تأويله، فأطيعونا فإنّ طاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله عزّوجلّ وطاعة رسوله مقرونة، قال جلّ شأنه: ﴿يأيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم﴾»[2].

وعنه أيضاً قال:

«نحن أئمة المسلمين، وحجج الله على العالمين، وسادة المؤمنين، وقادة الغرّ

---

(١) أخرجه الشوكاني في الفوائد المجموعة: ص ٣٧١، والعراقي في تنزيه الشريعة: ج ١ ص ٣٥٩، والعجلوني في كشف الخفاء: ج ١ ص ٣٥٠.

(٢) المناقب للإمام الشافعي: ص ٨٧. وأخرجها أيضاً المسعودي في كتابه مروج الذهب: ج ٣ ص ٩ - ١٠، وراضي آل ياسين في كتابه صلح الحسن عليه السلام: ص ٥٩.

المحجّلين، وموالي المسلمين.

ونحن أمان لأهل الأرض، كما أنّ النجوم أمان لأهل السماء، بنا ينزل الغيث، وتُنشر الرحمة، وتخرج بركات الأرض، ولولا ما على الأرض منّا لانساخت بأهلها»[١].

ومن خطبة للإمام عليّ كرّم الله وجهه يذكر فيها أهل البيت:

«هم عيش العلم وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم، لايخالفون الحقّ ولا يختلفون فيه، هم دعائم الاسلام، وولائج الاعتصام، بهم عاد الحقّ الى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبّته، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية، لا عقل سماع ورواية، فإنّ رواةالعلم كثير ووعاته قليل»[٢].

ومن خطبه عليه السلام:

«فأين تذهبون وأنّى تُؤفكون، والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنابر منصوبة، فأين يُتاه بكم وكيف تَعمهون، وبينكم عترة نبيّكم، وهم ألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن.

أيّها الناس، خذوها عن خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله أنّه يموت من مات منّا وليس بميّت، ويُبلى مَن بلي منّا وليس ببالٍ، فلا تقولوا بما لاتعرفون، فإنّ أكثر الحقّ فيما تنكرون، واعذروا من لا حجّة له عليكم»[٣].

ويقول عليه السلام:

«انظروا أهل بيت نبيّكم فالزموا سمتهم، واتّبعوا أثرهم، فإنّهم يخرجون بكم الى هدىً، ولن يعيدوكم في ردىً، فإن لَبدوا فالْبِدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تستبقوهم فتضلّوا، ولا تتأخّروا عنهم فتهلكوا»[٤].

وخطب عليه السلام بالمدينة بعد بيعة الناس: فقال:

---

(١) المناقب للإمام الشافعي: ص ٨١.

(٢) نهج البلاغة: ص ٣٥٧ ضمن خطبة رقم (٣٣٩).

(٣) المصدر السابق: ص ١١٩ ـ ١٢٠ ضمن خطبة رقم (٧٨).

(٤) المصدر المتقدّم: ص ١٤٣ شطر من خطبة رقم (٩٧).

«ألا إنّ أبرار عترتي وأطايب أُرومتي أحلم الناس صغاراً وأعلمهم كباراً، ألا وإنّا أهل بيتٍ، من عِلْم الله عِلْمنا، وبحكم الله حكمنا، ومن قول الصادق الصدوق ﷺ سمعنا، فإن تتّبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرهم، وإن لم تفعلوا يهلككم الله، ومعنا راية الحقّ، مَن تبعها لحق، ومن تأخّر عنها محق. ألا وإنّ بنا يدرك كلّ مؤمن ثواب عمله، وبنا تخلع ربقة الذلّ من أعناقكم، وبنا فتح الله تعالىٰ وبنا يختم».

ويقول الإمام الشافعي في حبّ أهل البيت:

يـــا آل بـــيت رســـول الله حـــبّكُمُو ... فـــرضٌ مـــن الله فـــي القـــرآن أنـــزلَهْ
يَكـفيكُمو مـن عـظيم الفـخرِ أنّكُمُو ... مَـن لم يـصلِّ عـليكم لا صـلاةَ لَـهْ[1]

ولبعضهم:

هـــم العـــروةُ الوثـــقىٰ لمـــعتصمٍ بـــها
مـــــناقبهم جـــاءَتْ بـــوَحْيٍ وإنـــزالِ
مـــناقِبٌ فـــي الشُّورىٰ وفـي «هل أتىٰ» أتَت
وفـــي ســـورة الأحـــزاب يَـعرفها التـالي
وهـــم آلُ بـــيت المـــصطفىٰ فـرضاهُم
عـلى النـاس مـفروضٌ بـحكمٍ وأَسـجالِ[2]

ويقول البوصيري:

وهـــل حـبّكم للـناس إلّا عـقيدةٌ ... عـلىٰ أُسّـها فـي الله تُـبنَى القـواعـدُ
وإن اعـــتقاداً خـــالياً مـــن مـحبّة ... وردكـــم آل النـــبيّ لَـــفاسدُ[3]

ومن قصيدةٍ للصاحب بن عبّاد:

حبُّ النـــبي وأهـــل البـــيت مـعتمدي ... إذا الخُـــطوبُ أســـاءَتْ رأيـــها فـــينا

---

(١) ديوان الإمام الشافعي: ص ١١٥، وذكر البيتين ابن حجر في الصواعق المحرقة: ج ١ ص ١٤٨.

(٢) ذكر الأبيات الشبلنجي الشافعي في كتابه نور الأبصار: ص ٢٣٣، وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمّة: ص ١١. والأميني في الغدير: ج ٢ ص ٢١٠ ونسبوه لبعضهم. غير أنّ ابن رويش ذكر هذه الأبيات في كتابه «المقتطفات»: ص ٤٨٤ ونسبها إلى كمال الدين محمد بن طلحة بن الحسن القرشي العدوي الشافعي.

(٣) أورد البيتين الشبلنجي في نور الأبصار: ص ٢٣٤.

يـــا ربِّ ســـهِّل زيـــارتي مشـــاهدهم فـــإنَّ روحـــي تـــهوىٰ ذلك الطـــينا
يـــا ربِّ صـــيِّر حـــياتي فـــي مـــحبَّتهم ومـــحشري مـــعهم آمـــين آمـــينا[1]

ويقول الفرزدق في قصيدته التي مدح بها زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما:

مـــن مـعشرٍ حبُّهم ديـن، وبـغضُهُمُو
كـــفر، وقـــربُهُمُو مـــنجىً ومـــعتصمُ
مـــقدَّمٌ بـــعد ذكـــر الله ذكـــرُهُمُو
فـــي كـــلِّ بـــدءٍ ومـــختومٌ بـــه الكَـــلمُ
إن عُـــدَّ أهـــل التُّـــقىٰ كـــانوا أئـــمَّتهم
أوقيل: مَن خير أهل الأرض؟ قيل: هُمُ
يســـتدفع الشـــرَّ والبـــلوىٰ بـــحبِّهمو
ويســـتربُّ بـــه الإحســـانُ والنِـــعَمُ[2]

ويقول الشيخ أحمد الحلواني الكبير:

هـــم الديـــن والدنـــيا هُـــمُو هُـــمُو
فـــقل فـــيهم مـــاشئت لا تـــبرَهنَّ نكـــرا
بـــدور سَـــمَت عـــن شـــمسِ أكـــرمِ مـــرسلِ
أنـــاروا ديـــاجيَ الكـــون بـــالطَّلعة الغـــرّا
وبـــالبرِّ والتـــقوىٰ وبـــالحلم والنـــدىٰ
وبـــالعلم والفـــتوىٰ وبـــالذكر والذكـــرىٰ

ويقول دِعْبِل الخزاعي:

مـــلامك فـــي أهـــل النـــبي فـــإنَّهم أحـــبَّاي مـــا عـــاشوا وأهـــل ثـــقاتي
تـــخيَّرتهم رشـــداً لأمـــري فـــإنَّهم عـــلىٰ كـــلِّ حـــالٍ خـــيرة الخـــيراتِ

---

(١) ديوان الصاحب بن عبّاد: ص ١٥٨.

(٢) ديوان الفرزدق: ج ٢ ص ٣٥٥.

فيارب زدني من يقيني بصيرةً ... وزد حبّهم يا ربِّ في حسناتي[١]

ويقول الشاعر في مدح أهل البيت:

لآل البيت عزٌ لا يزول ... وفضل لا تحيط به العقولُ
وإجلال ومجد قد تسامىٰ ... وقدر ما لغايته وصولُ
وفي التنزيل بالتطهير خُصُّوا ... ومدحتهم بها شهد الرسولُ
لهم عزمٌ وسلطنةٌ وجاهٌ ... ودام لهم من الله القبولُ
سيوفٌ في الأعادي فاتكات ... وسطوتهم لها رعب مهولُ
بدور الدين بِهم قد تجلّت ... تكاد الشمس من خجلٍ تزولُ
زكوا أصلاً بنسبتهم ولكن ... يطيب الفرع ما طابت أُصولُ
وكيف القول في قومٍ أبوهم ... له جبريل في الدنيا رسولُ
معاذ الله أن أخشىٰ نكالاً ... ولي في حبّهم باعٌ طويلُ[٢]

حديث الثقلين[٣]:

---

(١) ديوان دِعْبل بن علي الخزاعي: ص ٦٣ من قصيده طويلة يذكر فيها ما أصاب آل محمد صلى الله عليه وآله من كوارث ورزايا وحوادث جمّة يصعب حتّىٰ على الجبال تحمّلها.

(٢) ذكر الأبيات الشبلنجي في نور الأبصار: ص ٣٩٢ ولم ينسبه لأحد.

(٣) أحاديث الثقلين التي رواها أجلّاء علماء أهل السنّة، وأكابر محدّثيهم في صحاحهم. بأسانيدهم المتعدّدة، واتّفق علىٰ روايتها الفريقان: فرواها مسلم والترمذي في صحيحيهما. والإمام أحمدبن حنبل في مسنده، والثعلبي في تفسيره. وابن المغازلي الشافعي في المناقب. وصاحب الجمع بين الصحاح الستّة. والحميدية من أفراد مسلم. والسمعاني في فضائل الصحابة. وموفّق بن أحمد. والطبراني. وابن حجر في صواعقه و... و...، وغيرهم.

ورويت من طريق أهل البيت باثنين وثمانين طريقاً.

والعقد الفريد لابن عبد ربّه القرطبي. وذخائر العقبىٰ لأحمدبن عبدالله الطبري. وتفسير الخازن في تفسير آية الاعتصام. وتفسير ابن كثير في آية المودّة. وفي تفسير آية التطهير. وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

←

وعن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ:

«أنا تارك فيكم ثقلين: أوّلهما كتاب الله فيه الهدىٰ والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به»، فحثّ علىٰ كتاب الله ورغّب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي»

وسُئل زيد: من أهل بيته؟ قال: هم من حرم الصدقة بعده، هم آل عليّ، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس[1].

← وفي الحلية لأبي نعيم الإصفهاني. وأُسد الغابة لابن الأثير. والدرّ المنثور للسيوطي. ولسان العرب لجمال الدين الأفريقي. (منه)

أقول: إضافةً إلىٰ ما أورده المؤلّف: ورواه أيضاً الدارمي في السنن: ج ٢ ص ٤٣٢. والنسائي في الخصائص: ص ٣٠. والحافظ الكنجي في كفاية الطالب: ص ١١ وقال: رواه أبوداود وابن ماجة القزويني في كتابيهما. وأيضاً في ص ١٣٠. وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ: ج ٤ ص ٨. وابن الجوزي في تذكرة الخواص: ص ٣٣٢ ب ١٢. ومحبّ الدين في ذخائر العقبىٰ: ص ١٦. والعزيزي الشافعي في السراج المنير شرح الجامع الصغير: ج ١ ص ٣٢١. وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمّة: ص ٢. والخفاجي في نسيم الرياض: ج ٣ ص ٤١٠. وكذا في هامشه شرح الشفا لعلي القارئ. والنظام النيسابوري في تفسيره: ج ١ ص ٢٥٧ عند تفسير آية الاعتصام. وفي ص ٩٤ عند تفسير آية المودّة. وفي ص ٢١٢ عند تفسير آية ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾. والكاشفي في تفسيره المسمّىٰ بالمواهب العلية عند تفسير آية ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾. والفيروزآبادي في القاموس المحيط: مادة (ثقل). وعبدالرحيم الصفي في منتهى الإرب: مادة (ثقل). وعبدالحق الدهلوي في مدارج النبوة: ص ٥٢٠. ومحمد صالح الترمذي الكشفي في كتابه المناقب المرتضوية: ص ٩٦ و٩٧ و ١٠٠ و ٤٧٢. وفي مفتاح الكنوز: ص ٢ و ٤٨٨. والبغوي الشافعي في مصابيح السنّة: ج ٢ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦. والعلّامة القندوزي في ينابيع المودّة: ص ١٨ و ٢٥ و ٣٠ و ٣٢ و ٣٤ و ٩٥ و ١١٥ و ١٢٦ و ١٩٩ و ٢٣٠ و ٢٣٨ و ٣٠١. وغيرها كثير من الكتب التي دوّنتها يراعة علماء الاسلام. ممّا لا يسع المقام لذكرها وإحصائها.

(١) أخرجه الترمذي في السنن: ج ٥ ص ٦٢٢ ح ٣٧٨٨. وأحمد في المسند: ج ٤ ص ٣٦٧. والبيهقي في السنن الكبرىٰ: ج ٢ ص ١٤٨ وج ٧ ص ٣٠ وج ١٠ ص ١١٤. والحاكم في المستدرك: ج ٣ ص ١٤٨. والطبراني في الصغير: ج ١ ص ١٣١ و ١٣٥. والطحاوي في مشكل الآثار: ج ٤ ص ٣٦٨ و ٣٦٩.

وفي روايةٍ لمسلم[١]: فقلنا: من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا، لأنّ المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلّقها فترجع الى أبيها وقومها. أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده. وسبق أن بيّنا ذلك.

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله:

«إنّي تارك فيكم الثقلين ـ وفي روايةٍ[٢]: خليفتين ـ أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وأنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»[٣].

وفي روايةٍ: «وإنّ اللطيف الخبير أخبرني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض. فانظروا بما تخلّفوني فيهما»[٤].

وفي روايةٍ أُخرى: «إنّي قد تركت فيكم من إن أخذتم به لن تضلّوا بعدي: الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وأنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»[٥].

وفي روايةٍ أُخرى: «إنّي تارك فيكم أمرين لن تضلّوا إن اتبعتموهما، وهما: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، فلا تتقدّموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم»[٦].

وقد يكون هذا صريحاً في خروج النساء من «أهل البيت» واختصاصهم بعشيرته

---

(١) صحيح مسلم: ج ٤ ص ١٨٧٤ ح ٣٧ من كتاب فضائل الصحابة.

(٢) رواه بهذا اللفظ الطبراني في الكبير: ج ٥ ص ١٥٣ ح ٤٩٢١. والهيثمي في المجمع: ج ٩ ص ١٦٢ وقال: بإسناد جيد. وأخرجه أيضاً السيوطي في الدر المنثور: ج ٢ ص ٦٠. وأحمد في المسند: ج ٥ ص ١٨٢ و١٨٩ بسنده عن زيد بن ثابت.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص ٤١. والهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٦٣ وقال: رواه الطبراني في الأوسط.

(٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٦٤ عن زيد بن أرقم.

(٥) أخرجها الحاكم في المستدرك: ج ٣ ص ١٠٩ عن أبي الطفيل عن زيد بن أرقم.

(٦) أخرجه الحاكم أيضاً في المستدرك: ج ٣ ص ١١٠ عن واثلة عن زيد بن أرقم إلى قوله: «أهل بيتي».

وعصبته، وهو رأينا الذي انتهينا إليه في ختام هذا البحث، والله أعلم[١].

وحديث الثقلين من أوثق الأحاديث النبوية، وأكثرها ذيوعاً[٢]، وقد اهتمّ العلماء به اهتماماً بالغاً. لأنّه يحمل جانباً مهمّاً من جوانب العقيدة الإسلامية.

كما أنّه من أظهر الأدلّة التي تستند إليها الشيعة في حصر الإمامية في أهل البيت، وفي عصمتهم من الأخطاء والأهواء، أنّ النبي ﷺ قرنهم بكتاب الله العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا يفترق أحدهما عن الآخر.

ومن الطبيعي أنّ صدور آية مخالفة لأحكام الدين تعتبر افتراقاً عن الكتاب العزيز، وقد صرّح النبي ﷺ بعدم افتراقهما حتّى يردا على الحوض، فدلالته على العصمة ظاهرة جليّة.

وقد كرّر النبي ﷺ هذا الحديث في مواقف كثيرة، لأنّه يهدف الى صيانة الأُمة، والمحافظة على استقامتها، وعدم انحرافها في المجالات العقائدية وغيرها إنْ تمسّكت بأهل البيت، ولم تتقدّم عليهم، ولم تتأخّر عنهم.

ولو كان الخطأ يقع منهم، لما صحّ الأمر بالتمسّك بهم الذي هو عبارة عن جعل أقوالهم وأفعالهم حجّة. وفي أنّ المتمسّك بهم لا يضلّ كما لا يضلّ المتمسّك بالقرآن. ولو وقع منهم الذنب أوالخطأ لكان المتمسّك بهم يضلّ، وأنّ في اتّباعهم الهدىٰ والنور، كما في القرآن، ولو لم يكونوا معصومين لكان في اتّباعهم الضلال.

---

(١) وقد تكون رواية الهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٦٣ أكثر صراحةً باختصاص «أهل البيت» بعشيرته وعصبته دون نسائه، حيث يروي عن أبي هريرة أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني خلّفت فيكم اثنين، لن تضلّوا بعدهما أبداً: كتاب الله ونسبي، ولن يتفرّقا حتّىٰ يردا عليّ الحوض».

(٢) فقد ورد الحديث في روايات كثيرة وبألفاظ مختلفة ممّا يدعوا إلى استظهار أنّ رسول الله ﷺ كان قد تحدّث به في أكثر من موضع، حيث رواه ائمة الحديث والتفسير والتاريخ والسيرة واللغة، ويكفي أنّ العلّامة السيد ميرحامد حسين الهندي قد رواه عن جماعة تقرب من المائتين من أكابر علماء المذاهب، من المائة الثانية الى المائة الثالثة عشر، وعن الصحابة والصحابيات أكثر من ثلاثين شخصاً، رجلاً وامرأة، كلّهم رووه عن النبي الأكرم ﷺ، وكان قد أخرج الحديث ابن مردويه عن تسعة وثمانين طريقاً. راجع مناقب علي بن أبي طالب لابن مردويه: ص ٢٢٨ برقم (٣٢٣)، والصراط المستقيم: ج ٢ ص ١٠٢.

وفي أنّهم حبل ممدود من السماء إلى الأرض كالقرآن. وهو كناية عن أنّهم واسطة بين الله تعالىٰ وبين خلقه، وأنّ أقوالهم عن الله تعالىٰ، ولو لم يكونوا معصومين لم يكونوا كذلك.

وفي أنّهم لن يفارقوا القرآن، ولن يفارقهم مدّة عمر الدنيا، ولو أخطأوا أوأذنبوا لفارقوا القرآن وفارقهم، وفي عدم جواز مفارقتهم بأن يتقدّم عليهم بجعل نفسه إماماً لهم، أويقصّر عنهم ويأتمّ بغيرهم، كما لا يجوز التقدّم على القرآن بالإفتاء بغير ما فيه، أوالتقصير عنه باتّباع أقوال مخالفيه، وفي عدم جواز تعليمهم، وردّ أقوالهم، ولو كانوا يجهلون شيئاً لوجب تعليمهم ولم يَنْهَ عن ردّ قولهم.

وقد دلّت هذه الأحاديث أيضاً علىٰ أنّ منهم من هذه صفته في كلّ عصرٍ وزمانٍ، بدليل قوله صلى الله عليه وآله: «إنّهما لن يفترقا حتّىٰ يردا على الحوض» وأنّ اللطيف الخبير أخبره بذلك، وورود الحوض كنايةٌ عن انقضاء عمر الدنيا، فلو خلا زمان من أحدهما لم يصدق أنّهما لن يفترقا حتّىٰ يردا على الحوض.

ويتّخذ أنصارهم أنّ أهل البيت هم الأئمة الاثناعشر، وأُمّهم الزهراء هذا الحديث، ليرجّحوا رأيهم قائلين: إنّه لا يمكن أن يراد بأهل البيت جميع بني هاشم، بل هو من العام المخصوص بمن ثبت اختصاصهم بالفضل والعلم والزهد والعفّة والنزاهة من ائمة أهل البيت الطاهر، وهم الائمة الاثناعشر، وأُمّهم الزهراء البتول.

يدلّلون علىٰ ذلك بالإجماع علىٰ عدم عصمة من عداهم، والوجدان أيضاً علىٰ خلاف ذلك، لأنّ من عداهم من بني هاشم تصدر منهم الذنوب، ويجهلون كثيراً من الأحكام، ولا يمتازون عن غيرهم من الخلق، فلا يمكن أن يكونوا هم المجعولين شركاء القرآن في الأُمور المذكورة، بل يتعيّن أن يكونوا لا كلّهم، وليس إلّا من ذكرنا.

جدّ السيّدة نفيسة زعيم أهل البيت عليهم السلام

من مكّة إلى المدينة:

ونشأت السيّدة عليها السلام نشأةً نبويةً. فإنّها بعد أن درجت بمكّة تحوطها العزّة والكرامة، استصحبها أبوها وقد أوفت الخامسة من عمرها إلى المدينة المنوّرة. وعاشت معه بداءةً، وأخذ يلقّنها ما تحتاج إليه من أُمور دينها ودنياها، وكانت تذهب إلى المسجد النبوي تسمع من شيوخه، وتتلقّى الحديث والفقه من علمائه، وعاشت في مدرسة أبيها المحمدية تسمع منه تاريخ دينها وتاريخ أُسرتها.

ومن بين الذين التقت بهم السيّدة نفيسة في المدينة الإمام مالك الذي كان حديث الفقهاء والمسلمين جميعاً بكتابه «الموطّأ» وفقهه الذي انتشر في كلّ الأمصار. ووجدت السيدة كريمة الدارين في هذه الأجواء الرائعة مبتغاها. وقرأت «الموطّأ» وناقشت كلّ القضايا الدينية، وبدأت تزداد معرفةً كاملةً. والناس من حولها بما فيهم الإمام معجبون بهذه السيدة الطاهرة، يسمعون آراءها في كلّ ما يتدارسون من فقهٍ وسيرةٍ وحديث.

إسحاق المؤتمن:

وبلغت كريمة الدارين سنّ الزواج، فرغب فيها شباب آل البيت رسول الله صلى الله عليه وآله من بني الحسن وبني الحسين رضي الله عنهم، كما تهافت على خطبتها الكثير من شباب أشراف قريش، لما عرفوه من خيرها وبرّها، ودينها وإيمانها، وصلاحها وتقواها، وما نشأت عليه من عبادة ربّها، وإقبالها على طلب العلم حتّى ضربت فيه بسهم وافر، الى ماحباها به الله عزّوجلّ من حسن بارع وجمال رائع، وما امتازت به من سرى الأخلاق وكريم المناقب وحميد

الشمائل، فقد برأها الله من معدن النقص ونبيل الشيم، فكان أبوها يأبى عليهم إجابة طلبهم، ويردّهم رداً جميلاً، الى أن أتاه إسحاق المؤتمن ابن جعفر الصادق رضي الله عنهما، وكانت دار الحسن قبالة دار جعفر الصادق، فخطبها من أبيها، فلم يردّ عليه جواباً. فقام إسحاق من عند الحسن، وفي نفسه ما فيها، وذهب توّاً إلى المسجد النبوي، ودخل الحجرة الشريفة، ووقف تجاه القبر في خشوع وإجلال، فقال: يا رسول الله، إنّي خطبت نفيسة بنت الحسن من أبيها فلم يردّ عليّ جواباً، وإنّي لم أخطبها إلّا لخيرها ودينها وعبادتها. ثم انصرف، وقد انشرح صدره واطمأنّت نفسه.

ففي تلك الليلة رأى أبوها الحسن جدّه المصطفى ﷺ في النوم، وهو يقول له: «يا حسن زوّج نفيسة من إسحاق المؤتمن» فما أفاق من نومه حتّى بعث الى إسحاق يستدعيه إليه، فسارع إليه، وما إن جلس بين يدي الحسن حتّى أخبره برؤياه، وما لبث أن عقد له على ابنته في حفلٍ جمع جمهرةً من آل بيت رسول الله ﷺ، وجماعة من أشراف قريش، وكان ذلك في سنة إحدى وستّين مائة[1].

وبعد أن جهّزها أبوها وجليت لزوجها، بنى عليها في دار أبيه جعفر الصادق بالمدينة، وهي الدار التي كان يسقى فيها الماء الذي تصدّق به جعفر ﷺ، وكانت تلك الدار قبلاً لحارثة بن النعمان الأنصاري الخزرجي، من بني النجّار، وكان من فضلاء صحابة الرسول ﷺ، وقد قال ﷺ: «دخلت الجنّة فسمعت قراءةً، فقلت: من هذا؟ فقيل: حارثة بن النعمان» فقال ﷺ: «كذلكم البرّ». وكان بَرّاً بأُمّه، وكان قد ذهب بصره، فاتّخذ خيطاً في مصلّاه الى باب حجرته، فكان إذا جاءه مسكين أخذ من مكتله شيئاً ثم أخذ بطرف الخيط حتّى يناوله، فكان أهله يقولون له: نحن نكفيك، فيقول: إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مناولة المسكين تقي مصارع السوء».

وكان قبالة تلك الدار في الغرب دارالحسن بن زيد، وهو أطمّ، كان الحسن قد ابتاعه، فخاصمه فيه أبوعوف النجاري، فهدمه حسن فجعله داراً مشيّدة البنيان، عالية الأركان، تحوطها الكرامة، ويرفرف عليها الشرف والجلالة.

وبزواج السيّد إسحاق من السيّدة نفيسة اجتمع في بيتها نوران: نور الحسن والحسين

---

(١) راجع خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٧.

سيّدا شباب أهل الجنّة. فالسيّدة نفيسة جدها الإمام الحسن. والسيّد إسحاق جدّه الإمام الحسين: لأنّ إسحاق المؤتمن هو ابن جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن عليّ زين العابدين ابن أبي الشهداء الإمام الحسين عليهم السلام، وأُمّه حميدة البربرية، وهي أُم إخوته: موسى الإمام، ومحمد، وفاطمة الكبرى، رضي الله عنهم.

وكان إسحاق من أهل الفضل والاجتهاد، والورع والصلاح، روى عنه الكثير من الناس الحديث والآثار، وكان ابن كاسب يعقوب بن حميد بن كاسب المدني ـ يُنسب الى جدّه ـ إذا ما حدّث عن إسحاق يقول: حدّثني الثقة الرضا إسحاق بن جعفر، وناهيك بابن كاسب فقد كان محدّثاً ثقة، مأموناً صادقاً[١].

قال القاسم بن عبدالله بن مهدي: قلت لأبي مصعب: بمن توصيني بمكّة، وعمّن أكتب؟ فقال: عليك بشيخنا أبي يوسف يعقوب بن حميد[٢].

وإنّما يعرف الفضل من الناس ذووه، وكان إسحاق وفيّاً لإخوته، وكان من الفضل والورع ما لا يختلف فيه اثنان.

وفي عمدة الطالب[٣]: وأمّا إسحاق بن جعفر الصادق، ويُكنّى: أبا محمد، ويُلقّب بالمؤتمن، فقد وُلد بالعريض ـ وهو وادٍ بالمدينة ـ وكان من أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله، وكان محدّثاً جليلاً، وادّعت فيه طائفة من الشيعة الإمامةَ، وكان سفيان بن عُيَيْنة شيخ الإمام الشافعي رضي الله عنهما إذا ما روى عنه يقول: حدّثني الثقة الرضا إسحاق بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين رضي الله عنهم. وهو أقلّ المعقّبين من ولد جعفر الصادق عدداً، إذ أعقب ثلاثة رجال: محمداً والحسن والحسين، وتُعرف ذرّيته بالإسحاقيّين.

ويقول المقريزي في خططه[٤]: وتزوّج بنفيسة رضي الله عنها إسحاق بن جعفر الصادق رضي الله عنهما، وكان يقال له: إسحاق المؤتمن، وكان من أهل الصلاح والخير والفضل والدين، رُوي عنه الحديث، وكان ابن كاسب إذا حدّث عنه يقول: حدّثني الثقة

---

(١) أُنظر ترجمته في تهذيب التهذيب: ج ١١ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ برقم (٦٤٦).

(٢) أُنظر المصدر السابق: ص ٣٣٦.

(٣) عمدة الطالب: ص ٤٢.

(٤) خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٥.

الرضا إسحاق بن جعفر، وكان له عقب بمصر منهم: بنو الرقي، وبحلب: بنو زهرة.

وولدت نفيسة من إسحاق ولدين هما: القاسم وأُمّ كلثوم.

وفي تهذيب التهذيب: إسحاق بن جعفر، روىٰ عن كثير بن عبدالله بن عمرو ابن عوف، وعبدالله بن جعفر المخزومي، وصالح بن معاوية بن عبدالله بن جعفر، وغيرهم. وروىٰ عنه إبراهيم بن المنذر، ويعقوب بن حميد بن كاسب، ويعقوب ابن محمد الزهري، وغيرهم[١].

قدم مصر وهو زوج السيّدة نفيسة بنت الحسن الأنور رضي الله عنهم، وقد ذكر في لسان الميزان[٢]: أنّه كان يقال له: الحزين؛ لأنّه لم يُرَ ضاحكاً.

وفي مشتركات الطوبجي: إنّه الممدوح بروايته عن أبيه. وقد مكث بعد وفاة السيّدة نفيسة رضي الله عنها زمناً ليس بالكثير. ثم توفّي ودُفن بمصر. وقيل: إنّه رحل وولداه القاسم وأُم كلثوم إلى المدينة وتوفّي بها. وهو الأصحّ.

نفيسة العلم:

في بيتٍ كريم، وبين أُسرة طهّرها الله سبحانه وتعالىٰ تطهيراً وأذهب عنها الرجس، فتحت السيدة كريمة الدارين عينيها، ووعت أذناها كتاب الله العظيم. ولا شكّ أنّ الجوّ الذي كان يحيطها شجّعها على ذلك، فأب صالح وأُمّ عابدة، يعبدان الله سبحانه وتعالى ليل نهار، فكان طبيعياً أن تقلّدهما، ولعلّها سمعت من أبيها تاريخ جدّيها الإمامين الحسن والحسين، وأُمهما الزهراء، وأبيهما أميرالمؤمنين، وما اقتبسوا جميعاً من رسول الله من أنوار، وما أخذوا عنه من شتّى الفضائل والمكرمات.

ولعلّ والدها تنبّأ لها بأنّها سيكون لها شأن عظيم بين الصالحين والصالحات. فقد بدأت في سنّ مبكرة في تلاوة القرآن الكريم بمفردها، ثم عملت علىٰ حفظه حتّىٰ تمّ لها ذلك في خلال سنة واحدة فقط. أمّا العبادات المفروضة، فقد أُثر عنها رضي الله عنها أنّها كانت تؤدّي الصلوات الخمس بانتظام مع والديها في المسجد الحرام، وهي في السادسة من

---

(١) تهذيب التهذيب: ج ١ ص ٢٠٠ برقم (٤٢٤).

(٢) لسان الميزان: ج ١ ص ٣٥٩ برقم (١١٠١).

عمرها[١].

ونشأت كذلك آية من آيات الله تعالىٰ في قوّة الذاكرة والحافظة، صفاء نفس ونقاء حدس، فكان طبيعياً أن تتّجه بكلّ قواها الى كتاب الله الكريم، فألمّت بتفسيره وتأويله، فاستجلت غوامضه، وخاضت عبابه.

وأخذت وهي تنمو جسماً وعقلاً وروحاً، تقوم الليل وتصوم النهار، وتمعن في العبادة والدراسة، فاتّجهت بكلّ روحها الى دراسة حديث جدّها، فروت منه عن أبيها وآل بيتها وعلماء عصرها، وأخذت بحظٍّ وافرٍ من الفقه والعلم، ومن هنا جاء اللقب الذي اشتهرت به: نفيسة العلم.

شغفت بحديث جدّها المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام، وروت من الحديث والآثار الكثير من أبيها وآل بيتها وعلماء عصرها، وبخاصّة الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه بالمدينة، وكان من عادته أن يتصدّر مجالس العلم وفي يمينه موطّؤه، وحوله العلماء وطلّاب العلم وفدوا عليه من سائر الأقطار الإسلامية، ينشر الإمام مالك العلم في أرجاء المدينة، من أرجائها ينساب الى آفاق العالم المتعطّش له، وكانت أحاديث الإمام مالك علنية، وكانت أصداؤها تصل إلى السيّدة نفيسة، فتأخذ ما تضيفه الى ما جاءت به من مكّة من سائر علوم القرآن والحديث، وقد سمع عنها الحديث كثير من علماء مصر والراحلين إليها.

وقدكان ابن خلّكان يروي: أنّ الإمام الشافعي رضي الله عنه لمّا دخل مصر حضر إليها، وسمع عنها الحديث[٢].

وقالت زينب بنت يحيى المتوّج، وهو أخو السيّدة نفيسة رضي الله عنهم: كانت عمّتي نفيسة تحفظ القرآن وتفسيره، وكانت تقرأ القرآن وتبكي، وتقول: إلهي وسيّدي، يسّر لي زيارة خليلك ابراهيم عليه السلام[٣] لأنّها كانت تعلم أنّه أبوالأنبياء، أي أنّه أبو أبيها محمد رسول الله صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء، وأنّه له بشارة كما ورد في الأثر، وإذن فهو أبوها وجدّها، وكانت تعرف أنّ

---

(١) انظر مجموعة آل بيت النبي في مصر: ص ٧٩.

(٢) وفيات الأعيان: ج ٥ ص ٤٢٤ رقم (٧٦٧). وذكره أيضاً المقريزي في خططه: ج ٤ ص ٣٢٥، والاستاذ أبوكف في مجموعة آل بيت النبي في مصر: ص ٨٤.

(٣) تحفة الأحباب وبغية الطلاب: ص ١٠٥.

الرسول ﷺ قال:

«أنا دعوة ابراهيم عليه السلام. حيث يقول: ﴿ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنّك أنت العزيز الحكيم﴾»[1].

وحين بلغت المزار، ووقفت بين يدي جدث خليل الله قالت: ما أن بلغت المقام الكريم والضريح العظيم، حتّى أجهشت بالبكاء، بكاء السرور؛ لتحقيق أُمنيتي في زيارة الخليل. ثم جلست في خشوع أقرأ من آيات الله ما ورد في خليل الله، وقرأت:

﴿وإذ قال ابراهيم ربِّ اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام ربِّ إنّهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنّه منّي ومن عصاني فإنّك غفور رحيم ربّنا إنّي أسكنت من ذرّيتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون ربّنا إنّك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل وإسحاق إنّ ربّي لسميع الدعاء ربِّ اجعلني مقيم الصلاة ومن ذرّيتي ربّنا وتقبّل دعاء ربّنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون إنّما يؤخّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتدّ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربّنا أخّرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتّبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول من الجبال فلا تحسبنّ الله مخلف وعده رسله إنّ الله عزيز ذوانتقام يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزي الله كلّ نفس ما كسبت إنّ الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنّما هو إله واحد وليذّكّر أولوا الألباب﴾[2].

---

(١) رواه في كنز العمال: ج ١١ ص ٣٨٤ رقم ٣١٨٣٣ عن ابن سعد في طبقاته، وقال: عن الضحّاك مرسلاً. وقريب منه برقم ٣١٨٣٤ و٣١٨٣٥ و٣١٨٨٩.

(٢) سورة ابراهيم: ٣٥ ـ ٥٢.

وتقول السيدة كريمة الدارين: ولمّا كانت قراءتي في تدبّر وتفكّر، وخشوع وخضوع، أحسست حينئذ إحساساً يقرب من المادية أنّ الخليل أمامي، وحينئذٍ خفق قلبي وخشع بصري، وقلت: «يا جدّي الأكبر، جئت إليك بجسدي وروحي، وقد جاءت روحي من قبلي، فهل أحظىٰ برضاك وصالح دعاك، وتوجيهاتك الشريفة لي، حتّىٰ أتعبّد لآخر لحظة في حياتي؟

وحينئذٍ سمعت صوتاً مجلجلاً يقول: يا ابنتي يا نفيسة، أبشري فإنّك من الصالحات القانتات، وإنّك بإذن الله موفّقة، إلّا أنّني أوصيك بأن تقرئي سورة المزّمل حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يأيّها المزّمل قم الليل إلّا قليلاً نصفه أوانقص منه قليلاً أوزد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً إنّ ناشئة الليل هي أشدّ وطئاً وأقوم قيلاً إنّ لك في النهار سبحاً طويلاً واذكر اسم ربّك وتبتّل إليه تبتيلاً ربّ المشرق والمغرب لا إله إلّا هو فاتّخذه وكيلاً واصبر علىٰ ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً وذرني والمكذّبين أولي النعمة ومهّلهم قليلاً...﴾ الى آخر السورة الكريمة، وتتدبّري معناها، وستعلمين طرق العبادة التي لا مشقّة فيها، لأنّ الله لا يكلّف نفساً إلّا وسعها، وأنت يا ابنتي تتعبّدين الى درجة الإرهاق الذي يضني جسدك، ومع ذلك تتحاملين علىٰ نفسك وتغرقين في العبادة.

يا ابنتي اقرئي قول الله تعالىٰ لرسوله الكريم: ﴿إنّ ربّك يعلم أنّك تقوم أدنىٰ من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار...﴾ الى آخر سورة المزّمّل، وقد جعل الله العبادة في الليل اختيارية بعد أن كانت إجبارية، لأنّ الله يعلم أنّ من عباده من يجاهد في سبيل الله، ويسعى لنيل رزقه، ولا بدّ له من الراحة ليقوم بعمله.

هذا والجهاد عبادة، والسعي في سبيل الرزق عبادة، وإدارة شؤون المنازل للسيدات عبادة، اذكري ذلك وارحمي نفسك وأعطيها قسطها من الراحة، لتقوىٰ على العبادة من غير إرهاق مؤلم، واعلمي أنّك موفّقة، وأنّك مباركة، وأنّك في الصف الأول بين الصالحين والصالحات، وكوني في جميع خطواتك القدوة الحسنة لغيرك، ليقتدي به من أراد الله له الخير والسعادة.

وحينئذ قلت: يا جدّي العظيم، يا جدّي الأكبر، سأنفّذ هذه التوجيهات، وأرجو من روحك الطاهرة أن تهب روحي صفاءً، حتّىٰ أبلغ ما أتمنّاه لنفسي من القربىٰ إلى الله تعالى،

حتّىٰ ألقاه وهو عنّي راضٍ، وهذه أُمنيتي التي لا أُمنية بعدها.

فقال: يا ابنتي. أبشري، فإنّ الله قد استجاب دعواتك. ولن أنساك حتى نلتقي في عالم الروح، في عالم الخالدين، ثم بين يدي الله ربّ العالمين، يوم تُجزىٰ كلّ نفس ما عملت والعاقبة للمتقين.

وحجّت كريمة الدارين هي وزوجها إسحاق المؤتمن، وزارت قبر خليل الرحمان عليه السلام، وكما قلت: حجّت في حياتها المباركة ثلاثين مرّة، أكثرها ماشية علىٰ قدميها[١]، وكان القدوة لها في ذلك جدّها الإمام الحسن عليه السلام الذي كان يقول:

«إنّي لأستحي من ربّي أن ألقاه ولم أمشِ الى بيته»[٢].

وقالت زينب بنت يحيى[٣] المتوّج: خدمت عمّتي السيّدة نفيسة أربعين سنة، فما رأيتها نامت بليل ولا أفطرت بنهار، إلّا العيدين وأيام التشريق، فقلت لها: أما ترفقين بنفسك؟ فقالت: كيف أرفق بنفسي وأمامي عقبات لا يقطعهنّ إلّا الفائزون؟[٤].

وكانت تقول: كانت عمّتي تحفظ القرآن وتفسيره، وكانت تقرأ القرآن وتبكي[٥].

وقد سمع منها الحديث وتفسيره والفقه كثيرٌ ممّن قابلوها، فقد سمع منها بمصر غير الإمام الشافعي جمهور كبير من العلماء؛ كذي النون المصري، وعبدالله بن الحكم، وولداه

---

(١) راجع خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٥.

(٢) حلية الأولياء: ج ٢ ص ٣٧، المناقب لابن شهر آشوب: ج ٣ ص ١٨٠، العوالم (الإمام الحسن): ص ١٣٢.

(٣) يحيىٰ أخوها دُفن بمصر، وليس لأخيها يحيىٰ سوىٰ زينب التي صحبت عمتها طوال حياتها، وقد عافت الدنيا وزهدتها، فلم تتزوج، وكان يُرىٰ على قبر يحيىٰ نور، قال أبوالذاكر: دخلت إلى قبر يحيىٰ فلم أحسن الأدب، فسمعت من قبره من يقول: قل: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾.

وليس بمصر من إخوتها سواه، ومشهده معروف بإجابة الدعاء، وقد دفنت زينب بنت يحيىٰ المتوّج رضي الله عنهما بجوار قبر عمرو بن العاص، وكان أهل مصر يأتون لزيارة قبرها من كلّ فجّ، وكان الظاهر الخليفة الفاطمي يأتي الى زيارتها ماشياً، وكان أهل مصر يجيئون إلى قبرها يستسقون، وكان النيل قد توقّف، فاستقىٰ أهل مصر بها، وجأروا الى ربّهم، فجرى النيل بإذن الله تعالى. (منه)

(٤) خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٥، مجموعة آل بيت النبي في مصر: ص ٧٩.

(٥) المصدران السابقان.

محمد وعبدالرحمان، وعبدالرحمان البويطي، والربيعان المرادي والجيزي، وحرملة من أصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنهم، وكثيرون غيرهم[١]، استفادوا ممّا أفاضه الله عليها من فيوضات ممّا سيأتي بيانه بعد قليل، وما روته من أحاديث وآثار وفقه وعلم ومعارف نبوية، فإنها رضي الله عنها من أهل البيت، اتّقوا الله فعلّمهم الله، وأنار قلوبهم بنور عرفانه، فكانوا من حملة العلم وحضنته، ومن ذوي الفقه والدين والمعرفة واليقين.

وكانت السيدة الورعة زاهدةً في دنياها، تؤمن بمنهج الزهد وتمارسه، وكان رائدها في طريق الزهد جدّها الأعظم رسول الله صلى الله عليه وآله الذي أحاطت بسيرته، وكان مرشدها هو ما قال الرسول وما فعل، وقد مالت بطبعها منذ صغرها الى حياة بعيدة عن زخرف الحياة وزينتها، بالرغم من أنّ أباها كان أميراً للمدينة، وكان بلا شكّ يعيش عيشةً رغدةً، ولكنّها ما كانت تستشرف الى لذائذ الدنيا وشهواتها.

وفي بيت أبيها نشأت ـ بالرغم ممّا يُحاط بها من مظاهر الترف ـ نشأة الزهادة والتقشّف، فمثلاً كانت قليلة الأكل، ويُروىٰ أنّها كانت تأكل كلّ ثلاثة أيام مرّة[٢]. وكانت لها سلّة معلّقة أمام مصلّاها، فكانت كلّما اشتهت شيئاً وجدته في السلة.

وتقول زينب بنت يحيىٰ: كنت أجد عندها ما لا يخطر بخاطري، ولا أعلم من يأتي به، فعجبت من ذلك، فقالت: يا زينب، من استقام مع الله تعالىٰ كان الكون بيده وفي استطاعته[٣].

وكانت تمضي أكثر وقتها في معبدها أوحرم جدّها المصطفىٰ صلى الله عليه وآله، علىٰ أنّه يقال: إنّها رضي الله عنها لم تكن سلبية في زهدها، تقاطع الحياة مقاطعةً تامةً كما يفعل الزهّاد، وإنّما كان هجرها للدنيا واقعاً علىٰ كلّ ما يعوقها عن الله وطاعته ومرضاته، ويعوقها عن العمل لآخرتها والتزوّد لها.

---

(١) كالإمام أحمدبن حنبل، وسفيان الثوري، ورابعة العدوية. انظر تحفة الأحباب وبغية الطلّاب للسخاوي: ص ١٠٧، ومجموعة آل بيت النبي في مصر: ص ٨٥. وسنأتي علىٰ ترجمة مختصرة للأعلام الذين أوردهم المؤلف في ثنايا صفحات الكتاب القادمة.

(٢) راجع خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٥.

(٣) المصدر السابق.

كانت الآخرة وكان الموت نصب عينيها، والدليل على ذلك حفرها قبرها بيدها، وقضاؤها شطراً من وقتها كلّ يوم تستلهم منه العظات، وتستوحي الصالحات.

وهي بعد ذلك زوجة مخلصة، لم يشغلها أيّ أمر عن مسؤوليتها كزوجة، وحتّى يفاخر بها المؤتمن الدنيا، ويذكر للناس من حوله أنّه قد وجد فيها نعمة الله عليه، فلم تقصّر في حقّ له أبداً، ولم يشغلها أي أمر عن حقوقه وواجباته.

وهي أُم ترعى الله في زوجها وولدها، تغدق بالحنان ولديها أبا القاسم وأُمّ كلثوم، ترعاهما وتؤدّبهما حتّى يصيرا نموذجاً صالحاً بشرف الانتساب الى بيت النبوّة.

وهي ربّة بيتٍ تشرف عليه.

وهي مُحبّة للعلم والمعرفة حبّاً جعلها بحقّ نفيسة العلم.

وتجتمع بذوي الحاجات من الناس وتستمع إليهم، ولهذا شاهد مسكنها في المدينة وفود الزوّار من كلّ بلد إسلامي، خصوصاً من القادمين في مواسم الحجّ والراغبين في العلم، وقد كان أكثر هؤلاء الوفود وأشدّهم حرصاً على لقائها من مصر.

وضاقت دارها بالزائرين كما حدث لها تماماً في مصر، عندما طلبت الرحيل إلى الحجاز عند أهلها بسبب ازدحام منزلها بالقاصدين إليها، كما سيأتي تفصيل ذلك فيما بعد.

فزهد السيدة نفيسة كان إيجابيّاً نافعاً، كما كان زهد الرسول إيجابيّاً، مثاليّاً في إيجابيته.

ويقول الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه:

(١) ترك الحرام، وهو زهد العوام.

(٢) ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواصّ.

(٣) وترك ما يشغل العبد عن الله، وهو زهد العارفين[١].

وهو زهد السيّدة كريمة أهل الدارين، شعارها: الله أولاً، والمجتمع ثانياً، لله صلاتها ونسكها، ولله محياها، ولله مماتها.

---

(١) كتاب الزهد: ص ٤.

أخلاقها:

كانت رضي الله عنها وأرضاها، كريمة الخليقة، شريفة الطبع، غرّاء المكرمات، زهراء المأثرات. فقد صاغها الله من معدن كريم، وأنبتها نباتاً حسناً، فجمعت خلال الفتوة والمروءة، فكانت معطاءة فيّاحة، فيّاضة نفّاحة، جمّة المبرات، كثيرة الصلات، وهي مع هذا زاهدة متقشّفة.

أمّا ما برأها الله عليه من عزّة نفس وحمىٰ أنف، تربأ بنفسها عن مواطن الذلّ والابتذال، وتتصاون عن الامتهان والهوان، وهي مع هذا لا يذهب بنفسها زهو وكبرياء، ولا يخالطها تيه وعجب، بل كانت متواضعة النفس متطامنة الجانب.

سلاسة طبع وسجاحة خُلق، وبالإجمال: فأخلاقها مقتبسة من أخلاق جدّها المصطفىٰ صلى الله عليه وآله، وإنّه لعلىٰ خُلق عظيم.

وكانت المثل الأعلىٰ في الوفاء لزوجها علىٰ وجه الخصوص، وعرفان حقوقه، والقيام بواجباته، وقد ساهمته الإخلاص والودّ. وقد عرف فيها هذا الخُلق النبيل، فكان مثال الطاعة لها فيما تسلكه وتنحيه، فما خالف لها أمراً، ولا وقف لها في سبيلٍ رغبةً، بل كان يهيّئ لها ما تبتغيه، ويسهّل لها ما تريده، ولم يبخل عليها بشيء من ماله.

وكانت عطوفة علىٰ أُسرتها، فها هي تلك بنت أخيها زينب، وقد لمست في عمّتها العطف، فتمادت في خدماتها، ونسيت نفسها في سبيل عمّتها، فلازمتها وأصبحت كظلّها، وعافت الزواج لتنفرد بخدمتها، وتسهر علىٰ راحتها، وتقضي لها حاجتها. وما رحلة عمّتها نفيسة بنت زيد الى مصر إلّا شوقاً لبنت أخيها.

وكان برّها لخادمتها «جوهرة» ومعاملتها لها أحسن معاملة، فاشربّ في قلبها حبّها والإخلاص لها، الى ما عُرف عنها من إيثار ذويها وبرّهم ممّا جعلها تملك قلوبهم.

وكانت كثيرة الخير والبرّ، تواسي البائسين، وتسعف الملهوفين، وتفرّج كرب المكروبين، وكان لها مال كثير الى مال زوجها، تحسن من كلّ أُولئك إلى المرضىٰ والمحتاجين والناس عامةً. فما كانت تردّ سائلاً ولا تمنع مستجدياً، وكانت تتعرّف من به حاجة فتقضي حاجته، سخيّة لكلّ من يتصل بها، نديّة لكلّ من يلوذ بها ويحوم حول رحابها.

وهب لها أحد الأُمراء مائة ألف درهم وقال: خذي هذا المال شكراً لله تعالى لتوبتي، فأخذته وصرّته صرراً بين يديها، وفرّقت الصرر عن آخرها، وكان عندها بعض النساء،

فقالت لها: يا سيدتي، لو تركت لنا شيئاً من هذه الدراهم لنشتري به شيئاً فنفطر عليه، فقالت لها: خذي غزلاً غزلته بيدي فبيعيه بما تشتري به طعاماً نفطر عليه. فذهبت المرأة وباعت الغزل وجاءت بما أفطرت به هي وإيّاها، ولم تأخذ من المال شيئاً[١]. فهي الجوادة بنت الجواد، وهي من قومٍ يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

وكانت رضي الله عنها عيوفة عزوفة، فما عرف عنها أنها مدّت يدها لمخلوق، وما كانت تأخذ شيئاً ممّا كان يأتي إليها من مِنَح الأُمراء والعظماء، بل إنّها كانت تبعث به الى ذوي الحاجات، سخاء نفس وعزّة فطرة. وما كانت تنفق على نفسها وأفراد بيتها إلّا ما كان من مالها أو مال لزوجها، أو ما يأتيها ممّا تغزله بيدها، وكانت لا تأكل طعاماً لغير زوجها.

وهذا أمير مصر السريّ بن الحكم، فقد ألحّ عليها إلحاحاً شديداً في أن تنزل في دار له نزل عنها لها، فبعد لأيٍ وجهدٍ قبلت أن تنزل في تلك الدار التي وهبها لها، وقد سرّه قبولها وحمد الله تعالى على ذلك[٢]، فهي من آل بيتٍ لا يرضى ذووه أن يكون لأحدٍ غير الله تعالى له عليهم نعمة ولا منّة، شمماً وإباءً نفس.

وهذا هو الأمير الذي بعث إليها بمائة ألف درهم، فلم تشأ أن تبيتها أو تدخرها، بل وزّعتها دون أن تُبقي لها منها درهماً.

وكانت السيّدة نفيسة رضي الله عنها كثيرة البرّ والمواساة، عطوفةً رحيمةً، تحنو على القوم وتتّحد بهم، فتؤويهم الى ظلّ رحمتها، وتمهّد لهم مهاد رأفتها.

ولم يكن عطفها على ذوي قرباها بأقلّ أثراً من ذلك، فكثيراً ما نالهم برّها، وشملهم خيرها. فهذه بنت أخيها السيّدة زينب قد لاقت من عمّتها من الحنان والرأفة والإحسان ما جعلها تخلص إليها، وتتفانى في خدمتها، وتقوم لها بما تحتاجه من أُمورها، فإنّ عمّتها ملكت قلبها ببرّها وعطفها، حتّى وفت لها أربعين سنة! تنشط لخدمتها، وتسهر على حاجتها، دون سأمٍ أو ملل[٣].

وكذلك أخلصت لها خادمتها «جوهرة» لما لمسته من عطف وحنان، فعاشت في كنفها

---

(١) راجع تحفة الأحباب وبغية الطلّاب: ص ١٠٦.

(٢) خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٧ـ٣٢٨.

(٣) انظر خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٥، مجموعة آل بيت النبي في مصر: ص ٧٩.

مسرورةً، تفديها بنفسها، وتسارع الى تلبية ندائها وقضاء حاجتها[١].

وهؤلاء جيرانها وقد عرفوا برّها وعطفها، فكانوا يودّونها ويثقون بها، حتّى أُولئك الذين كانوا يخالفونها في دينها، فهذه جارتها اليهودية لم تأمن على وحيدتها إلّا الشريفة السيدة نفيسة، بالرغم من وجود جمهرة من اليهود أبناء شيعتها يجاورونها، غير أنّها لم تر فيهم أحداً موضع ثقتها، فتودع عنده فلذّة كبدها الى أن تعود من حمّامها، فلم تجد غير تلك الأمينة العطوفة، فتركتها عندها، فنالت من بركتها ممّا سيأتي في حينه.

فالبرّ والعطف آيتان محبّبتان، بهما تُملك القلوب وتُؤسر الأفئدة، الى ما رأيناه من إقبال الناس عليها، فوق ما لمسوه من بركاتها، وما عرفوه من نفحاتها.

من بلد الرسول إلى القاهرة:

ولدت السيّدة نفيسة بمكّة، ثم انتقلت إلى المدينة بصحبة أبيها، ولبثت بالمدينة الى أن رُوّعت بحبس المنصور لأبيها من سنة ١٥٦ هـ الى سنة ١٥٩ هـ حين أخرجه المهدي من حبسه وردّ عليه ماله[٢].

واستمرّت في المدينة، وعاشت في ظلّ أبيها قريرةً مسرورة، الى أن تزوّجها إسحاق المؤتمن وبنى عليها في بيت أبيه بالمدينة[٣]، فعاشت ردحاً من الزمن، فكانت تتشوّق لزيارة قبر أبيها الخليل ابراهيم عليه السلام.

ثم زارت بغوطة دمشق: مقام السيّدة زينب بنت أُم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهم[٤]، ثم زارت قبر عمّتها فاطمة بنت الحسن بن علي رضي الله عنهم، إذ أنّها مدفونة بمغارة، وعند قبرها رخامة مكتوب عليها:

أسكنت من كان في الأحشاء مسكنه ... بالرغم منّي بين التراب والحجر

---

(١) مجموعة آل بيت النبي: ص ٧٩.

(٢) راجع تاريخ بغداد: ج ٧ ص ٣٠٩، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ج ٨ ص ٢٩٤، وشذرات الذهب: ج ٢ ص ٢١.

(٣) انظر خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٥.

(٤) انظر تحفة الأحباب: ص ١٠٥.

أفديك فاطمة بنت ابن فاطمة بنت الأمة بنت الأنجم الزهر

وزارت قبر فضّة جارية جدّتها فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وغير أُولئك.

وفي دمشق استقبلها جمهور كبير من العلماء هرعوا للتسليم عليها، والتماس دعائها وبركاتها. وفي مقدّمتهم: الشيخ الكبير العارف بالله أبو سلمان الداراني، وكان رجلاً صالحاً زاهداً، وله كلام رفيع في التصوّف والوعظ.

ومحدّث الشام أبو العباس الوليد بن مسلم الدمشقي[١]، وكان إماماً حافظاً.

والإمام أبوبكر الدمشقي مروان بن محمد الطاطري[٢]، وكان صالحاً خاشعاً عابداً، وغير أُولئك من علماء الشام ومحدّثيه وصلحائه، يرجون منها دعاءها، ويلتمسون بركاتها، ويسمعون عنها ما تحدّث به من حديث جدّها المصطفى ﷺ[٣].

وفي يوم السبت الموافق ٢٦ رمضان ١٩٣ هـ وصلت السيّدة كريمة الدارين الى مصر قبل أن يقدم إليها الإمام الشافعي رضي الله عنه بخمس سنين، وكان ذلك في ولاية الحسن بن البحباح[٤] والي مصر من قِبَل الرشيد[٥].

وفي العريش استقبل أهل مصر السيّدة نفيسة رضي الله عنها أحسن استقبال[٦]، فقد

---

(١) هو الوليد بن مسلم الاموي بالولاء، الدمشقي، عالم الشام في عصره من حفّاظ الحديث، ولد عام ١١٩ هـ، وتوفي عام ١٩٥هـ بذي المروة عند ما كان قافلاً من الحجّ. (تذكرة الحفّاظ، ج ١ ص ٢٧٨، الأعلام: ج ٨ ص ١٢٢)

(٢) هو أبوبكر مروان بن محمد بن حسّان الطاطري الأسدي، ولد عام ١٤٧ هـ عام الكواكب، وتوفّي عام ٢١٠ هـ بدمشق، أثنى عليه الإمام أحمد ويحيى لكنّه قال: كان مرجئاً، وهو ثقة. (تاريخ دمشق: ج ٢٤ ص ٢١٣).

(٣) راجع كتاب الدرّة النفيسة: ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٤) أحد ولاة العباسيّين على مصر. ولّاه الرشيد عليها سنة ١٩٣ هـ وفي أيامه توفّي الرشيد، وولي الخلافة ابنه الأمين، وبعد أن ثار جند مصر قاتلهم الحسن وأخضعهم للأمين، ثم عزله الأمين. وكانت مدّة ولايته كلّها سنة وشهرين تقريباً. توفّي بعد عام ١٩٤ هـ (النجوم الزاهرة: ج ٢ ص ٦٤١، الأعلام: ج ٢ ص ١٨٥)

(٥) انظر كتاب الدرّة النفيسة: ص ٦٤.

(٦) في تفصيل قصة استقبالها رضي الله عنها راجع المصدر السابق: ص ١٧ ـ ٢١، ومجموعة آل بيت النبي في مصر: ص ٨١ ـ ٨٢.

أحبّها الشعب المصري قبل قدومها إليه، حيث سمع عن أنبائها بالمدينة بلد الرسول صلى الله عليه وآله. وتلقّتها النساء والرجال بالهوادج والخيول مرحبّين، يهلّلون ويكبّرون. ولم يزالوا معها الى أن دخلت مصر، فأنزلها عنده كبير التجّار بمصر جمال الدين عبدالله الجصّاص، وكان من أهل الصلاح، ومن أصحاب المعروف والبرّ والصدقة والمحبة في الصالحين والعلماء والسادة الأشراف، فنزلت عنده في داره معزّزةً مكرّمةً مبجّلة، فأقامت بها عدّة شهور، والناس يفدون إليها زرافات ووحداناً، من سائر مدن القطر، ومن جميع الآفاق، يتلمّسون بركتها ويرجون دعاءها، ويرون في إشراقتها إشراقة بيت النبوّة وعترة المصطفى صلى الله عليه وآله.

وكانت سيّدة من المصريّين تُسمّى بأُمّ هانئ، لها دار رحيبة بجهة المراغة والقبر الطويل بالمصاصة ـ أوالمنصوصة ـ فرجت من السيّدة نفيسة النزول في دارها، وكانت امرأة ورعة تقيّة صالحة، فقبلت السيّدة نفيسة وانتقلت الى تلك الدار، فلم ينقطع عنها الزوّار، وانهال عليها الناس من كلّ حدب وصوب، من طلّاب الحاجات، وراغبي الدعوات، وملتمسي النفحات والبركات، ويعودون جميعاً وقد استجاب الله دعاءها، وقضى لهم حاجتهم وكشف كروبهم.

وقد كان يجاور بيت أُمّ هانئ رجل من اليهود يقال له: أبو السرايا أيّوب بن صابر، وله بنت مُقْعَدَة، وفي يوم من الأيام توجهّت بها أُمّها إلى السيّدة نفيسة واستأذنتها في بقائها في حماها الى أن تعود من حمّامها، فتركتها في ردهة الدار ومضت إلى الحمّام، حتّى إذا جاء وقت صلاة الظهر نهضت السيّدة نفيسة لوضوئها والبنت القعيدة ترقبها، وتستشرف الى ما تصنعه السيّدة، وكان ماء الوضوء يجري في مجرىً بالردهة الى بئر تحت عتبة الدار، فألهم الله عزّوجلّ البنت أن تزحف من مكان قعدتها وتصل الى ذلك المجرىٰ زاحفةً، فأخذت في تقليد السيّدة فيما تفعله من غسل وجهها ويديها ورجليها، وما أن غسلت رجليها من ذلك الماء الذي يسيل في المجرى من فضل وضوء السيّدة، حتّى كأنّما نشطت من عقالها، وزال عنها كساحها، وشفاها الله سبحانه وتعالى ممّا بها، فنهضت قائمةً مسرعةً في الخروج إلى الدرب خارج الدار، تلعب مع لدّاتها، والسيّدة في شغل عنها بعبادتها وصلاتها، فلمّا حضرت أُمّ البنت إذيها تجدها وقد زال عنها ما أقعدها، وهي قائمة على قدميها، كأنّه لم يكن بها شيء، فاحتضنتها وهي نشوانة مأخوذة ممّا رأت من شفاء بنتها وعافيتها، فسألتها عن أمرها، فأخبرتها بجليّة الأمر، وما كان من غسلها رجليها من فضل ماء الوضوء، فبكت الأُمّ بكاءً

شديداً. وقالت: لا ريب في أنّ دين تلك السيدة الشريفة هو الدين الصحيح. ودخلت على السيدة في خشوع وخضوع، وإجلال واحترام، ووقفت بين يديها تحيّيها. ثم نطقت بالشهادتين. وأخلصت لله ربّ العالمين. وشكرت للسيّدة صنيعها وجميلها. وحمدت الله عزّوجلّ على أن أخرجها من الظلمات إلى النور. وأنقذها من الضلال إلى الهدى[١].

ولمّا حضر والد البنت. وكان من كبار قومه وسراة عشيرته. ورأى وحيدته وقد تعافت. فصحّ جسمها. واستقام عودها. وذهبت شكاتها. فأخذته الأريحية واستطاره الفرح. فأخذ يصفّق ويرقص. ولم يلبث أن نبّأته أُمّها بخبرها. وما أحاطها من بركة السيدة الشريفة جارتهم. فما أن انتهت زوجه من إخباره حتّى رفع بصر ومدّ يده إلى السماء. وقال: سبحانك ربّنا. تهدي من تشاء وتضلّ من تشاء. اللّهمّ إنّي أُشهدك أنّ هذا الدين هو الدين الصحيح. والدين عند الله الاسلام. وأنّه لا دين غير الإسلام.

ثم توجّه من فوره الى دار السيّدة نفيسة واستأذنها في الدخول. فأذنت له. فكلّمها وهي من وراء حجاب. وبعد أن حيّاها وشكر لها صنيعها قال: سيّدتي ارحميني وتشفّعي لي. واشفعي في مَن هو في ضلال الكفر قد تاه. ومن الدين الحقّ أبعده الكفر وأقصاه. فرفعت السيّدة نفيسة طرفها إلى السماء. ودعت الله عزّوجلّ له بالهداية. فما أن انتهت من دعائها حتّى نطق أبو السرايا بالشهادتين. وسرى الخبر في تلك الجهة. فأسلم أهلها. وكانوا أكثر من سبعين بيتاً من اليهود[٢].

ثم استأذن أبو السرايا من السيّدة نفيسة أن تنتقل الى دار له بدرب الكرويين المعروف الآن بالحسينية. وهذه الدار باقية للآن. وكذلك الحجرة التي كانت تتعبدّ فيها باقية. وهي محلّ إجلال وإكبار. ولا يدخلها إلّا من عهد إليه بنظافتها.

وسأعود بعد قليل إلى الكلام عن كرامات السيّدة الصالحة. على أنّه ماكادت تذاع تلك الكرامة حتّى هرع إليها القوم من جميع الجهات يلتمسون بركاتها ودعواتها. فتكاثرت الجموع على بابها. وضاقت بهم الدار بما رحبت. ففكّرت مليّاً في مغادرة مصر حيث تعود ثانياً الى مدينة الرسول ﷺ. لتقضي بقية عمرها في هدوئها وعبادتها ومناجاة بارئها. وتلتزم

---

(١) خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٦. تحفة الأحباب: ص ١٠٥ ـ ١٠٦. مجموعة آل بيت النبي: ص ٨٥.

(٢) راجع خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٦.

حرم جدّها المصطفىٰ صلى الله عليه وآله. فاشتدّ ذلك علىٰ أهل مصر. وشقّ عليهم أن تفارقهم وقد لمسوا نفحاتها. وعرفوا هداها وتقواها. وما أفاضه الله تعالىٰ عليها من فيوضات. وما يحيطه بها من تجلّيات ومشاهدات. فالتمسوا منها العدول عن عزمها. ورجوها البقاء بين ظهرانيهم. فأبت عليهم طلبهم. وصارحتهم بأنّها تريد انفرادها لعبادة ربّها. ولا يشغلها منهم شاغل. ولمّا رأوا منها إصراراً علىٰ مغادرة الديار. ولّوا وجوههم نحو والي مصر السري بن الحكم بن يوسف[1].

وكان آل السري يُكبرون السيدة نفيسة ويعظّمونها. ويكثرون من زيارتها وتعهّدها. ويعرضون عليها خدمتهم إيّاها. وما أن ذهبت جمهرة من محبيها إلى السري يخبرونه بعزمها. ويسألونه أن يتوسّل إليها في العدول عن عزمها. فانتقل السري إليها يستعطفها ويرجو بقاءها بمصر. فقالت: إنّي كنت قد اعتزمت المقام عندكم. غير أنّي امرأة ضعيفة. وقد تكاثر الناس حولي. وأكثروا من زيارتي. فشغلوني عن أورادي. وجمع زادي لمعادي. غير أنّ منزلي هذا يضيق بهذا الجمع الكثيف والعدد الكثير. وقد زاد حنيني الى روضة جدّي المصطفىٰ صلى الله عليه وآله. فقال لها السري: يا ابنة رسول الله. إنّي كفيل بإزالة ما تشكين منه. وسأُمهّد لك السبيل. وأُهيّئ لك ما فيه راحتك ورضاك. أمّا ضيق المنزل فإنّ لي داراً واسعة بدرب السباع. وإنّي أُشهد الله تعالىٰ أنّي قد وهبتها لك. وأسألك أن تقبليها منّي. ولا تخجليني بردّها عليّ. فقالت بعد سكوت طويل: إنّي قد قبلتها منك. ثم قالت: يا سري. كيف أصنع بهذه الجموع الكثيرة. والوفود الغفيرة؟ فقال: تتّفقين معهم علىٰ أن يكون للزوّار في كلّ جمعة يومان. وباقي الأسبوع تتفرّغين لعبادتك وخدمة مولاك. فاجعلي يومي السبت والأربعاء للناس. فقبلت منه

---

(١) السريّ بن الحكم بن يوسف. مولىٰ بني ضبة. وأصله من بلخ. وقد ولي إمرة مصر بإجماع الجند وأهل مصر على الصلاة والخراج معاً. وذلك في مستهلّ شهر رمضان سنة مائتين بعد عزل المطلب بن عبدالله الخزاعي عنها. وقد سكن العسكر علىٰ عادة أمراء مصر.

وكان السريّ أميراً جليلاً. معظّماً في الدول وفي الأعمال. وتنقّل في البلاد. وقد توفّي سنة خمس ومائتين. فولي ابنه محمد إمرة مصر بعد وفاة أبيه. فكان علىٰ غرار أبيه الى أن توفّي سنة ست ومائتين. فوليها أخوه عبدالله بن السريّ. وقد بقي في ولايته إلى أن عزله المأمون في ربيع الأول سنة إحدى عشرة ومائتين. (منه)

ذلك، وانتقلت الى داره، وخصّصت للزيارة يومي السبت والأربعاء من كلّ أسبوع[١].

أولياء الله وكرامتهم:

وعن رسول الله ﷺ قال:

«يقول الله: من عادىٰ لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بمثل أداء ماافترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتّىٰ أُحبّه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما ترددّت عن شيء أنا فاعله ترددّي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولابدّ له منه»[٢].

ولقد آمن أولياء الله بالله، ووالوه، فأحبّوا ما أحبّ وأبغضوا ما أبغض، ورضوا بما يرضىٰ به وسخطوا علىٰ ما يسخط، وأمروا بما أمر ونهوا عمّا نهىٰ، وآمنوا برسوله، واتّبعوا النور الذي أُنزل معه ظاهراً وباطناً، فكانت لهم كراماتهم.

والكرامة: أمر خارق للعادة، يكرم الله بها من يشاء من أوليائه وأصفيائه، ويحبو بها عترة نبيّه ﷺ، علىٰ أن تكون غير مقرونة بدعوى النبوّة، وفيها تثبيت لهم، وإظهار لفضل الله عليهم، ونفحته لهم، ولمحته بهم[٣].

وهي جائزة عقلاً، إذ هي من جملة الممكنات التي لا تستحيل على القدرة الإلهية، وهي مظهر من مظاهر رضوان الله وزلفاه[٤].

وقد غمر الله سبحانه وتعالىٰ آل بيت نبيّه ﷺ بفضله، وشملهم بفيوضاته، فظهرت

---

(١) خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٧ـ٣٢٨، الدرة النفيسة: ص ١١٧.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ: ج ٣ ص ٣٤٦ وج ١٠ ص ٢١٩، والزبيدي في الاتحاف: ج ٨ ص ٤٧٧.

(٣) انظر أنوار الملكوت في شرح الياقوت للعلّامة الحلّي: ص ١٨٦، وكرامات الأولياء للغزالي: ص ٢١٨.

(٤) راجع أنوار الملكوت: ص ١٨٧ وقال: ودليلنا أنّه غير مستحيل ولا قبيح، فجاز إظهاره، أمّا عدم استحالته فضروري لأنّه ممكن والله قادر علىٰ جميع الممكنات، وأمّا عدم قبحه فإنّ جهة قبحه هو الكذب، وهو منفي هنا».

على أيديهم الكرامات، وتتابعت منهم على الناس البركات والنفحات، من إجابة الدعوات، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات.

وقد اتّفق علماء السنّة على جوازها، وأنّ الله عزّوجلّ اختصّ بها من أحبّ من عباده وأوليائه وأصفيائه، وآل بيت نبيّه الطاهرين، وعترة رسوله المباركين، وآية ذلك ما ورد في كتاب الله تعالى، قال عزّ شأنه ﴿ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1]. إذ لا خوف عليهم من لحوق مكروه، ولاهم يحزنون من فوات مطلوب، فالله يتولّاهم، وينجز لهم طلبهم ولوكان خارقاً للعادة، فهم يتولّونه بطاعته، ويتولّاهم بكرامته ونعمته.

وقال تعالى: ﴿كلّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّى لك هذا، قالت هو من عندالله إنّ الله يرزق من يشاءبغير حساب﴾[2] إذ كانت تأتيها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وهذا خارق للعادة، إرادةً لرفعة شأنها، ولذا دعا زكريا ربّه بمكانها الطاهر ليرزقه ولداً في شيخوخته؛ كرامةً له، وكرامة مريم على ربّها.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلّا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربّكم من رحمته ويهيّئ لكم من أمركم مرفقاً﴾ الى قوله تعالى: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً﴾[3] فما شملهم به من رعايته الى بقائهم تلك السنين الطوال في نومهم سالمين، وقد خرجوا سالمين، ذلك كلّه أمر خارق للعادة، على أنّ كرامة الولي هي آية معجزة النبي صلى الله عليه وآله.

ولله درّ البوصيري حيث يقول:

والكرامات منهم معجزات ... حازها من نوالك الأولياء[4]

وفي أولياء الله يقول فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد بخيت: يقول الله تعالى: ﴿ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتّقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ وقال تعالى: ﴿الله

---

(١) سورة يونس: ٦٢.

(٢) سورة آل عمران: ٣٧.

(٣) الكهف: ١٦ ـ ٢٥.

(٤) أنشد البيت الشبلنجي في نور الأبصار: ص ١٢٩

وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ فأنت ترى أن الله تعالىٰ قد بيّن لنا أنّه سبحانه وتعالىٰ له أولياء، وأنّ هؤلاء الأولياء هم الذين آمنوا وكانوا يتّقون. وبيّن حالهم في الدنيا فقال: ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي أنّهم بلغ من أمرهم في معاملاتهم وكافّة شؤونهم أنّ شيئاً ممّا قدّر لهم لا يفوتهم. ولا يحزنون علىٰ شيءٍ قد فاتهم. لأنّهم يعلمون حقّ العلم أنّ كلّ ما قدّره الله لهم، وعلم أن يكون لهم، لابدّ أن يصل إليهم، فلا يفوتهم منه شيء، فهم مصدّقون بالقضاء والقدر، فإن فاته شيء ممّا يطلبه لا يحزن علىٰ فوته؛ لاعتقاده أنّه لم يقدّر له، ولو قدّر له ما فاته. كما أنّ ما وصل إليه إنّما وصل بقضاء الله وقدره، فهو واثق بالله تمام الوثوق. ولذلك وعدهم بأنّ لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ووصفهم أيضاً بأنّه يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب إيمانهم، كما يشعر بذلك تعليق الحكم بإخراجهم بالإيمان الذي استفيد من الموصول والصلة.

فالوليّ شرعاً بمقتضىٰ هاتين الآيتين هو من يتولّى الله تعالىٰ، ويتّخذه مولىً له، فيؤمن به ويتّقيه، ويمتثل أوامره، ويجتنب نواهيه. ويتولّاه الله تعالىٰ بأن يوفّقه فيخرجه من ظلمات الجهل الى نور العلم. فكلّ مؤمن له قسط من الولاية علىٰ قدر قسطه من إشراق نور الإيمان في قلبه وتقواه. أوشرح صدره للإيمان والاسلام.

وإذاً فكلّ مؤمن وليّ، وإنّما تختلف درجات الولاية علىٰ حسب اختلاف درجات التقوىٰ. فمن المؤمنين من يتّقي الخلود في النار بأن يكون مؤمناً عاصياً. ومنهم من يتّقي دخول النار بأن يكون مؤمناً مطيعاً لله في كلّ أعماله، مراقباً له تعالىٰ في سرّه وجهره، معتقداً تمام الاعتقاد أنّ الله تعالىٰ معه أينما كان. وأنّه لا يكون في شأن ولا يعمل من عمل إلّا ولله معه حين يفيض في الشأن أوالعمل، راجياً ثواب الله تعالىٰ، خائفاً من عقابه.

وقد عرّف علماء الكلام[1] الوليّ بأنّه هو العارف بالله تعالىٰ وصفاته، المواظب على الطاعات، والمجتنب للمعاصي، المعرض عن الانهماك في اللذّات والشهوات، فهو القائم بحقوق الله وحقوق العباد حسب الإمكان.

ولذلك قال عبدالسلام صاحب «الجوهرة» في الوليّ: إنّه هو من تولّى الله تعالى أمره، فلم يكله الى نفسه ولا الى غيره لحظة. أوالذي يتولّىٰ عبادة الله تعالى وطاعته، فعبادته تجري

---

(١) انظر شرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني: ج ٥ ص ٧٢.

على التوالي، من غير أن يتخلّلها عصيان. وكِلَا المعنيَيْن واجب تحقّقه حتّىٰ يكون الوليّ وليّاً عندنا في نفس الأمر[١].

وهذا الوليّ بالمعنى الأخصّ، وهو المراد من قول صاحب الجوهرة:

وأثبتن للأوليا الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه[٢]

فهو الوليّ الذي تظهر علىٰ يديه الكرامة.

وأمّا الوليّ بالمعنى الأعمّ، فهو الذي يشمل كلّ مؤمن، ويتحقّق فيه المعنيان متىٰ تحقّق فيه الإيمان المنجي من الخلود في النار، سواء انضمّ معه الإيمان والتقوى المنجيان من الدخول في النار أم لا، بخلاف الوليّ بالمعنى الأخصّ الذي تقدّم.

وقال علماء الكلام[٣]: يجب الاعتقاد بأنّ للأولياء كرامة حال حياتهم في الدنيا، وبعد موتهم يوم القيامة. والمراد أنّه يجب علىٰ كلّ مكلّف أن يعتقد الكرامة، أي: حقيقتها، بمعنىٰ: جوازها ووقوعها لهم، كما ذهب إليه جمهور أهل السنّة. ومعنى الكرامة: أمر خارق للعادة ـ عادة البشر ـ غير مقرون بدعوى نبوّة، ولا هو مقدّمة لها، يظهر علىٰ يد عبدٍ ظاهر الصلاح، ملتزم لمتابعة نبيٍّ كُلِّف بشريعة، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح، علم بها أولم يعلم بعدم الاقتران المذكور عن المعجزة، فلا تلتبس بها وينفى مقدّمتها عن الإرهاص، وما يظهر علىٰ يد الأنبياء قبل النبوّة، كتظليل الغمام لنبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وأمّا الدليل علىٰ جواز وقوع الكرامات للأولياء بعد مماتهم، فهو ما نقله الحافظ عبدالعظيم المنذري في كتاب الترغيب والترهيب[٤] حيث قال عن ابن عباس رضي الله عنهما: ضرب بعض الصحابة خباءه علىٰ قبرٍ، وهو لا يحسب أنّه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتّىٰ ختمها، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «هي المانعة، هي المنجية من عذاب القبر» رواه

---

(١) الجوهرة: ص ١٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر أنوار الملكوت في شرح الياقوت: ص ١٨٦ ـ ١٨٧، والرسالة القشيرية: ج ٢ ص ٦٦٠ ـ ٦٦٢، وشرح المقاصد: ج ٥ ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٤) الترغيب والترهيب: ج ٢ ص ٣٧٧.

الترمذي[١].

ويقول الحموي: وفي هذا دليل على وقوع الكرامة بعد الموت بتقصيره ﷺ، حيث أقرّ قراءة الميت سورة الملك وقال: «هي المانعة هي المنجية من عذاب القبر».

ويقول العلّامة التفتازاني: إنّ ما يظهر من الخوارق بعد موت الأنبياء يكون كرامةً لهم لا معجزة[٢].

وعلىٰ ذلك، فما يظهر من التصرّفات علىٰ يد الأولياء، ولا يخالف الدين. لأنّ هذا التصرّف الذي يُنسب للأولياء هو نوع من الكرامات، وهو فعل الله وخلقه، يظهره الله إكراماً لهم، تارةً بإلهام، وتارةً بمنام، وتارةً بدعائهم، وتارةً بفعلهم واختيارهم، وتارةً بغير اختيار ولا قصد ولا شعور منهم، بل قد يحصل من الصبي المميّز[٣]، وتارةً بالتوسّل إلى الله تعالىٰ بهم في حياتهم وبعد مماتهم ممّا هو يحكى في القدرة الإلهية، ولا يقصد الناس بسؤالهم ذلك قبل الموت وبعده نسبتهم إلى الخلق والإيجاد والاستقلال بالأفعال، فإن هذا لا يقصده مسلم، ولا يخطر ببال أحدٍ من العوام فضلاً عن غيرهم، فصرف الكلام إليه ومنعه من باب التلبيس في الدين، والتهويش علىٰ عوام الموحّدين، فلا يظنّ بمسلمٍ، بل ولا بعاقل، توهّم ذلك فضلاً عن اعتقاده، وكيف بالكفر أوبمخالفة القرآن علىٰ من اعتقد ثبوت التصرّف لهم في حياتهم وبعد مماتهم، حيث كان مرجع ذلك كلّه الى قدرة الله تعالىٰ خلقاً وإيجاداً.

أمّا ما ورد في الآثار من الكرامات، فما ظهر عن الخلفاء الراشدين، فإنّ الصدّيق أبابكر ﷺ لمّا حُملت جنازته الى باب قبر النبي ﷺ، ونودي: السلام عليك يا رسول الله، هذا أبوبكر بالباب، فإذا بهاتفٍ يهتف من القبر: أدخلوا الحبيب إلى الحبيب[٤].

وأمّا أبوحفص عمر ﷺ، فقد ظهرت له كرامات كثيرة، فإنّه قد بعث جيشاً وأمّر عليه رجلاً يدعىٰ: سارية بن الحصين، فبينما عمر يخطب يوم الجمعة جعل يصيح في خطبته وهو

---

(١) سنن الترمذي: ج ٥ ص ١٥١٤ ح ٢٨٩٠.

(٢) شرح المقاصد: ج ٥ ص ٧٣.

(٣) راجع الرسالة القشيرية: ج ٢ ص ٦٦٢.

(٤) ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق: ج ١٣ ص ١٢٥ وعقّب عليه قولاً، والرازي في تفسيره الكبير: ج ٥ ص ٣٧٨، والحلبي في سيرته: ج ٣ ص ٣٩٤.

على المنبر: يا سارية الجبل. قال عليّ كرّم الله وجهه: فكتبت تاريخ تلك الكلمة، فقدم رسول مقدم الجيش، فقال: يا أمير المؤمنين، غزونا يوم الجمعة في وقت الخطبة، فهزمنا الأعداء، فإذا بصوت يقول: يا سارية الجبل، فأسندنا ظهورنا إلى الجبل، فهزم الله الكفّار، وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة هذا الصوت[١].

ويذهب بعضهم الى أنّ ذلك معجزة للرسول صلى الله عليه وآله، إذ أنّه قال لأبي بكر وعمر: «أنتما منّي بمنزلة السمع والبصر»[٢] فلمّا كان عمر بمنزلة البصر لرسول الله صلى الله عليه وآله، فلا جرم إذا قدر على أن يرى سارية وجيشه من ذلك البعد العظيم!

وكان من عادة المصريين ألّا يجرى نيلهم حتّى يلقى فيه جارية حسناء، فبعد الفتح كتب عمرو بن العاص بذلك الى عمر، فكتب عمر على خرقة: «أيّها النيل، إن كنت تجري بأمر الله فأجرِ، وإن كنت تجري بأمرك فلا حاجة بنا إليك» فألقيت تلك الخرقة في النيل، فجرى بإذن الله تعالى، ولم يقف بعد ذلك[٣].

وجاء الى عمر رسول ملك الروم، فطلب دار عمر، وقد ظنّ أنّ داره مثل قصور الملوك، فقالوا: ليس له ذلك، وإنّما هو في الصحراء يضرب اللبن، فلمّا ذهب إلى الصحراء رأى عمر وقد وضع درّته تحت رأسه ونام على التراب، فعجب الرسول من تلك، وقال: إنّ أهل الشرق والغرب يخافون من هذا الإنسان وهو على هذه الصفة!! ثم قال في نفسه: إنّي وجدته خالياً فأقتله وأُخلّص الناس منه، فلمّا رفع السيف أخرج الله عزّوجلّ من الأرض أسدين فقصداه، فخاف وألقى السيف من يده، وانتبه عمر ولم ير شيئاً، فسأله عن الحال،

---

(١) أورده محمد الجزري الشافعي في أسنى المطالب: ص ٢٦٥ وقال: روى قصّته الواحدي والبيهقي بسندٍ ضعيف.

(٢) لم نعثر على الحديث بهذا اللفظ فيما توفّرت لدينا من مصادر، لكن جاء في الرياض النضرة: ج ١ ص ٣٢٧ عنه صلى الله عليه وآله: «متّعنا بنفسك يا أبابكر، أما تعلم أنّك عندي بمنزلة سمعي وبصري». وفي: ج ٢ ص ١١٥ عن ابن سعد: أنّ النبي قال لأبي بكر يوم بدر وقد أراد أن يتقدم في أول الخيل فمنعه: «أما تعلم أنّك عندي بمنزلة سمعي وبصري». ثم قال: أخرجه الواحدي وأبو الفرج.

(٣) انظر تاريخ الخلفاء: ص ١٢٧.

فذكر له الواقعة. وأسلم[1].

وكان لعليٍّ مولىً وقد سرق ـ وكان عبداً أسود ـ فأُتي به الى علي فأقرّ، فقطع يده، فلقيه سلمان الفارسي وابن الكواء، فقال: قطع يدي أميرالمؤمنين ويعسوب المسلمين، وختن الرسول وزوج البتول. قال ابن الكواء: قطع يدك وتمدحه؟! فقال: ولِمَ لا أمدحه وقد قطع يدي بحقّ، وخلّصني من النار، فأخبر سلمان عليّاً بذلك، فدعا الأسود ووضع يده على ساعده، وغطّاه بمنديل ودعا بدعوات، فإذا بصوتٍ من السماء: أن ارفع المنديل عن اليد، فرفعناه فإذا اليد قد برئت بإذن الله تعالى وجميل صنعه[2].

ولّما طُعن الخليفة سيدنا عثمان عليه السلام، كانت أوّل قطرة من دمه وقعت على المصحف، على قوله تعالى: ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾[3].

أمّا سائر الصحابة فأحوالهم في هذا الباب كثيرة[4]، وقد اكتفينا بهذا القدر.

وثمّة دلائل عقلية وقطعية على جواز الكرامات من وجوه:

أوّلاً: أنّ العبد وليّ الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[5]، والربّ وليّ العبد، قال عزّوجلّ: ﴿الله وليّ الذين آمنوا﴾[6] فثبت أنّ الربّ وليّ العبد، وأنّ العبد وليّ الربّ، وأيضاً الربّ حبيب العبد، والعبد حبيب الربّ، قال الله تعالى: ﴿يحبّهم ويحبّونه﴾[7] وقال: ﴿والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله﴾[8] وقال: ﴿إنّ الله يحبّ

---

(١) انظر المصدر السابق: ص ١٢٩.

(٢) رواه ابن شاذان في الفضائل: ص ١٨١، والعلّامة المجلسي في البحار: ج ١٤ ص ٢٨١ عن الخرائج.

(٣) أورد الخبر الحاكم النيسابوري في المستدرك: ج ٣ ص ١٠٣ عن ابن عباس، ثم قال: قد ذكرت الأخبار المسانيد في هذا الباب في كتاب مقتل عثمان، فلم استحسن ذكرها عن آخرها في هذا الموضع، فانّ في هذا القدر كفاية. فأمّا الذي ادّعته المبتدعة من معونة أميرالمؤمنين علي ابن أبي طالب على قتله فإنّه كذب وزور، فقد تواترت الأخبار بخلافه.

(٤) راجع الرسالة القشيرية: ج ٢ ص ٦٦٠ ـ ٧١٣ تجد فيها ما يشبع مبتغاك على هذا الصعيد.

(٥) سورة يونس: ١٠.

(٦) سورة البقرة: ٢٥٧.

(٧) سورة المائدة: ٥٤.

التوّابين ويحب المتطهّرين﴾[٩].

وإذا ثبت هذا نقول: إنّ العبد إذا بلغ في الطاعة الى حيث يفعل كلّ ما أمره الله، وكلّ ما فيه رضاه، وترك كلّ ما نهى الله وزجر عنه. فكيف يبعد أن يفعل الربّ الرحيم الكريم مرّةً واحدةً ما يريده العبد، بل هو أولىٰ؛ لأنّ العبد مع ضعفه وعجزه لمّا فعل كلّ ما يريده الله ويأمر به، فلأن يفعل الربّ الرحيم القدير به مرّةً واحدةً ما أراده العبد كان أولىٰ. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم﴾[١٠].

ثانياً: علىٰ أنّه لو امتنع إظهار الكرامة، لكان ذلك؛ إمّا لأنّ الله تعالى ليس أهلاً لأن يفعل مثل هذا الفعل، أولأنّ المؤمن ليس أهلاً لأن يعطيه الله مثل هذه العطيّة. والأوّل قدح في قدرة الله تعالىٰ وهو كفر، والثاني باطل، فإنّ معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله، وأحكامه وأسمائه، ومحبّة الله وطاعته، والمواظبة علىٰ ذكره وتقديسه، وتمجيده وتهليله، أشرف من إعطاء رغيف واحد في مفازة، أوتسخير حيّة أوأسد، فلمّا أعطى المعرفة والمحبّة والذكر والشكر من غير سؤال، فلأن يعطيه رغيفاً في مفازةٍ، أويسخّر ما يسخّره أقرب، ولا بُعد فيه.

ثالثاً: وقد قال النبي صلى الله عليه وآله حكايةً عن ربّ العزّة:

«ما تقرّب عبد إليّ بمثل أداء ما افترضت عليه، فلا يزال يتقرّب إليّ بالنوافل حتّىٰ أُحبّه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً، ولساناً وقلباً، ويداً ورِجْلاً، بي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يمشي»[١١].

وهذا الخبر يدلّ علىٰ أنّه لم يبق في سمعه نصيب لغير الله تعالىٰ، ولا في بصره، ولا في سائر أعضائه، إذ لو بقي هناك نصيب لغير الله جلّ شأنه لما قال: أنا سمعه وبصره، فإذا

---

(٨) سورة البقرة: ١٦٥.

(٩) سورة البقرة: ٢٢٢.

(١٠) سورة البقرة: ٤٠.

(١١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء: ص ١، والبيهقي في السنن الكبرىٰ: ج ٣ ص ٣٤٦ وج ١٠ ص ٢١٩، والزبيدي في الاتحاف ج ٨ ص ٤٧٧ وج ٩ ص ٥٦٩، والمتقي الهندي في الكنز: ج ١ ص ٢٣١ ح ١١٥٨ عن ابن السني في الطبّ، ويمثله ح ١١٥٧ عن أحمد والحكيم وأبي نعيم في الطب و«ق» في الزهد وابن عساكر.

ثبت هذا فنقول: لا شكّ أنّ هذا المقام أشرف من تسخير العيّة والسبع، وإعطاء الرغيف وعنقود من العنب أوشربة من الماء، فلمّا أوصل الله برحمته عبده الى هذه الدرجات العالية. فأيّ بُعدٍ في أن يعطيه رغيفاً واحداً أوشربة ماءٍ في مفازة؟

رابعاً: قال رسول الله ﷺ حاكياً عن ربّ العزّة:

«من آذىٰ لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة»[١]

فجعل إيذاء الوليّ قائماً مقام إيذائه. وهذا قريب من قوله تعالى: ﴿إنّ الذين يبايعونك إنّما يبايعون الله﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾[٣] وقال: ﴿إنّ الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة﴾[٤] فجعل بيعة محمد ﷺ بيعةً مع الله عزّوجلّ، ورضاء محمد ﷺ رضا الله جلّ جلاله، وإيذاء محمد ﷺ إيذاء الله سبحانه. فلا جرم إذا كانت درجة محمد ﷺ أعلى الدرجات، وكان واصلاً الى أبلغ الغايات.

فكذا هنا، لمّا قال: «من آذىٰ لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة» فدلّ ذلك علىٰ أنّه تعالىٰ جعل إيذاء الوليّ قائماً مقام إيذاء نفسه، ويتأكّد هذا بالخبر المشهور أنّه تعالىٰ يقول يوم القيامة:

«مرضت فلم تعدني، واستسقيتك فما سقيتني، واستطعمتك فما أطعمتني، فيقول: يا ربّ كيف أفعل هذا وأنت ربّ العالمين؟ فيقول: إنّ عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنّك لو عدته لوجدت لذلك عندي، وكذلك في السقي والإطعام»[٥].

فدلّت هذه الأخبار علىٰ أنّ أولياء الله يبلغون إلى هذه الدرجات، فأيّ بُعدٍ في أن

---

(١) تعدّدت ألفاظ الحديث الشريف الذي أخرجته كتب الفريقين، فبعضها بلفظ «من أهان»، وبعضها: «من عادىٰ..»، وأخرىٰ: «من استذلّ..»، ورابعة «من أذلّ»، وهو جزء من الحديث المتقدّم. فراجع المصادر السابقة.

(٢) سورة الفتح: ١٠.

(٣) و(٤) ـ سورة الأحزاب: ٣٦ و٥٧ على الترتيب.

(٥) أخرجه مسلم في الصحيح: ج ٤ ص ١٩٩٠ ح ٢٥٦٩. وعنه في كنز العمال: ج ١٥ ص ٨٧٤ ح ٤٣٢٧٧. ومن طرق الشيعة أيضاً راجع وسائل الشيعة: ج ٢ ص ٦٣٥ ح ١٠ و١١.

يعطي الله تعالىٰ وليّاً من أوليائه كسرة خبز أوشربة ماء، أويسخّر له كلباً أوذئباً، أويطوي له أرضاً، ويقرّب منه بعيداً؟

خامساً وأخيراً[١]: فإنّ الكرامة مبنية على القوانين العقلية الحكيمة. فإنّ جوهر الروح ليس من جنس الأجسام الكائنة الفاسدة، المتعرّضة للتفرّق والتمزّق، بل هو من جنس جواهر الملائكة وسكّان عالم السماوات، ونوع القدّيسين المطهّرين، إلّا أنّه لمّا تعلّق بهذا البدن، واستغرق في تدبيره، صارت في ذلك الاستغراق الى حيث نسي الوطن الأول والمسكن المتقدّم، وصار بالكلّية متشبهاً بهذا الجسم الفاسد، فضعفت قوّته، وذهبت مكنته، ولم يقدر على شيء من الأفعال العظيمة.

أمّا إذ استأنست بمعرفة الله ومحبّته، وقلّ انغماسها في تدبير هذا البدن، وأشرقت عليها أنوار الأرواح السماوية العرشية المقدّسة، وفاضت عليها من تلك الأنوار أضواؤها القدسية، قويت على التصرّف في أجسام هذا العالم، مثل قوّة الأرواح الفلكية على هذه الأعمال، وذلك هو الكرامات.

وفيه لمحة رائعة، وهو: أنّ الأرواح البشرية مختلفة بالماهية، ففيها القوية والضعيفة، وفيها النورانية والحالكة، وفيها الصافية والكدرة، وفيها الحرّة والمستعبدة، وفيها العزيزة والذليلة.

والأرواح الفلكية أيضاً كذلك، ألا ترىٰ الى جبريل عليه السلام كيف قال الله تعالىٰ في وصفه: ﴿إنّه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين﴾[٢].

وقال في قوم آخرين من الملائكة: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً﴾[٣].

فكذا هاهنا، فإذا اتّفق في نفسٍ من النفوس كونها قوية القوة القدسية العنصرية، مشرقة الجوهر، علوية الطبيعة، ثم يضاف إليها أنواع الرياضات التي تزيل عن وجهها غبرة عالم الكون والفساد، أشرقت وتلألأت وقويت على التصرّف.

---

(١) كريمة الدارين للأُستاذ أحمد فهمي. (منه)

(٢) سورة التكوير: ١٩ ـ ٢١.

(٣) سورة النجم: ٢٦.

منكرو الكرامات:

أمّا منكرو الكرامات[١] فحجّتهم ما يأتي:

(١) يقولون: إنّ ظهور الخارق للعادة جعله الله تعالى دليلاً على النبوّة. فلو أنّه حصل لغير نبيٍّ لبطلت هذه الدلالة. لأنّ حصول الدليل مع عدم المدلول يقدح في كونه دليلاً. وذلك باطل.

ويردّ الأستاذ أحمد فهمي على هذه النقطة بقوله: إنّ الناس اختلفوا في أنّه هل يجوز للوليّ دعوى الولاية؟ فقال قوم من المحقّقين: إنّ ذلك لا يجوز. فعلى هذا القول يكون الفرق بين المعجزات والكرامات: أن المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوّة. والكرامة لا تكون مسبوقة بدعوى الولاية.

والسبب في هذا الفرق: أنّ الأنبياء عليهم السلام إنّما بُعثوا إلى الخلق ليصيروا دعاةً للخلق ليخرجوهم من الظلمات إلى النور. ومن الكفر إلى الإيمان. ومن المعصية إلى الطاعة. فلو لم تظهر دعوى النبوّة لم يؤمنوا به. وإذا لم يؤمنوا به بقوا على الكفر. وإذا ادّعوا النبوّة وأظهروا المعجزة آمن القوم بهم. فإقدام الأنبياء على دعوى النبوّة ليس الغرض منه تعظيم النفس. بل المقصود منه إظهار الشفقة على الخلق حتّى ينتقلوا من الكفر إلى الإيمان.

أمّا ثبوت الولاية للوليّ فليس الجهل بها كفراً. ولا معرفتها إيماناً. فكان دعوى الولاية طلباً لشهوة النفس. فعلمنا أنّ النبيّ يجب عليه إظهار دعوى النبوّة. والوليّ لا يجوز له إظهار دعوى الولاية. فظهر الفرق.

أمّا الذين قالوا: إنّه يجوز للوليّ أن يدّعي الولاية. فقد ذكروا الفرق بين المعجزة والكرامة من وجوه:

الأول: أنّ ظهور الفعل الخارق للعادة يدلّ على كون ذلك الإنسان مبرّأً عن المعصية. ثم إن اقترن هذا الفعل بادّعاء النبوّة. دلّ على كونه صادق في دعوى النبوّة. وإن اقترن بادّعاء الولاية دلّ على كونه صادقاً في دعوى الولاية. وبهذا لا يكون ظهور الكرامة على الأولياء طعناً في معجزات الأنبياء عليهم السلام.

الثاني: أنّ النبي ﷺ يدّعي المعجزة ويقطع بها. والوليّ إذا ادّعى الكرامة لا يقطع بها.

---

(١) راجع شرح المقاصد للتفتازاني: ج ٥ ص ٧٥ ـ ٧٧.

لأنّ المعجزة يجب ظهورها، أمّا الكرامة فلا يجب ظهورها.

الثالث: أنّه يجب نفي المعارضة عن المعجزة، ولا يجب نفيها عن الكرامة.

الرابع: أنّه لا يجوز ظهور الكرامة على الوليّ إذا ادّعى الولاية، إلّا إذ أقرّ عن دعواه بكونه على دين ذلك النبي، ومتى كان الأمر كذلك صارت تلك الكرامة معجزةً لذلك النبي، ومؤكّدةً لرسالته، وبهذا التقدير لا يكون ظهور الكرامة طاعناً في نبوة النبي، بل يصير مقوّياً لها.

(٢) نمسّك المنكرون بقوله صلى الله عليه وآله. حاكياً عن ربّ العزة سبحانه:

«لن يتقرّب المتقرّبون إليّ بمثل أداء ما افترضت عليهم»[١].

فقالوا: هذا يدلّ على أنّ التقرّب إلى الله بأداء الفرائض أعظم من التقرّب إليه بأداء النوافل، ثم إنّ المتقرّب إليه بأداء الفرائض لا يحصل له شيء من الكرامات، فالتقرّب إليه بأداء النوافل أولى ألّا يحصل له ذلك.

والردّ على ذلك: أن التقرّب بالفرائض وحدها أكمل من التقرّب بالنوافل، أمّا الوليّ فإنّما يكون وليّاً إذا كان آتياً بالفرائض والنوافل، ولا شكّ أن يكون حاله أتمّ من حال من اقتصر على الفرائض، فظهر الفرق.

(٣) وتمسّكوا بقوله تعالى: ﴿وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلّا بشقّ الأنفس﴾[٢]، والقول بأنّ الوليّ ينتقل من بلد الى بلد بعيد، لا على هذا الوجه، طعن في هذه الآية الكريمة.

وأيضاً فإنّ محمداً صلى الله عليه وآله لم يصل من مكّة إلى المدينة إلّا في أيام كثيرة مع التعب الشديد، فكيف يعقل أنّ الوليّ ينتقل من بلده الى مكّة للحجّ في يوم واحد![٣]

---

(١) تقدّم تخريجه من قبل.

(٢) سورة النحل: ٧.

(٣) هذا إذا افترضنا الأمر حاصل في العصور السابقة والساحقة، أو أنّ الوليّ لم يستخدم أيّة وسيلة نقل حديثة في تنقّله بين البلدان، وإلى مكة، وإلّا مع ظهور الوسائل النقلية الحديثة والمتطوّرة، عبر طرق المواصلات المختلفة في عصرنا الحاضر، فإنّ بوسع أيّ إنسان وإن لم يكن وليّاً أن ينتقل من بلد إلى آخر، أو من قارة إلى أخرى خلال هذه المدّة اليسيرة أو أقلّ!

والردّ على ذلك: أنّ قوله تعالى: ﴿وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلّا بشقّ الأنفس﴾ محمول على المعهود المتعارف، وكرامات الأولياء أحوال نادرة، فتصير كالمستثناة من ذلك العموم.

(٤) وقالوا: إنّ هذا الوليّ الذي تظهر عليه الكرامات إذا ادّعى على إنسانٍ درهماً، فهل نطالبه بالبيّنة أو لا؟ فإن طالبناه بالبيّنة كان عبثاً؛ لأنّ ظهور الكرامات عليه يدلّ على أنّه لا يكذب، ومع قيام الدليل القاطع كيف يُطلب الدليل الظنّي؟ وإن لم نطالبه بها فقد تركنا قوله ﷺ: «البيّنة على من ادّعى، واليمين على من أنكر»[١]. فهذا يدلّ على أنّ القول بالكرامة باطل.

والردّ على البند الثالث فيه الكفاية للردّ أيضاً على هذا البند.

(٥) إذا جاز ظهور الكرامة على بعض الأولياء جاز ظهورها على الباقين، فإذا كثرت الكرامات حتّى خرقت العادة، جرت وفقاً للعادة، وذلك يقدح في المعجزة والكرامة.

والردّ على ذلك: أنّ المطيعين فيهم قلّة، كما قال تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾[٢] وكما قال إبليس: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾[٣] وإذا حصلت القلّة فيهم لم يكن ما يظهر عليهم من الكرامات في الأوقات النادرة قادحاً في كونها على خلاف العادة.

سبعة أولياء في مصر لهم الكرامة:

قيل: إنّ في مصر سبعة أولياء لهم التصرّف، ومنهم: السيّدة نفيسة رضي الله عنها، والسيّد البدوي، وإمامنا الشافعي، وقد أكرمهم الله تعالى، وأظهر خارق العادات لمن يتوسّل بواحدٍ منهم في أيّ شيء من الأشياء التي تكون كرامةً للوليّ.

---

(١) أخرج الحديث البيهقي في السنن الكبرى: ج ٨ ص ١٢٣ في باب القسامة، والدارقطني في السنن: ج ٤ ص ٢١٨ بالسند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه.

(٢) سورة سبأ: ١٣.

(٣) سورة الأعراف: ١٧.

وفي اعتقادي أنّه ليس هذا التوسّل ممنوعاً أصلاً[١]. لأنّ التوسّل بالوليّ إنّما يطلب من الله إجابة طلبه إكراماً لهذا الوليّ، لاعتقاده أنّ هذا الوليّ أقرب منه إلى الله تعالىٰ. وهذا لا فرق فيه بين الحيّ والميّت؛ لأنّ الفاعل هو الله تعالىٰ بل إنّه بعد الموت أقرب منه حال الحياة الدنيوية؛ لأنّ الروح بعد الممات غير مشغولة بتدبير شؤون البدن.

ولكن ما هي الوسيلة؟

الوسيلة جاءت في سورة المائدة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا اتّقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلّكم تفلحون﴾[٢] و«الوسيلة» و«الوصيلة» لفظان معناهما واحد. أي: ما يتوصّل به إلى المقصود.

ومعنىٰ قوله تعالى: ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾: اطلبوا ما يوصلكم إليه. فمعنى الآية: اتّقوا الله واطلبوا ما يوصلكم إليه. وتقديم «إليه» في قوله تعالىٰ: ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ لإفادة الحصر. أي: اطلبوا ما يوصل إليه وحده. لا الى غيره.

وما الذي يوصل المؤمن الى ربّه؟

أوّل ما يوصل المؤمن الى ربّه إيمانه الصادق وعمله الصالح. كذلك من الوسائل التي توصل الإنسان الى ربّه دعاء غيره له. فالإنسان إذا عمل أعمالاً. أوتخلّق بأخلاقٍ. أوأسدىٰ معروفاً. وأدّى هذا الى أن تنطلق ألسنة الناس بالدعاء له. فهذا من غير شكّ وسيلة توصل الإنسان الى ربّه. وهذا داخل في قوله تعالىٰ: ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾.

ولهذا لمّا استأذن عمر بن الخطّاب رسول الله صلى الله عليه وآله في أن يعتمر. وأذن له الرسول في أن يعتمر قال له: «لا تنسنا يا أخي من دعائك»[٣].

وفي الحديث:

«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية. وعلم ينتفع به. وولد صالح يدعو له»[٤].

---

(١) ستأتي الإشارة إليه قريباً.

(٢) الآية: ٣٥.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن: ج ٢ ص ٨١ ح ١٤٩٨. والبيهقي في السنن الكبرىٰ: ج ٥ ص ٢٥١.

(٤) أخرجه الترمذي في السنن: ج ٣ ص ٦٦٠ ح ١٣٧٦. وأبوداود في السنن: ج ٣ ص ١١٧ ح ٢٨٨٠ كلاهما عن

فهذه تدلّ على أنّ دعاء الشخص لغيره وسيلة توصل الإنسان الى ربّه، لأنّه ليس المراد بالوسيلة إليه الوسيلة الى ذاته؛ لأنّه لا وسيلة الى ذات الله. وإنّما المراد الوسيلة الى ثوابه وإلى رضاه، والذي يوصل الى ثواب الله وإلى رضاه عمله وإيمانه، أودعاء غيره له.

بقي التوسّل بذات رسول الله أوالنبيّ أو الوليّ أوالصالح، فهل هذه أيضاً وسيلة[1]؟

← أبي هريرة. ورواه الزيلعي في نصب الراية: ج ٣ ص ١٥٩ وقال: رواه مسلم وأبوداود النسائي في الوصايا، والترمذي في الأحكام والوقف.

(١) يعدّ التوسّل بأولياء الله الذين لهم كرامة عند الله سبحانه، من المسائل المعروفة والدارجة بين جميع مسلمي العالم، وذلك للأخبار الكثيرة الواردة في جوازه، بل واستحبابه. وليس هو ظاهرة غريبة وشاذّة. وقد تعارف عليه المسلمون منذ صدر الاسلام، وجرت بين الصحابة والتابعين، وتوالت حقب طويلة عليه حتّى يومنا الحاضر، بل لا تجد مسلماً ينكره، وإذا ما وجد أحد فمن غير دليل، اللّهمّ إلّا تبعاً لابن تيمية وتلامذته في القرن الثامن الهجري، وبعد قرنين جاء الشيخ محمد عبدالوهاب فاعتبر التوسّل بأولياء الله بدعةً تارة، وعبادةً أخرى!

غير أنّ باقي العلماء أكّدوا على خلاف ذلك، وأثبتوا ـ على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ـ بالدليل النقلي والعقلي على أنّ التوسّل بأولياء الله الصالحين كان أمراً متداولاً بين المسلمين على طول الأعصار والأمصار وحتّى يومنا الحاضر، وهو سنّة متّبعة في أغلب الأقطار الاسلامية.

ومن أبرز الكتب القيّمة التي خطّتها يراعة علماء مشهورين، والتي تتعرّض لمسألة التوسّل بالنبي الاكرم ﷺ وجميع الأولياء الصالحين:

١ ـ الوفا في فضائل المصطفى، للحافظ ابن الجوزي، المتوفّى سنة ٥٩٧ هـ حيث أفرد باباً كاملاً حول التوسّل بالنبي ﷺ، وآخر حول الاستشفاء بقبره الشريف.

٢ ـ مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام، لشمس الدين محمد بن نعمان المالكي، المتوفّى سنة ٦٧٣هـ. وقد نقل السمهودي في كتابه الذي أسماه: «وفاء الوفا» باب التوسّل بالنبي ﷺ عنه.

٣ ـ البيان والاختصار، لابن داود المالكي الشاذلي. وقد ذكر فيه موارد عديدة ممّا وقع من العلماء والصلحاء من الشدائد والمحن، فتوسّلوا بالرسول والتجأوا إليه ﷺ فحصل لهم الفرج واليسر.

٤ ـ شفاء السقام، لتقي الدين السبكي، المتوفّى سنة ٧٥٦ هـ، وقد تحدّث فيه عن التوسّل بالنبي ﷺ بشكل رائع وجدير بالمطالعة. من ص ١٢٠ ـ ١٣٣.

←

فهل يتوسّل الى رضاء الله وثوابه بأشخاص يرى المتوسّل أنّ لهم كرامة ومنزلة عند الله. وأنّ التوسّل بهم يوصل؟

قال بعض العلماء: إنّه يصحّ التوسّل بأشخاص الرسل والأنبياء والأولياء والصالحين، ولكن على معنى أنّ هؤلاء لهم عند الله مكانة. وأنّ الله سبحانه يخصّهم بتكريمه لهم. ومن أنواع تكريمه لهؤلاء الرسل والأنبياء والصالحين أن يثيب من يتوسّل بهم. لأنّ هذا التوسّل فيه تقديرهم وتكريمهم. والله يكرم ويرضى عن تقدير أوليائه ورسله. والتوسّل بهؤلاء الأشخاص عنوان تقدير المتوسّل بهم وتكريمه. والله سبحانه وتعالى يثيب من يكرم المقرّبين له.

ويستدلّ على هذا بأنّ عمر بن الخطّاب كان يأخذ العباس بن عبدالمطلب معه إذا أجدبت الأرض وأرادوا الاستسقاء. وكان يقول: «اللّهمّ إنّا كنّا نستسقي برسولك. ونحن الآن نستسقي بعم رسولك»[1] وظاهر هذه الكلمة أنّه توسّل بالأشخاص.

وعن ابن عمر قال: ربّما تذكّرت قول أبي طالب وأنا أنظر الى وجه النبي صلى الله عليه وآله حيث

← ٥ ـ المواهب اللدنية، لأبي العباس القسطاني، المتوفّى سنة ٩٣٢ هـ.

٦ ـ شرح المواهب اللدنية. للزرقاني المالكي المصري. المتوفّى سنة ١١٢٢ هـ. وخاصةً في الجزء الثامن منه. عند ص ٣١٧ ومابعده.

٧ ـ صلح الاخوان. للخالدي البغدادي. المتوفىّ سنة ١٢٩٩ هـ. وقد أحسن في تأليفه وتعرّضه للموضوع بعد أن جمع فيه شوارده فبلغت (٧٠) صفحة. وله أيضاً رسالة خاصة في الردّ على محمود الآلوسي البغدادي. الذي تكلّم حول موضوع التوسّل بالنبي صلى الله عليه وآله.

إنّ مطالعة سريعة في هذه الكتب. وما أوردته من استدلالات. يعطي طابعاً خاصّاً للقارئ على إجماع علماء المذاهب الاسلامية على جواز التوسّل بالنبي صلى الله عليه وآله والأولياء الصالحين. بل واستحبابه. إضافة إلى نصّ القرآن الكريم والسيرة القطعية في كل عصر ومصر على ذلك. وبنفس الوقت يكشف زيف ادّعاء المخالفين وبطلان مزاعمهم.

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: ج ٢ ص ٤٥٣ ح ٩٤٧ من كتاب الاستسقاء. والبيهقي في السنن الكبرى: ج ٣ ص ٣٥٢. والسمهودي في وفاء الوفا: ج ٣ ص ٣٧٥ عن مصباح الظلام لابن النعمان المالكي. وابن حجر في فتح الباري: ج ٢ ص ٤١٣. وأورده أيضاً ابن الأثير في أُسد الغابة: ج ٣ ص ١١١.

قال:

وأبيض يُستَسقى الغمام بوجهه كفيل اليتامى عصمةٌ للأرامل[١]

وقد روى النسائي[٢] والترمذي[٣] وغيرهما[٤]: أنّ النبي ﷺ علّم بعض أصحابه أن يدعو. فيقول:

«اللّهمّ إنّي أسألك وأتوسّل إليك بنبيّك، نبيّ الرحمة، يا محمد يا رسول الله، إنّي أتوسّل بك الى ربّي في حاجتي ليقضيها لي، اللّهمّ فشفّعه فيّ».

وهذا يدلّ على جواز التوسّل بالنبي ﷺ حيّاً وميّتاً.

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ أنّه قال:

«إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا عليّ، فإنّه من صلّى عليّ مرّةً واحدةً بها عشرةً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنّها درجة في الجنة لاينبغي أن تكون إلّا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون ذلك العبد، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له شفاعتي يوم القيامة»[٥].

ويقول بعض العلماء: إنّ معنى التوسّل بهؤلاء الأشخاص: التوسّل بجاههم عند الله، وجاههم عند الله ما هو إلّا فضل الله عليهم وإحسانه عليهم، فهو توسّل بصفاتٍ من صفات الله وإن كان ظاهره أنّه توسّل بالأشخاص.

ونعود فنقول: إنّه لا يجب الاعتقاد أنّ فلاناً بعينه وليّ، وأنّ الله أظهر الكرامة على

---

(١) انظر عمدة القاري في شرح حديث البخاري: ج ٧ ص ٣١، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٤ ص ٨٠، والسيرة الحلبية: ج ٣ ص ٢٦٣، وسيرة زيني دحلان المطبوع بهامش السيرة الحلبية: ج ١ ص ٨١، والحجّة على الذاهب الى تكفير أبي طالب: ص ٧٩.

(٢) في كتابه عمل اليوم والليلة: ص ٢٠٤.

(٣) في السنن: ج ٥ ص ٥٣١ ح ٣٥٧٨.

(٤) كابن ماجة في السنن: ج ١ ص ٤٤٠ ح ١٣٨٥، والمنذري في الترغيب والترهيب: ج ١ ص ٤٧٣.

(٥) أخرجه أبو داود في السنن: ج ١ ص ١٤١ ح ٥٢٣، والترمذي في السنن أيضاً: ج ٥ ص ٥٤٧ ح ٣٦١٤، والنسائي في السنن: ج ٢ ص ٢٥، والبيهقي في السنن الكبرى: ج ١ ص ٤٠٩ بسندهم عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

يده، فلم يقل أحد من العلماء بوجوبه على أحدٍ بحيث يكفر جاحده، بل يجوز لكلّ مسلم بإجماع الأُمة أن ينكر صدور أيّة كرامة كانت من أيّ شخص كان على التعيين، ولا يكون بإنكاره هذا مخالفاً لشيء من أُصول الدين، ولا مائلاً عن سنّة صحيحة، ولا منحرفاً عن الصراط القويم، فإنّه لم يجئ في الشرع إلّا: «أشهد ألّا إله إلّا الله، وأنّ محمداً رسول الله» ولم يقل أحد بأنّه جاء في الشرع زيادة على ذلك، وأنّ فلاناً بعينه وليّ الله.

لكن من ينكر أنّ لله أولياء معيّنين، فهذا هو المخالف للقرآن ولإجماع السنّة.

* * *

بقيت كلمة أخيرة عن زيارة القبور[1]، فهي تارةً يقصد بها الموعظة بالأموات وهذه

---

(١) لقد أفتى علماء الاسلام وفقهاء الشريعة بجواز زيارة القبور، وخاصةً قبور الأنبياء والأولياء الصالحين. استناداً إلى مجموعة من الأدلّة الشرعية من الكتاب والسنّة والإجماع والعقل والقياس. بل قد أفتى أعلام المذاهب كلّها باستحبابها وأفضليتها.

يقول ابن هبيرة (٥٦٠ هـ) في كتابه «اتّفاق الائمة»: اتّفق مالك والشافعي وأبوحنيفة وأحمد رضي الله عنهم على أنّ زيارة قبر النبي مستحبّة. (عنه كتاب المدخل لابن الحاج: ج ١ ص ٢٥٦).

وقد ألّف تقي الدين السبكي الشافعي (٧٥٦ هـ) كتاباً حافلاً في زيارة النبي الاعظم صلى الله عليه وآله وباقي الأولياء الصالحين أسماه «شفاء السقام في زيارة خير الأنام» رداً على ابن تيمية، وذكراً كثيراً من أحاديث الباب، ثم عقد باباً في نصوص العلماء من المذاهب الأربعة على استحبابها، وقال: إنّ ذلك مجمع عليه بين المسلمين.

ويقول في ص ٤٨: لا حاجة إلى تتبّع كلام الأصحاب في ذلك مع العلم بإجماعهم وإجماع سائر العلماء عليه، والحنفية قالوا: إنّ زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله من أفضل المندوبات والمستحبّات، بل يقرب من درجة الواجبات.

وفي ص ٥٩: كيف يتخيّل في أحد من السلف منعهم من زيارة المصطفى وهم مجمعون على زيارة سائر الموتى. وحكى في ص ٦١ عن القاضي عياض وأبي زكريا النووي إجماع العلماء المسلمين على استحباب الزيارة.

وعقد في ص ٧٥ وما بعدها باباً مطوّلاً في كون السفر الى الزيارة قربة، وبسط فيه، وأثبته بالكتاب والسنّة والإجماع والقياس.

←

← ويقول السيد نورالدين السمهودي (٩١١ هـ) في كتابه «وفاء الوفا»: ج ٢ ص ٤١٢ بعد ذكر أحاديث الباب: وأمّا الإجماع، فاجمع العلماء على استحباب زيارة القبور للرجال كما حكاه النووي. بل قال بعض الظاهرية بوجوبها.... وأضاف الدمنهوري الكبير وهو من كبار المتأخّرين إلى ذلك: قبور الأولياء والصالحين والشهداء. وبه قال الحافظ أبو العباس القسطلاني المصري (٩٢٣ هـ) في كتابه «المواهب اللدنية» في الفصل الثاني منه. وكذا الشربيني محمد الخطيب الشافعي (٩٧٧ هـ) في مغني المحتاج: ج ١ ص ٣٥٧.

ولا يخفى أنّ زيارة القبور تنطوي على آثار أخلاقية وتربوية جمّة، ظاهرة بالوجدان لكلّ أحد. إذ انّ مشاهدة القبور الساكنة والصامتة، وهي تضمّ في أعماقها مجموعة كبيرة من الذين عاشوا في الدنيا ثم ماتوا، ولم يصحبوا معهم شيئاً من زينتها ونعيمها، لا شك أنّ هذا يبعث فيه الزهد والتقوى. إنّ نظرة تأمّل الى مشاهد القبور وحفرها وصمتها الرهيب يرقّق قلب الانسان مهما كان قاسياً، وتدفع به إلى أن يعيد النظر في سلوكه وأعماله، وينهض فيه روح المسؤولية الشرعية التي هي على عاتقه امام الله والناس، وهذا ما يعنيه بالضبط الحديث الذي يرويه ابن ماجة في السنن: ج ١ ص ١١٣:

«زوروا القبور فإنّها تذكّركم الآخرة».

ثم إن من القبور ما تضمّ أجساد الأنبياء والمرسلين الذين حملوا على عاتقهم رسالات السماء وبلّغوها الناس، وضحّوا من أجلها بالغالي والنفيس. وأيضاً تضمّ من غيرهم من المصلحين العظماء، ممّن ساروا على نهج الأنبياء. وكانوا يحظون باهتمام واحترام المؤمنين في العالم:

من أبناء الانبياء وأحفادهم، الذين عُرفوا بالتقوى والإيمان والورع والزهد والعلم والصلاح. فكانوا محطّ أنظار الناس واحترامهم الكبير، وتجليلهم وتعظيمهم.

ومن العلماء والمفكّرين والفقهاء الورعين الذين عاشوا حياة الزهد والحرمان، وقدّموا للعالم بحوثاً قيّمة، وكتابات مشرقة، وآثاراً رائعة في مجالات العلم والمعرفة، والفقه والشريعة، والحكمة والأخلاق.... فكانوا كالشمعة تحرق نفسها لتضيء درب الآخرين.

ومن المجاهدين الثائرين على الظلم والطغيان في جميع الأعصار والأمصار.

ومن دعاة العدل والإصلاح وحقوق الإنسان، وطالبي كرامة البشر وحقوقهم المشروعة، الذين قدّموا أرواحهم قرابين لصرح العدالة والحرية وإصلاح الدين.

والناس يزورون هؤلاء باستمرار، ويذرفون عندهم الدموع الغزيرة، ويستذكرون بطولاتهم وتضحياتهم. ←

تعمّ جميع القبور والأموات، وتارةً يقصد بها الاستمداد والتبرّك بالمزور وهذا يختصّ بالأنبياء والأولياء الصالحين.

ألم يعلموا أنّ الإنسان يتأثّر بتصوّراته. وأنّ نفسه تحت قهر سلطان الوهم. فكم من إنسانٍ تحقّق أنّه سيُقتل لا محالة. فتصوّر الموت واقعاً به. فمات بسبب ذلك قبل أن يُقتل.

كذلك إذا زار الإنسان مشهد الحسين عليه السلام، واعتقد أنّه بمكانٍ طاهرٍ بين يدي ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله. استولى عليه الخشوع والخضوع. وامتلأ قلبه إخلاصاً. فيدعو الله مخلصاً موقناً بالإجابة. خصوصاً إذا اعتقد أنّ روح الحسين عليه السلام تسأل الله تعالى إجابة دعاء زائره. أليس ذلك سبباً في إجابة الدعاء وقضاء حوائج الزائرين المخلصين؟

ولا نرى مسلماً ولو عاميّاً يتوهّم، فضلاً عن أن يعتقد: أنّ لله شريكاً في خلقه. مهما اعتقد الزائر أنّ المزور أطهر منه روحاً. وأصفى نفساً. بما أعطاه الله تعالى من الكمال الإنساني.

الكرامات وروح العصر:

إنّ الكثير من المثقّفين في العصر الحاضر يمجّون ذكر الكرامات!

هكذا بدون حساب. وفي إسرافٍ مسرف.

وممّا لا شكّ فيه أنّ أتباع الوليّ ـ أينما كان. وأينما كانوا ـ يحاولون الإشادة بذكره. فيروون عنه الكرامات الكثيرة. فيصادف ذلك قبولاً وارتياحاً عند البعض. ونفوراً وإعراضاً عند الآخرين.

← ويستمدّون منهم روح الصبر والحركة والانطلاق في العمل. وبالمقابل يسعدون أرواحهم بتلاوة آيات من القرآن الكريم هدية لأرواحهم الطاهرة.

إنّ زيارة قبور هذه الشخصيات العظيمة هي بالحقيقة نوع من الشكر والتقدير لتضحياتهم وتفانيهم. والإطراء على أعمالهم وإنجازاتهم الجليلة. هذا من جهة. ومن جهة أخرى إعلام للجيل الحاضر بأن هذا جزاء الذين يسلكون طريق الحقّ والهدى والفضيلة. والتعريف بأمرهم وأعمالهم العظيمة للأجيال المتلاحقة.

لذلك يجب أن تبقى ذكرياتهم حيّة ساخنة. ونحافظ على آثارهم ومقاماتهم. ونهتمّ بقبورهم ومواضع دفنهم. ثم إقامة المهرجانات في ذكراهم. وتعريف الناس بهم وبمعتقداتهم. ودعوتهم إلى احترام مراقدهم وبقاع مدافنهم الشريفة. لتكون بالتالي رمزاً لاحترام أشخاصهم وذواتهم.

يجب أن يخضع العقل الإنساني للرسالات الإلهية، وهي التي تمدّه وترشده وتهديه، فإذا استجاب لها أمن على نفسه العثار والزلل، وإذا جمح وتأبّى عليها وقع في أغلال الغرائز، وانقلب عمله كلّه إلى استجابات مادّية تصبّ الحقائق في قوالب مادّية، وتُحيل الديانات والعقائد الى مجموعة من الصور الوثنية.

والعقل الإنساني ـ وهذا مكانه من الرسالات الإلهية ـ كثيراً ما يقوده الغرور الأخرق الى أن يقف منها موقف الحاكم المستبدّ، فيثبت من حقائقها ما يشاء، ويمحو منها ما يشاء، ويتشكّك فيما يشاء.

ومن العجيب أنّه في إتيانه ومحوه وشكّه أوتشكّكه لا يعتمد على منطقٍ واحدٍ، ولكنّه التشهّي الذي تقوده إليه الغرائز الجامحة، فتوقعه في الخبط والخلط، في الوقت الذي يزعم فيه أنّه استوىٰ علىٰ عرش المجد الفكري!

ومن هذه الحقائق التي وقف فيها ذلك الموقف، فأنكر منها أشياء، وارتاب في أشياء، وثبتت منها أشياء: المعجزات والكرامات.

ولقد وصل الأمر ببعض المنكرين للكرامات أن أنكروا كلّ المعجزات الحسّية التي ذُكرت للرسول ﷺ في السنّة الصحيحة، وفي الأخبار التي محّصها رجال الحديث، واكتفوا في المعجزات بالقرآن الكريم، نافين كلّ شيء غيره ممّا ذكرته كتب الصحاح على اختلاف أنواعها.

إنّ روح الكثيرين في العصر الحاضر تنادي بإنكار الكرامات، وتسخر في وضوح وإشارات بكلّ من يروي كرامةَ وليّ

ويقول الأُستاذ الدكتور عبدالحليم محمود في كتابه «أبوالحسن الشاذلي»:

«ومع قيام هذه المشكلة أمامي (مشكلة إنكار الكرامات) في وضوح، فإنّني لم أتردّد قط في أن أبدأ كتابي بكرامة لأبي الحسن الشاذلي، وما شككت قطّ في ثبوتها، وما شككت قطّ في صحة النقل، ثم وجدتني أنقل هذه الكرامات في مناسبة، وتلك في أُخرىٰ، ولم أجد في ضميري عتاباً، ولا في شعوري تراجعاً، ولا في ذوقي نفوراً.

لماذا لم أجد حرجاً في نقل بعض الكرامات؟ للأسباب الآتية:

(١) أنّ القرآن الكريم يحدّثنا في أُسلوب لا لبس فيه عن المعجزات التي تفضّل الله بها علىٰ رسوله وأنبيائه، ويحدّثنا عن الكرامات التي منحها سبحانه وتعالىٰ لأولياء وأصفيائه.

ألم يحدّثنا القرآن الكريم بصورةٍ لا تحتمل التأويل بأنّ عيسىٰ عليه السلام كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله؟ وأنّه كان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتىٰ بإذن الله؟[١].

ألم يحدّثنا عن سيّدنا موسىٰ بأن ألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون[٢]؟ وبأنّه أخرج يده فإذا هي بيضاء للناظرين؟[٣]

وسيّدتنا مريم، ألم تحمل بسيّدنا عيسىٰ من غير أب، خارقةً بذلك قوانين الطبيعة؟ وكانت كلّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً. قال: يا مريم أنّىٰ لك هذا؟ قالت: هو من عندالله[٤].

(٢) ثم إنّ ما نسمّيه قوانين الطبيعة، إنّما هو في الواقع عادات طبيعة، وخرقها ليس بمستحيلٍ عقلاً، وخرقها لا يترتّب عليه مستحيل، وعادات الطبيعة لا تسيطر علىٰ ربّ الطبيعة.

(٣) ثم إنّ هؤلاء الذين تجري علىٰ أيديهم المعجزات أوالكرامات لا ينسبونها لأنفسهم، وإنّما ينسبونها إلى المتفضّل الوهّاب، صاحب القدرة والقهر، إنّهم ينسبونها الى من هو علىٰ كلّ شيء قدير.

(٤) والملاحظ في منكري الكرامات علىٰ مرّ العصور: أنّهم يتميّزون بألوان الغلظة وقساوة القلب، فلا تجد منهم رقّة الشعور، ولا صفاء البصيرة، ولا ملائكية الروح، وهم إن لم يكونوا من الملاحدة، فهم من الصنف الذي لم يخالط الإيمان شغاف قلبه، وإنّما بقي صورةً عائمةً على السطح.

(٥) وجمهرة المسلمين علىٰ مرّ العصور، عامّتهم وخاصّتهم وقمتهم الشوامخ في العلم والدين، من الذين يثبتون الكرامات ويؤمنون بها».

ويضرب الدكتور عبدالحليم محمود مثلاً خاصّاً به يضيفه إلى الأسباب العامّة التي

---

(١) في سورة ال عمران: ٤٩.

(٢) في سورة الأعراف: ١١٧ وسورة الشعراء: ٤٥.

(٣) في سورة الأعراف: ١٠٨، وسورة طه: ٢٢، وسورة الشعراء: ٣٣، وغيرها.

(٤) في سورة آل عمران: ٣٧.

ذكرناها. والتي تجعله يؤمن بالكرامات. فيقول: «في فترةٍ من الفترات ابتلاني الله بموضوعٍ شقّ عليّ نفسي وعلى نفس المحيطين بي. واستمرّ الابتلاء مدّةً. كنّا نلجأ فيها إلى الله طالبين الفرج.

وذات يوم أتى عندي بعض الصالحين. وكان على علمٍ بهذا الابتلاء. وأعطاني ورقةً كُتبت فيها صيغة من صيغ الصلاة على رسول الله ﷺ وقال: اقرأها واستغرق فيها، وكرّرها منفرداً في الليل. لعلّ الله بجعلها سبباً في تفريج هذا البلاء.

واعتكفت في غرفةٍ بعد صلاة العشاء. وأضأت نور الغرفة. وأمسكت الورقة بيدي وأخذت في تكرار الصيغة. واستغرقت فيها. وإذا بي أرى فجأةً أنّ الحروف التي كُتبت بها الصيغة مضيئة. تتلألأ نوراً. ومع أنّ الغرفة كانت مضيئة. فإنّ الحروف كانت تتلألأ نوراً في وسط النور. ولم أصدّق عيني. ففمضتها وفتحتها عدّة مرّات. فكان النور على ما هو. فوضعت الورقة أمامي. ووضعت يدي على عيني أدلكهما وأدعكهما. ثم فتحت عيني. فإذا الحروف على ما هي عليه تتلألأ نوراً وتشعّ سناءً. فحمدت الله وعلمت أنّ أبواب الرحمة قد فُتحت. وأنّ هذا النور رمز لذلك. وفعلاً أزال الله الكرب. وحقّق الفرج بكرامة هذه الصيغة المباركة.

وأمر آخر من خوارق العادات شاهدته بنفسي:

في ذات صباح كنت جالساً في المنزل في غرفة المكتب؛ كعادتي. وكنت في تلك اللحظة مطأطئ الرأس. ثم رفعت رأسي ناظراً أمامي. وإذا بي أجد أمامي إنساناً. فأخذت في تأمّله دون أن أشعر قطّ بخوفٍ أوفزعٍ. كان طويلاً أقرب إلى النحافة منه إلى السمنة. يميل لونه إلى السمرة. وعلى رأسه شال أبيض. وكان في وقفته منحنياً قليلاً. وقد تأمّلنا ملابسه أيضاً في تفاصيلها وشكلها. لم يتحدّث معي ولم أتحدّث إليه. وبعد فترة ونحن على هذا الوضع أنظر إليه في تحديق. ويمدّ عينيه إليّ في نظرات ثابتة. أخذ يشفّ شيئاً فشيئاً. وألاحظ أنا في وضوح التدرّج في هذه الشفافية. وانتهت الشفافية بزواله تماماً دون أن يتحرّك من موضعه».

ويقول الدكتور عبدالحليم محمود في ختام كلامه: «هذا ما شاهدته بنفسي».

ثم يذكر أيضاً في مقدّمة كتابه عن «أبي الحسن الشاذلي»: «لقد اضطررت الى كتابته (يقصد كتاب أبي الحسن الشاذلي) اضطراراً. لقد حُملت على تأليفه حملاً. وما كان لي في

تحديد زمن كتابته من إرادة حرّة، أواختيار يسمح لي التأجيل الطويل، وسأذكر قصّة تأليفه، سواء أسخر الناس منها أم لم يسخروا، وسواء أصدّقوها أم أنكروها. إنّني أروي هنا ما وقع لي شخصياً، أرويه كما حدث دون زيادة أونقص. وما من شكّ فإنّ المنكرين والشاكّين والساخرين لا يزيدهم ذلك إلّا شكاً وإنكاراً واستمراراً في السخرية..».

ثم يتكلّم الدكتور عبدالحليم في ما صادفه في التحضير لهذا الكتاب، وطلبه المراجع من أصدقائه، كما وجد في دار العشيرة المحمدية بعض المراجع، ومنها كتاب «درة الأسرار» ثم سافر الدكتور الى عدّة أقطار، واستكمل المراجع، ثم يقول:

«ثم صرفتني الصوارف، وطويت صحف أبي الحسن، وشغلت بأُمورٍ أُخرى، ومضت الأيام والسنون وصحف أبي الحسن مطويّة، حتّىٰ إذا كانت سنة ١٩٦٢ دُعيت الى تونس أُستاذاً زائراً لمدّة شهر بجامعة الزيتونة، فتجدّدت عندي الذكريات عن أبي الحسن، وأخذت انتسّم عبيره في تونس، لقد صعدت إلى الجبل الذي كان يتعبّد به، ودخلت المغارة التي كان يعتكف بها، ونزلت الى نهاية المغارة، وجلست خاشعاً متعبّداً حيث كان يتعبّد أبوالحسن، وحيث كان يقضي الساعات الطوال ليلاً ونهاراً، وحيث كان يخلو فريداً بربّه متضرّعاً، يغلبه الشوق، وتغمره المحبّة، ويعمر قلبه اليقين، وشعرت في المغارة بطمأنينة النفس، وبالسكينة تملؤني، وبتجمّع خواطري بصورةٍ عجيبةٍ، وبالتركّز الذهني الذي يندر ويعزّ وجوده».

ثم يقول الدكتور عبدالحليم:

«وكنت في ليبيا أُستاذاً زائراً للجامعة الإسلامية هناك، وكنت قد انتهيت من إلقاء المحاضرات في البيضاء وبني غازي وطرابلس، وكنت قد اتّخذت الإجراءات للسفر حاجّاً الى بيت الله الحرام، وبينما أنا في طرابلس أنتظر أن أبحر منها إلى الأراضي المقدسة إذ بي أرىٰ فيما يراه النائم شخصاً أعرفه، اسمه «توفيق» أراه في ملابس غير ملابسه العادية، أراه يلبس ملابس شرطي، ويمسك بيده قيداً ويقولى لي آمراً: اكتب عن أبي الحسن الشاذلي، وتلكّأت في الإجابة، وأردت أن أهمل الموضوع، وأن أتحدّث معه في شيء آخر، فإذا به يهدّد بوضع القيد في يدي، وإذا به ينذر ويتوعّد، فقلت له: هل معنىٰ ذلك أن أترك ما بيدي من أعمال لأكتب عن أبي الحسن الشاذلي؟ فقال: نعم، اترك ما بيدك من أعمال واكتب عن أبي الحسن، ورضي توفيق حينما وعدت بالكتابة .... واستيقظت».

ويقول الدكتور عبدالحليم محمود:

«ثم فكّرت في كتابة كتاب عن الإيمان، وأخذت المراجع وقمت برحلةٍ مع بعض الأصدقاء، ثم نزلنا من السيارة ـ سيارة أجرة ـ أمام القرية، وعادت السيارة من حيث أتت، عادت وبداخلها المراجع! وتذكّرت: «اترك ما بيدك واكتب عن الشاذلي» وقلت في نفسي: لنكتف بهذه الدروس ولنبدأ».

هذه قصّة الدكتور عبدالحليم محمود مع أبي الحسن، سجّلها في كتابه بدون زيادة أونقص، ولك أن تستخرج منها ما تشاء. وإنّما أقول: إنّها كرامة الصوفي المجاهد العارف بالله أبي الحسن الشاذلي.

كرامات السيّدة نفيسة

في حديث للسيدّة نفيسة عن الكرامات قالت:

«شتّان بين خدع المخادعين وتضليل المضلّلين من الناس وبين كرامات الأولياء الصادقين. أُولئك الذين يخصّهم الله بتلك الكرامات لتكون برهاناً على صدقهم، وتكريماً لهم من الله، ونوراً يستضيء به من شاء أن ينسج على منوالهم؛ ليصل الى ما وصلوا إليه أوبعضه. فباب الرحمة مفتوح دائماً لعباد الله، وطريق الطاعة للقربى منه ميسَّر لكلّ من قهر نفسه وشيطانه، وهما العدوان اللدودان اللذان إذا قهرهما عبدٌ نجا وسار في الطريق المستقيم، متنقّلاً من نور الى نور، ومن مرتبة الى أُخرى، حتّى يلقى الله وهو راضٍ عنه، فتنعم روحه، ويشعّ من نعيمها بعض الكرامات لتهدي الى سواء السبيل، وليس عزيزاً على الله أن يكرم أولياءه في دنياهم وفي رزقهم جزاء ما اتّقوا وجاهدوا وصبروا.

وقد تتجلّى الكرامات في أرواحهم الطاهرة في البرزخ أكثر ممّا تجلّت في حياتهم الدنيا، حتّى يكون للكرامة أثر أبلغ في من يلمسها أويراها أويسمع عنها، فينشرح صدره، وينكبّ على طاعة ربّه.

وقد تكون تلك الكرامات بالإلهام أو في رؤيا منامية. وإذا كان الوليّ في الدرجات العليا استطاعت روحه البرزخية أن تنطق وتهدي الى ما يخيّل إلى الناس أنّها انتقلت من باب الكرامات الى باب المعجزات، وإنّ ذلك على الله يسير.

ولا يجحد كرامات الأولياء إلّا من طبع الله على قلوبهم، وأعمى أفئدتهم، فإنّها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

أمّا فيما يتعلّق بما سمّاه الناس بكراماتٍ لي فهذه ليست إلّا من قبيل النوع الذي يقود إلى الطاعة، والسير فيما يُرضي الله حتّى يصل من يشاء الله له الهداية الى منازل الصالحين».

* * *

وللسيدة نفيسة كرامات كثيرة في حياتها وبعد وفاتها. متّصلة متتالية. مترادفة متوالية. وقد ذكر الإمام ابن حجر رحمه الله نحواً من مائة وخمسين كرامة. ذكرها لا على سبيل الحصر. بل على سبيل المثال. وإنّا لنذكر بعض كراماتها في حياتها وبعد مماتها لنكشف قبساً من ساطع نورها. ولمحة من لمحات ربّها. وفيوضه عليها. وهي السيّدة كريمة الدارين. سليلة أهل البيت. ومن كراماتها:

١ ـ قال عبدالرحمان بن عمرو الأوزاعي[١] إمام الشام وفقيهها وعالمها. المتوفّى في سنة ١٥٨: «قلت لجوهرة ـ إحدى إماء الحسن ـ: هل رأيت من سيدتك الصغيرة نفيسة كرامةً؟ قالت: نعم. كنت في يوم شديد القيظ. وإذا بتنّين (ثعبان) قدجاءني. وكان معي ماء لسيدتي نفيسة. فصار ذلك التنّين يمرغ خدّه على الابريق كأنّه يتمسّح به. تبرّكاً بمائها. ثم ذهب من حيث أتى».

٢ ـ عن سعيد بن الحسن[٢]. قال: توقّف النيل بمصر في زمن السيّدة نفيسة رضي الله عنها. فجاء الناس إليها وسألوها الدعاء. فأعطتهم قناعها. فجاءوا به إلى النهر وطرحوه فيه. فما رجعوا حتّى زخر النيل بمائه. وزاد زيادةً عظيمة[٣].

٣ ـ ازدحمت الخيل على أُمها. وكانت تحملها. وهي طفله رضيع لم تتجاوز نصف حول. فأشارت وهي في حضن أُمّها بيدها الكريمة بردّ الخيل. فردّها عزّ شأنه ببركتها؛ إعلاماً بما يكون لتلك الطفلة في مستقبل أيامها من علوّ شأن ورفعة قدر.

٤ ـ كان لامرأة عجوز أربع بنات يتقوتن من غزلهنّ من الجمعة إلى الجمعة. وفي آخر الجمعة تأخذ أُمّهن العجوز غزلهنّ وتمضي به إلى السوق فتبيعه. وتشتري بنصف ثمنه كتّاناً

---

(١) ولد إمام المدرسة الأوزاعية سنة ٨٨ هـ في بعلبك. ونشأ في البقاع. وسكن بيروت وتوفّي بها. كان حافظاً فقيهاً قوياً. لا تأخذه في الله لومة لائم. صاحب عبادة وزهد. حتّى عُرض عليه القضاء فامتنع. وكانت الفتيا تدور بالأندلس على رأيه إلى زمن الحكم بن هشام. له كتاب «السنن» في الفقه. و«المسائل». توفّي سنة ١٥٧ هـ على ما في اكثر كتب التراجم. (الأعلام: ج ٣ ص ٣٢٠).

(٢) يظهر منه أنّه سعيد بن الحسن بن أحمد. أبو عثمان الحلبي. فقيه الشام في عصره. حنفي. ولد ونشأ في حلب. واستوطن دمشق. ومات بها سنة ١٢٥٩ هـ. له كتب ورسائل. (الأعلام: ج ٣ ص ٩٣).

(٣) نقله المقريزي في خططه: ج ٤ ص ٣٢٦. والسخاوي في تحفة الأحباب: ص ١٥٩ ولم ينسباه لأحد.

يغزلنه. وبنصفه الآخر ما يموّنهنّ طول الأسبوع. فأخذت العجوز يوماً ما غزلته على عادتها. ولفّته في خرقة حمراء ومضت به إلى السوق لبيعه. فبينما هي سائرة في طريقها والغزل على رأسها. إذ انقضّ طائر على رزمة الغزل بخرقتها الحمراء. واختطفها وارتفع. فوقعت المرأة مغشيّاً عليها. فلمّا أفاقت أذرت دموعها. وأسالت عينيها. واسترسلت في بكائها. ثم أخذت تقول: كيف أصنع باليتيمات. وقد أجهدهنّ الجوع. وألمهن السغب. فاجتمع القوم عليها. وسألوها عن شأنها وعمّا أبكاها. فأخبرتهم بقصّتها. فدلّوها على أن تذهب إلى السيّدة نفيسة رضي الله عنها تبثّها بثّها وحزنها. وتذكر لها أمرها. فينفّس الله ما بها. ويزيل غماءها.

فذهبت إليها لوقتها. فأخبرتها بقصّتها وما جرى لها. وما أصاب بناتها من جوع. وسألتها الدعاء. فأشفقت عليها السيّدة نفيسة ورثت لها ولبناتها. ثم رفعت السيّدة نفيسة ببصرها إلى السماء وقالت: يا من علا فقدر. وملك فقهر. اجبر من أمتك هذه ما انكسر. فإنّها وبناتها من خلقك وعيالك. يا أرحم الراحمين.

ثم قالت للعجوز: اقعدي. فإنّ الله بعباده رحيم. وهو على كلّ شيء قدير. فجلست المرأة بالقرب من الباب. وفي قلبها من جوع بناتها التهاب.

فلم تمض ساعة حتّى أقبل جماعة يطرقون باب السيّدة نفيسة ويستأذنون في الدخول. فأذنت لهم. فدخلوا وسلّموا عليها وهي من وراء حجاب. فسألتهم عمّا أقدمهم وعن أمرهم. فقالوا: إنّ لنا لأمراً عجباً. نحن قوم تجّار. ولنا مدّة ونحن سائرون في البحر في سلامة وأمان. فلمّا وصلنا إلى قرب بلدكم انثغرت في مركبنا ثغرة. وفُتحت فيها فتحة. فدخل فيها الماء وأشرفنا على الغرق. فجعلنا نسدّ تلك الثغرة فلم تنسدّ. فاستغثنا بالله تعالى. وضرعنا إليه وتوسّلنا بك إليه. فإذا بطائر ألقى إلينا خرقةً فيها غزل من الكتّان. فوضعناها في تلك الفتحة. فانسدّت بإذن الله تعالى وببركتك. وقد جئنا إليك بخمسمائة درهم فضة شكراً لله تعالى على نجاتنا وسلامة مركبنا.

وعند ذلك بكت السيّدة نفيسة رضي الله عنها ورفعت بصرها إلى السماء وقالت: إلهي ما أرأفك بخلقك! وألطفك بعبادك! فلك الحمد الجميل والشكر الجزيل.

ثم نادت العجوز. فأقبلت مسرعةً. فقالت لها سيدة الدارين: بكم تبيعين غزلك كلّ جمعة؟ فقالت: بعشرين درهماً. فقالت: أبشري. فإنّ الله تعالى عوّضك عن كلّ درهم خمساً وعشرين درهماً!

ثم قصّت عليها قصّة ذلك التاجر، ودفعت إليها ذلك المبلغ، فأخذته وهي تضرع الى ربّها بحمدها وثنائها. وتنسكر للسيّدة بركتها ونفحتها. ورجعت الى بناتها وقد استطارها الفرح، فأخبرتهنّ بما جرىٰ. وكيف أنّ الله تعالىٰ ردّ لهفتها ببركة السيّدة نفيسة رضي الله عنها[١].

٥ ـ تزوّج رجل من أهل المغافر بامرأةٍ ذمّيةٍ من أقباط مصر، فجاء منها بولدٍ، فأُسر في بلاد العدو. فجعلت المرأة تذهب إلى الكنائس والأديار تسأل عن الأُسارىٰ. وولدها لم يفكّ أسره، ولم يجئ مع من كان يأتي من الأُسارىٰ، فقالت لزوجها: بلغني أنّ من بين أظهرنا سيّدة شريفة من أُسرة نبيّكم، يقال لها: السيّدة نفيسة بنت الحسن. ولها كرامات ونفحات، فاذهب إليها لعلّها تدعو لولدي، فإن جاء آمنت بدينها.

فجاء الرجل إلى السيّدة نفيسة رضي الله عنها وقصّ عليها القصّة. فضرعت الى ربّها أن يردّ عليه ولده ويخلّصه من أسره.

فلمّا كان الليل إذا بالباب يطرق، فخرجت المرأة، فإذا بها تجد الطارق ولدها وهو واقف بالباب، فصاحت من فرحتها، واحتضنت ولدها ودموع الفرح تسيل علىٰ وجنتيها، ثم قالت: يا بنيّ، أخبرني بأمرك كيف كان. فقال: يا أُمّاه كنت واقفاً بالباب في الوقت المعيّن ـ وهو الوقت الذي دعت فيه السيّدة نفيسة ـ وأنا في خدمتي، فلم أشعر إلّا ويد وقعت على القيد، وسمعت من يقول: أطلقوه، فقد شفّعت فيه السيّدة نفيسة بنت الحسن. فأُطلقت من الغلّ والقيد، ثم لم أشعر بنفسي إلّا وأنا أدخل من رأس محلّتنا الى أن وقفت على الباب وطرقته!

ففرحت به أُمّه وأبوه، وشاعت هذه الكرامة، فأسلم في تلك الليلة أهل سبعين داراً ببركتها، وأسلمت المرأة ووهبت نفسها لخدمة السيّدة نفيسة رضي الله عنها[٢].

٦ ـ وكان أحد أمراء عصرها يغلب علىٰ أحواله الظلم، وقد طلب إنساناً ليعذّبه. فلمّا قبض على الرجل أعوان الأمير، فبينما هو سائر معهم إذ مرّ بدار كريمة الدارين فصاح مستجيراً بها، فما سمعت استجارته حتّىٰ دعت له بالخلاص، وقالت له: حجب الله عنك أبصار الظالمين.

---

(١) خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٦، وقريب منه في تحفة الأحباب: ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٦، وتحفة الأحباب: ص ١٠٨.

فمضى به الأعوان حتّى أوقفوه بين يدي الأمير. فقال الأمير لأعوانه: أين الرجل الذي أمرتكم بإحضاره؟! فقالوا: أيّها الأمير. إنّه واقف بين يديك. فقال الأمير: والله ما أراه. فقالوا: أيّها الأمير. إنّه مرّ بالسيّدة نفيسة بنت الحسن بن زيد رضي الله عنهم. فاستجار بها وسألها الدعاء. فدعت له بخلاصه. وقالت: حجب الله عنك أبصار الظالمين. فقال: أوَ بلغ من ظلمي هذا يا ربّ؟! إنّي تائب إليك وأستغفرك.

فلمّا تاب وقد نصح في توبته. وأخلص في نيّته إذا به يرى الرجل وهو واقف بين يديه. فدعاه إلى الاقتراب منه. وقام الأمير من مجلسه وأخذ برأس الرجل فقبّله. واعتذر إليه. وصرفه من عنده شاكراً.

ثم جمع ماله وتصدّق ببعضه على الفقراء والمساكين. وذهب إلى السيّدة نفيسة رضي الله عنها ومعه مائة ألف درهم وقال: خذي هذا المال شكراً لله تعالى بتوبتي. فأخذته وأخذت تصرّه في صُرر بين يديها. ثم أمرت به ففرّقته عن آخره. ولم تُبقِ منه شيئاً. شأنها في كلّ مال يُوهب لها. وكان حاضراً عند ذلك بعض من يخدمنها من النساء. فقالت لها: يا سيدتي. لو أبقيت لنا شيئاً من هذه الدراهم لنشتري بها شيئا نفطر عليه. فقالت لها: خذي غزلاً غزلته بيدي فبيعيه بشيء تشترين منه ما نفطر عليه. فذهبت المرأة وباعت الغزل. وجاءت لها بما فطرت به هي وإيّاها. ولم تأخذ من المال شيئاً[1].

٧ ـ وقال القضاعي[2] رحمه الله تعالى: قلت لزينب[3] بنت يحيى أخي السيّدة نفيسة رضي الله عنهم: ما كان قوت عمّتك؟ قالت: كانت تأكل في

---

(١) تحفة الأحباب: ص ١٠٩.

(٢) هو محمدبن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون؛ أبو عبدالله. مؤرّخ ومفسّر. من علماء الشافعية. فقيه متمرس. قاضي مصر: وكان كاتباً للوزير الجرجرائي بمصر في أيام الفاطميّين. كان متفنّناً في عدّة علوم. ولم يكن في مصر من يجري مجراه. توفي بمصر عام ٤٥٤ هـ (طبقات الشافعية للسبكي: ج ٤ ص ١٥٠ رقم ٣٢٤، الأعلام: ج ٦ ص ١٤٦).

(٣) هي زينب بنت يحيى المتوّج. شريفة علوية. كانت عابدة صالحة. يتبرّك بها الناس. توفّيت بمصر سنة ٢٤٠ هـ. ودفنت في المشهد المجاور لقبر عمرو بن العاص. وكان الظاهر الفاطمي يأتي الى زيارتها ماشياً. (الأعلام: ج ٣ ص ٦٧).

كلّ ثلاثة أيام أكلةً. وكانت لها سلّة معلّقةأمام مصلّاها. وكانت كلّما طلبت شيئاً للأكل وجدته في تلك السلّة. وكانت لا تأخذ شيئاً من غير زوجها أوما يحبوها به ربّها[١].

فالحمد لله الذي جعل لنا نصيباً ممّا جعل للسيّدة مريم بنت عمران عليها السلام. فإنّ الله تعالى قال في كتابه المبين حاكياً عنها: ﴿كلّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّى لك هذا قالت: هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾[٢].

وقد جعل الله للسيّدة نفيسة رضي الله عنها ما جعل للسيّدة مريم عليها السلام. ويقول الأستاذ أحمد فهمي في ذلك:

وحسبا الإله نفيسةً بكرامةٍ ... خُصّت بها من قبل ذلك مريم

فيض من الله الغني ونفحةٌ ... فتبارك الله الكريم المنعم

والله يرزق من يشاء بفضله ... والله يرفع من يحبّ ويكرم

٨ ـ وكان الإمام الشافعي[٣] رضي الله عنه إذا مرض يرسل إليها رسولاً من قبله، كالربيع الجيزي[٤] أوالربيع المرادي[٥] أوغيرهما من أصحابه. فيقرئها سلامه ويقول لها: إنّ

---

(١) راجع خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٥، ومجموعة آل بيت النبي في مصر: ص ٧٩.

(٢) سوره آل عمران: ٣٧.

(٣) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي المطلبي: أبو عبدالله. أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنّة. وإليه نسبة الشافعية كافة. ولد بغزة (فلسطين) عام ١٥٠ هـ. وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين. وزار بغداد مرتين. ثم قصد مصر سنة ١٩٩ هـ فتوفي بها. وقبره معروف في القاهرة. برع في الفقه والحديث فأفتى وهو ابن عشرين سنة. كما برع في الشعر واللغة وأيام العرب. توفي عام ٢٠٤ هـ (تهذيب التهذيب: ج ٩ ص ٢٥. الأعلام: ج ٦ ص ٢٦).

(٤) هو الربيع بن سليمان بن داود الجيزي. ابو محمد الأزدي مولاهم. المصري الأعرج. من أبرز تلاميذ الشافعي وأصحابه. قال الخطيب: كان ثقةً. روى عنه أبو داود والنسائي والطحاوي وغيرهم. توفي سنة ٢٥٦ هـ (طبقات الشافعية للسبكي: ج ٢ ص ١٣٢. تهذيب التهذيب: ج ٣ ص ١١٢).

(٥) هو الربيع بن سليمان بن عبدالجبار بن كامل المرادي. مولاهم: ابومحمد المصري المؤذّن. صاحب الشافعي وراوية كتبه عنه. وهو أول من أملى الحديث بجامع ابن طولون. قال ابن يونس والخطيب: كان ثقة. ولد عام ←

ابن عمّك الشافعي مريض ويسألك الدعاء. فتدعو له، فلا يرجع إليه رسوله إلّا وقد عوفي من مرضه. فلمّا مرض مرضه الأخير أرسل على عادته رسوله يلتمس منها الدعاء. فقالت لرسوله: متّعه الله بالنظر الى وجهه الكريم. فجاء الرسول إليه. فسأله عمّا أجابت به؛ فقال له ما سمعه منها. فعلم أنّه ميّت[1].

ويقول بعض الصالحين ممّن حضر جنازة الإمام الشافعي رضي الله عنه: سمعت بعد انقضاء الصلاتين صوتاً ولا أرى شخصاً. يقول: إنّ الله تعالى غفر لكلّ من صلّى على الشافعي بالشافعي، وغفر للشافعي بصلاة السيّدة نفيسة عليه.

٩ ـ وقد ذكرنا سابقاً قصّة الفتاة المقعدة التي جرى ماء وضوء السيّدة الصالحة نفيسة رضي الله عنها على قدمها فشفيت.

١٠ ـ وكان الناس يهرعون إلى السيّدة كريمة الدارين في كلّ مقصدٍ، ويسألونها الدعاء، فلا يلبثون حتّى يجبر الله كسرهم، ويقضي حاجتهم، ويفرّج كربهم، ويكشف عنهم همومهم، فكانوا يزدحمون عندها.

فقال زوجها إسحاق المؤتمن يوماً لها: إرحلي بنا إلى الحجاز. فقالت: لا أستطيع ذلك، لأنّي رأيت رسول الله ﷺ في المنام وقال لها: لا ترحلي من مصر. فإنّ الله تبارك وتعالى متوفّيك فيها.

كراماتها بعد وفاتها:

ما من زائر لقبر كريمة الدارين إلّا حفّت به بركاتها، وشملته نفحاتها، فكم من مهمومٍ

← ١٧٤ هـ بمصر، ومات فيها عام ٢٧٠ هـ. قال الطحاوي: كان مولده ومولد المزني ومحمد بن نصر سنة ١٧٤. كان مؤذّناً بالمسجد الجامع بفسطاط مصر، المعروف اليوم بجامع عمرو بن العاص، وكان الشافعي يحبّه، وكان يقرأ بالألحان. وقيل: لمّا توفّي صلّى عليه الأمير خمارويه بن أحمد بن طولون. روى عنه أبو داود والنسائي والطحاوي وابن ماجة وأبو زرعة. (طبقات الشافعية للسبكي: ج ٢ ص ١٣٢، تهذيب التهذيب: ج ٣ ص ٢١٣، الأعلام: ج ٣ ص ١٤).

(١) راجع خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٥، وتحفة الاحباب: ص ١٠٧، ومجموعة آل بيت النبي في مصر: ص ٨٤.

زارها وضرع إلى الله تعالىٰ، فانحسرت غمومه وانقشعت همومه، وكم من خائفٍ مذعورٍ من جورٍ إلىٰ حيفٍ أوظلمٍ إلّا وقد لقي الإنصاف، وباعد الله عنه الظلم وأزال عنه العسف، فسكن قلبه، وعاد بعد زيارتها وهو وادع الحال، ساكن البال، مطمئنّ الفؤاد، فمقامها من الأماكن المعروفة باستجابة الدعاء.

وكراماتها بعد وفاتها كثيرة، وهي آية علىٰ إكرام الله تعالىٰ إيّاها، وعلىٰ ما خصّ الله به آل بيت نبيّه ﷺ من كرامات، وأسبغ عليهم من نفحات وفيوضات:

١ ـ قال أبو موسىٰ ﷺ: دخلت إلىٰ ضريحها فوضعت يدي على الضريح، فسمعت قائلاً: أهكذا تدخل على أهل بيت النبوّة؟!

٢ ـ وقال بعض المؤرّخين: كان بمصر رجل يقال له: عفّان بن سليمان المصري، فوجد بداره كنزاً دفيناً، فأخذ يتصدّق من هذا المال على الفقراء والمساكين والأيامىٰ واليتامىٰ والمحتاجين، فأمعن في صدقاته، حتّىٰ كان لا ينام ليلة حتّى يطعم خمسمائة بيتٍ من أهل مصر، وكان يتلقّى الحجّاج كلّ عام من أرض التيه، وكان يحمل المنقطعين منه، ويكشف حاجتهم وينفّس كربهم.

وفي بعض الأيام اشترىٰ من الأمير أحمد بن كيغلغ ألف حمل من البرّ، وبعد أيام قلائل وقع غلاء بمصر، فزاد ثمن البرّ عن سعره بثلاثة أمثال، فبعث إليه وأحضره بين يديه، فقال له ابن كيغلغ: خذ ثمن البرّ الذي اشتريته منّي واردد البرّ، أو ادفع ثمنه بالسعر الحاضر، فقال له عفّان: لا أفعل ذلك، ثم خرج عفّان من عند الأمير غضبان أسفاً، وذهب إلىٰ داره وجلس على الباب، فجاء إليه القوم وقالوا له: انظر ما وقع في الناس من جدب وغلاء، ومهما طلبت في البرّ الذي عندك من ثمنٍ فإنّا على استعداد لدفعه عن طيب خاطر، فقال لهم: لا والله تعالىٰ، فإنّي إنّما أدخر الثمن عند الله عزّوجلّ، وإنّي قد تصدّقت به على الفقراء والمساكين والأيامىٰ والأرامل، ثم قام من وقته وفرّقه جميعه، ولم يبق منه إلّا ما يسدّ حاجته وحاجة أهله.

فبلغ ذلك تكين بن عبدالله الحربي الأمير: أبا منصور المعتضدي الخزري، أمير مصر، وكان جبّاراً مهيباً، وقد شكاه أهل مصر إلى العارف بالله تعالىٰ بنان بن أحمد الواسطي الواعظ، فدخل عليه ووعظه وقال له: ارجع عن أهل مصر، فلم يرجع ولم يسمع، وأمر بإخراج بنان إلىٰ بلاد المغرب، فشكاه أهل مصر إلى العارف بالله تعالى الشيخ أبي الحسن

الدينوري. فدخل عليه وعظّمه ووعظه. فلم يرجع. وأمر بإخراجه من مصر إلى بيت المقدس.

وقد أمر تكين بأخذ أموال عفّان. فذهب إلى السيد الشريف علي بن عبدالله[1]. وقال له: يا سيدي إنّي أُريد أن أخرج من مصر إلى غيرها من بلاد الله تعالى؛ فراراً من الظلم. ومن بغي الجبّار تكين. فقال له الشريف علي: قم بنا إلى ضريح السيّدة نفيسة رضي الله عنها ندعو الله عنده أن يشغل هذا الجبّار عنك.

فجاء عفّان من جانب. والشريف من جانب آخر. قرءا ما تيسّر من القرآن. وسألا الله عزّوجلّ أن يجعل ذلك واصلاً إلى السيّدة نفيسة رضي الله عنها. وأن يفرّج عن عفّان ما هو فيه من ضيق وكرب. فأخذتهما سنة من النوم. فرأى الشريف علي السيّدة نفيسة رضي الله عنها وهي تقول له: خذ عفّان معك واذهب إلى تكين. فقد قضيت حاجته.

فلمّا استيقظ الشريف حدّثه بما رآه في نومه. وأخذ بيده وتوجّها إلى تكين. فدخلا عليه. فقام تكين إلى الشريف وهو يرعد. وكأنّما قد حمّ لوقته وقال: إنّي رأيت السيّدة نفيسة رضي الله عنها وهي تقول: أكرم الشريف علياً. وارجع عن عفّان واردد عليه ماله. فإنّه قد استجار بنا. فقال الشريف: هذا عفّان بين يديك. فقال تكين: والله ما رأيته. يا ربِّ إنّي تائب إليك. فاقبل توبتي واغفر حوبتي. فتاب تكين من الظلم توبةً نصوح. وأخلص نيّته. فرآه في الحال فأكرمهما. وردّ إلى عفّان ماله. وقال لعفّان: أنت عتيق السيّدة نفيسة رضي الله عنها.

ثم أمر تكين بمال كثير تصدّق به على الفقراء والمساكين. وصار يحسن إلى أهل مصر ويعدل بينهم. وكان يقول: كلّ أهل مصر يخافونني. وأنا أخاف من دعوة عفّان عند ضريح السيّدة نفيسة رضي الله عنها.

وقد أحسن تكين من شأنه وحكمه في أهل مصر. ولازم زيارة مشهد السيّدة نفيسة رضي الله عنها. وكان يتصدّق عنده بالمال الكثير. وينفح خدمه بمنحات وأعطيات إلى أن توفّي في ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة. وقد أوصى بأن يدفن في بيت المقدس. فحُمل في تابوت إلى بيت المقدس فدُفن فيه.

أمّا السيد الشريف الذي تشفّع لعفّان بكرامة السيّدة نفيسة فهو علي بن عبدالله بن

---

(١) سيأتي المؤلّف على ذكر ترجمة هذا السيّد الشريف قريباً.

القاسم بن محمد بن جعفر الصادق رضي الله عنهم. وكان من أهل الصلاح والتقوى والدين والعبادة. وله مشهد جليل بناه الظافر؛ الخليفة الفاطمي. وكان يحمل إليه النذور.

وكان الفاطميون يأتون إلى هذه المشاهد ويتصدّقون عندها بالأموال. قال أبو عمر الكندي[1]: وكانوا يجعلون عليها الستور.

ومات علي بن القاسم هذا سنة خمس وعشرين وثلاثمائة. وحين تشفّع لعفّان بعث إليه عفّان في الليل مائة دينار. فردّها وقال للذي جاء بها له: قل له: إنّ الله تعالى يقول: ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾[2] فكيف أبيع نصيبي بمائة دينار؟!

٣ ـ وحُكي عن أبي العزّ اليماني أنّه قال: كنت عزيزاً في قومي، أثيراً في عشيرتي، من أكثرهم مالاً وضياعاً. فاستطلت بنفسي، وشمخت بأنفي، وتكبرّت على الناس واحتقرت أمرهم، فلم ألبث حتّى ذهب مالي وضاعت ضياعي، فضاقت بي الأرض بما رحبت، واشتدّ بي الحال. وصرت كاسف البال. فشمت بي العدو، ورثى لي الصديق، فشكوت أمري إلى أحد أصدقائي. فأشار عليّ بزيارة الصالحين والدعاء عندهم، عسى الله تعالى أن يأتي بفرجه القريب، فيذهب عنّي ما نزل بي، فاعتزلت الناس.

فرأيت يوماً في نومي كأنّي في فضاء واسع، فيه نور ساطع، يظهر آونةً ويختفي أُخرى. فأخذني العجب من ذلك، فإذا بقائل يقول: هذا نور السيّدة نفيسة بنت الحسن رضي الله عنهما. فقلت: عسى الله أن يجمع بيني وبينها فأسألها الدعاء بأن يكشف الله كربتي ويفرّج غمّتي. فقيل لي: إنّها قد توفيّت، فقلت: أغتنم بركة زيارتها. فسمعت من يقول: أنا نفيسة يا أبا العزّ. ففارق نفسك، وانزع عنها سوءها. فقلت: فارقتها فرقةً لا عودة لي إليها، وإنّي تبت إلى الله عزّوجلّ ممّا فرط منّي. فقالت: أبشر. فقد قُبلت التوبة، وزالت الحوبة. فأصبحت فرحاً بما رأيت، وما لبثت أن زالت غمّتي، وانفرجت كربتي، وحسن حالي، واستروح بالي، وصرت في حالةٍ أحسن من حالتي السابقة. وأفاض الله عليّ من نعمائه، وأسبغ عليّ من

---

(١) هو محمد بن يوسف بن يعقوب بن حفص بن يوسف بن نصر؛ أبو عمر الكندي التجيبي، صاحب المصنّفات الكثيرة في تاريخ مصر وأحوالها. كان عارفاً بأحوال الناس وسير الملوك. ولد سنة ٢٨٣. وتوفي سنة ٣٥٣هـ. (الولاة والقضاة: ص ٤).

(٢) سورة النساء: ٨٥.

آلائه أضعاف ما كنت فيه، ببركة سيّدة الدارين.

٤ ـ قال ابن إياس[١]: كان لمحيي الدين بن متري البزدار ابنة صغيرة، لها من العمر نحو سبع سنين، وكان يسكن بالقرب من مزار السيّدة نفيسة رضي الله عنها، وكان على رأس الابنة كوفية من ذهب. فوقفت تلعب من الصغار. وكان لهم جار صبي أمرد يعمل في صنعة القمريات، فلعبت عينه على الكوفية الذهب التي على رأس البنت، فلعب بعقلها وقال لها: إنّ والدتك في السيّدة نفيسة، وأرسلت تطلبك هناك. فمضت معه، وأخذ معه عبداً أسود، فلمّا توجّهوا بتلك البنت إلى مكان خرب مهجور خلف مزار السيّدة نفيسة ألقيا بالبنت فذبحاها هناك، وحملاها وألقياها في فسقية موتى هناك. وأخذا الكوفية التي على رأسها، وتركاها تتخبّط في دمائها.

فأقامت هناك يوماً وليلة، فكثر التفتيش عليها من أُمّها وأبيها، فنزل أبوها إلى السوق، وأوصى التجّار بمراقبة الكوفية الذهبية التي كانت على رأس ابنته، فإذا رأوها أتوه بها.

فبينما هو في الصاغة وإذا هو بالصبي الأمرد الذي أخذ الكوفية وذبح البنت، يعرض الكوفية ويشهرها للبيع، وباعها بسعر رخيص، وقُبض عليه، وأحضروا أبا البنت وتوجّهوا إلى باب الأمير كمشينا.

فلمّا عرضوه على الوالي ضربه، فأقرّ بأنّه أخذ الكوفية من فوق رأس البنت، وأنّه ذبحها ورماها في فسقية موتى خلف مزار السيّدة نفيسة، فقالوا له: إمض معنا وأرنا ذلك المكان الذي رميتها فيه، فخرج معهم وهو في الحديد، وأتى بهم إلى تلك الفسقية التي رماها بها، فنزل أبو البنت إليها فوجدها راقدة وهي مذبوحة، وفيها بعض روح ولم ينقطع وريدها من الذبح، فحملها وطلع بها من تلك الفسقية.

فلمّا بلغ الأمير ذلك أرسل فأحضر الجميع بين يديه، وقصّوا عليه قصّة الصبي وما جرى له مع البنت، فحزن الأمير، وقال لها: من فعل بك هذا؟ فأشارت إلى الصبي والعبد الأسود الذي على باب البيت الذي تسكن فيه هي ووالدها، وأحضروا للبنت من ضمّد لها جرحها الذي برقبتها، وعاشت بعد ذلك وبرأت من الجرح.

---

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ج ١ ص ٢١١ من وقائع المائة العاشرة.

وقد ذُكر: أنّ البنت ذكرت: أنّه بعد أن ألقيا بها في الفسقية دخلت عليَّ امرأة وعلىٰ وجهها قناع، وقالت: لا تخافي، إنّي أنا السيّدة نفيسة، وغداً تخلصين من هذا المكان! ثم مسحت الدم من رقبتي فانقطع في الحال، وسكن روعي ممّا كنت فيه.

وقد انتشر حديث تلك الواقعة واشتهر أمرها في القاهرة.

٥ ـ قال الإمام الشعراني[1] ﷺ: دخلت أنا لقبر السيّدة نفيسة مرّةً، فوقفت على باب مشهدها الأول أدباً. ودخل أصحابي إلىٰ قبرها. فلمّا نمت جاءتني وعلىٰ رأسها مئزر صوف أبيض، وقالت لي: أنا نفيسة، فإذا جئت للزيارة فادخل إلىٰ قبري فقد أذنت لك، فمن ذلك اليوم وأنا أدخل لزيارتها وأجلس تجاه وجهها.

ويقول الإمام الشعراني أيضاً: رأيت في كلام الشيخ أبي المواهب الشاذلي[2] أنّه رأى النبي ﷺ فقال: «يا محمد، إذا كان لك إلى الله تعالىٰ حاجة فأنذر لنفيسة الطاهرة ولو بدرهم، يقض الله تعالى حاجتك».

٦ ـ وعن الشيخ محمد علي خلف الحسيني: أنّ جاراً له كفّ بصره، وعانىٰ ما عانىٰ، وصرف الكثير في سبيل الشفاء، فعجزت عنه نطس الأطباء، فذهب يوماً لزيارة المشهد النفيسي، وأخذته سنة من النوم، فرأىٰ كأنّ السيّدة نفيسة قد دخلت عليه، ووضعت شيئاً في

---

(١) هو الشيخ عبدالوهاب بن أحمد بن علي الحنفي ـ نسبة إلىٰ محمد ابن الحنفية ـ الشعراني الشافعي، أبو محمد، من علماء المتصوّفين، وأحد أعلام الزهد والعبادة والتصوّف، ولد في بلدة «قلقشندة» بمصر سنة ٨٩٨ هـ، ونشأ بساقية أبي شعرة (من قرىٰ المنوفية) واليها نسبته «الشعراني» أو «الشعراوي»، وتوفّي في القاهرة سنة ٩٧٣ هـ، له مصنّفات وكتب كثيرة. (شذرات الذهب: ج ١٠ ص ٥٤٤ وما بعده، الأعلام للزركلي: ج ٤ ص ١٨٠).

(٢) هو الشيخ محمد بن محمد بن محمد المعروف بسيدي محمد وفا السكندري الشاذلي، مغربي الأصل، مالكي المذهب، ولد ونشأ بالاسكندرية، وسلك طريق الشيخ أبي الحسن الشاذلي، ونبغ في النظم، فأنشد قصائد على طريقة ابن الفارض وغيره من «الاتحادية»، وصار له أتباع ومريدون، ورحل إلىٰ إخميم ثم إلىٰ القاهرة فسكن «الروضة» على شاطئ النيل، وأقبل عليه أعيان الدولة، وكثر أصحابه، كان واعظاً، لكلامه تأثير عجيب في القلوب، وله مؤلّفات عديدة، ولد عام ٧٠٢ هـ، وتوفّي عام ٧٦٥ هـ ودفن بالقرافة، وقبره مشهور يُزار. (شذرات الذهب: ج ٨ ص ٣٥٢، جامع كرامات الأولياء: ج ١ ص ١٤٢، الأعلام: ج ٧ ص ٣٧).

عينيه. فقام من نومه وقد رجع إليه نور عينيه، وزاد ضياؤها، وأصبح بصيراً. فكان يداوم على زيارتها.

الإمام الشافعي بمصر:

يقول الأستاذ الكبير عبدالحليم الجندي في كتابه عن الإمام الشافعي[١]: إنّ الشافعي كان بمكّة سنة ١٩٤ هـ عندما ثار أهل تنووتمي (زمام الجيزة وميت غمر الآن) على الوالي حاتم بن هرثمة[٢]. وبعث إليه الأمين جنداً بين قوّادهم السري ابن الحكم[٣] وعبدالعزيز بن الجروي فهزموا الثوّار.

---

(١) الإمام الشافعي ناصر السنّة وواضع الأصول: ص ١٦٦ وما بعده. ويجدر ذكره هنا أنّ المتن المنقول عن كتاب الاستاذ عبدالحليم الجندي ليس مسلسلاً بعينه، بل اقتطف منه مقتطفات. ولذلك رأينا أن نذكره بالاجمال في تخريجه. كما ارتأينا أن نذكر نبذ مختصرة عن تراجم الأعلام الذين ذكرهم الاستاذ جندي والتعريف بهم للقارئ، ليكون على اطّلاع تام بالشخصيات الواردة أثناء المتن، ولمزيد من الفائدة المرجوّة في هذا المقام.

(٢) هو حاتم بن هرثمة بن أعين، والٍ، من القادة في الدولة العباسية. ولي الشرطة في مصر سنة ١٧٨هـ ثمّ ولاية أبيه عليها، وصرف عنها بعد حين، فعاد إلى العراق، فأعاده الأمين العباسي أميراً عليها سنة ١٩٤ هـ، فقصدها، ونزل في «بلبيس» وطلب أهل الأحواف، فجاؤوه وعاهدوه على تأدية الخراج. ثم نقضوا عهدهم، فبعث إليهم جيشاً فقاتلوه، فظفر بهم، وانتقل إلى الفسطاط، وقد سكنت أوضاع مصر في أيامه. ثم عزله الأمين بعد ١٨ شهراً من ولايته عليها، توفي بعد عام ١٩٥ هـ (الولاة والقضاة: ص ١٤٧، الاعلام: ج ٢ ص ١٥٢).

(٣) هو السَرِيّ بن الحكم بن يوسف، من الولاة الأمراء، كان مقداماً فاتكاً، فيه دهاء، أصله من خراسان، دخل مصر في أيام الرشيد، ولمّا مات الرشيد، ودعا المأمون إلى خلع الأمين، قام السري بن الحكم بالدعوة في مصر، فارتفع شأنه، وولي مصر سنة ٢٠٠ هـ، فأقام ستة أشهر وثار عليه بعض قوّاد الجند، فخلعوه بعد سنة واحدة من تولّيه، وانتهبوا منزله، فأعاده المأمون إلى الولاية في السنة نفسها (أي سنة ٢٠١ هـ)، فتتبع آثار القائمين بالثورة عليه، فقتل وصلب كثيرين، وأباد أهل الحوف، ويذكر أنّه أخرج منهم ممّن امتنعوا عليه في مركب بالنيل، ومعهم أخ له، فأغرقهم جميعاً، وأقام في ولايته حتّى توفّي سنه ٢٠٥ هـ (الولاة والقضاة: ص ١٦١ و١٦٧، الأعلام: ج ٣ ص ٨٢).

وفي سنة ١٩٥ هـ ولي مصر جابر بن الأشعث الطائي[١]. فلمّا خلع الأمين أخاه المأمون شغب عليه الأمراء والولاة. وافترص السري بن الحكم الفرصة ليبحث لنفسه عن مكان. فظهر أمره، وظلّ منذ قدوم الشافعي حتّى وفاته مركز الأحداث بمصر.

ولمّا عيّن المأمون والياً جديداً صار السري من قوّاده. ثم عزل المأمون الوالي سنة ١٩٨ هـ وولّى معه محمد بن موسى. فقدم ابنه عبدالله نائباً عنه سنة ١٩٩ هـ. وكان معه محمد بن إدريس الشافعي. وتشغّب الجند على عبدالله. فقطع أرزاقهم. فأعادوا الوالي المعزول. ومات العباس بن موسى مسموماً.

وثار الجروي في «تنيس». وعبّأ جنده في مراكب حتّى نزل بـ«شطنوف». فسيّر إليه الوالي جيشاً على رأسه السري. فأُسر السري في سنة ١٩٩ هـ. ثم أطلق الجروي سراحه ليحارب معه ضدّ الوالي. فانتصرا. وخرج الوالي في البحر الأحمر إلى مكّة سنة ٢٠٠ هـ. وولي الجند السري بن الحكم على مصر، فسار الجروي إلى الاسكندرية واستولى عليها، فبقيت معه الاسكندرية وتنيس. فأمسى شبه مستقلّ بمنطقةٍ تدعى مملكة الساحل. وكان السري والياً مسيطراً في الداخل، شبه مستقلّ بالبلاد عن بغداد هو الآخر.

وفي سنة ٢٠٠ هـ احتلّ الاسكندرية خمسة عشر ألفاً من أهل قرطبة. يقال لهم: الربضيون، طُردوا من الأندلس لثورةٍ قاموا بها. فسار إليهم الجروي في خمسين ألفاً. وخالفه السري إلى حاضرته «تنيس». فأنكفأ الجروي راجعاً من الاسكندرية. وفتحت الاسكندرية أبوابها لجند السري في سنة ٢٠١ هـ...

وعزله المأمون بوالٍ جديد هزم السري وقبض عليه، ونفاه إلى «أخميم». وآثر الوالي الجديد بطانته على الخراسانيّين. فثاروا عليه. فهرب. وجاء كتاب المأمون لتولية السري، فأُخرج من الحبس ليعود والياً في الفسطاط سنة ٢٠١ هـ.

وخطب السري ودّ المصريّين. وكان يقدّم الشافعي ولا يؤثر أحداً عليه. حتّى إذا ثبّت أقدامه أدار وجهه لأعدائه. فأعمل فيهم القتل والصلب والنفي من البلاد! ولكن إعظامه

---

(١) هو جابر بن الأشعث بن يحيى الطائي. من ولاة مصر في عهد العباسيّين. ولّاه إمرتها الأمين سنة ١٩٥ هـ. واتّصلت فتنة الأمين والمأمون بأهل مصر. فتعصّب للمأمون بعضهم ووثبوا على جابر. فقاتلوه وأخرجوه من ديارهم بعد ولايته نحو عام واحد. (النجوم الزاهرة: ج ٢ ص ١٤٨، الأعلام: ج ٢ ص ١٠٣).

للشافعي ظلّ فوق مشاكل الساعة.

وحدثت حروب داخلية وخلافات كثيرة. والشافعي لا يتدخّل في السياسة. وحلقته تضمّ جوانبها أحياناً على مناقدات الشعراء والفقهاء. فلم نسمع أنّه تطرّق إلى خلافات الحكّام. أومسّ ولو بالرأي العرب التي تدور رحاها قيد خطوات من الجامع العتيق!

والوالي يكرمه ويعظّمه. ويستمع إلى موعظته: «أنظر من يكون صاحبك فإنّه يحبّك أويبغضك. وانظر من يكون كاتبك فإنّه يعبرّ عن عقلك الظاهر إلى الناس. وعفّ عن أموال الناس يكثر شكرهم لك. وإيّاك والانبساط إلى رعيّتك فتذهب بذلك هيبتك».

ولمّا هبط الإمام الشافعي أرض مصر ومعه تلميذه أبوبكر الحميدي[1]. وسأله بعض الأكابر أن ينزل عنده. فقال: أُريد أن أنزل عند أخوالي من الأزد ـ قبيلة أُمّه ـ فذلك درس في الوفاء تعلّمه على النبي ﷺ عندما هاجر إلى المدينة فنزل عند أخواله بني النجّار.

وقصد الشافعي بعد ذلك دار عبدالله بن الحكم. وربّما توشّجت بينه وبين ضيفه الصلات في إبّان دراسات عبدالله على مالك وسفيان. وقد قال له عبدالله: إذا أردت أن تسكن مصر فليكن لك قوت سنة ومجلس من السلطان تتعزّز به!! قال: يا أبا محمد. من لم تعزّه الدنيا فلا عزّ له. وقد ولدت بغزّة، وربيت بالحجاز. وما عندنا قوت ليلة. وما بتنا جياعاً قط.

عنيت بهذه المقدّمة عن الإمام الشافعي. لأنّ كلّ زملائه ومريديه والذين رووا عنه هم في الحقيقة من الذين كانوا يكثرون من زيارة السيّدة نفيسة رضي الله عنها، ويلتمسون منها البركة. وحين اتّجه الإمام إلى مصر أنشد يقول:

لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر ... ومن دونها قَطْعُ المهامهِ والقفر
ووالله ما أدري إلى الفوز والغنى ... أُساقُ إليها أم أُساقُ إلى قبري[2]

---

(١) هو عبدالله بن الزبير بن عيسى القرشي الأسدي المكّي؛ أبوبكر الحُمَيْدي. أحد الأئمة في الحديث. روى عن الشافعي ورحل معه إلى مصر وسفيان بن عيينة. ولزمه حتّى مات. فعاد إلى مكّة يفتي بها. وهو شيخ البخاري. فقد روى عنه ٧٥ حديثاً. وذكره مسلم في مقدمة كتابه. وكان رئيس أصحاب ابن عيينة بمكة. وظلّ فيها إلى أن توفّي سنه ٢١٩ هـ (طبقات الشافعية للسبكي: ج ٢ ص ١٤٠ برقم ٣١. الأعلام: ج ٤ ص ٨٧).

(٢) روى المحبّين أبوبكر ابن بنت الشافعي عن جدّه أنّه حينما أراد الخروج إلى مصر أنشأهما. قال: فخرج فقطع

وكان ﷺ موفور العلم، غزير المادة، وكانت حافظته القوية خزانة لشتّى المعارف التي كانت سائدة في عصره، إلى زلاقة في اللسان، وعذوبة في البيان، وقوّة في المنطق والبرهان.

وكان يلذّ له أن يناظر العلماء؛ لثقته في نفسه، وإيقانه بالغلبة والنصر، ولعلمه أنّ المناظرات محكّ العلم، ومختبر الصحيح والسقيم به.

ووفد الإمام إلى مصر، وتمّ التعارف بينه وبين السيّدة نفيسة رضي الله عنها، وتوثّقت بينهما الصلات، وقد ربط بينهما نزوع إلى خدمة العقيدة الاسلامية، وحرص على رفع منارها، كلٌّ بطريقته وأُسلوبه، وإنّه لهدف مشترك لمثله تتقارب القلوب الصافية، وتتلاقى الجهود المتفرّقة المخلصة، وكانت دار السيّدة كريمة الدارين بمثابة الجزيرة المطمئنّة، القائمة وسط بحرٍ صاخبٍ متلاطم الأمواج.

وقد اعتاد أن يزورها وهو في طريقه إلى حلقات درسه في مسجد الفسطاط، وفي طريق عودته إلى داره، وفي غير ذلك من الأوقات، وكان يصلّي بها التراويح في مسجدها في شهر رمضان الكريم، وكان من عادته إذا ذهب لزيارتها صحبه بعض أصحابه.

ومع جلال قدر الإمام الشافعي وعلوّ درجته، فإنّه كان إذا ذهب إليها سألها الدعاء، ملتمساً بركاتها، وقد سمع عليها حديث جدّها المصطفى ﷺ، وإذا أصابه مرض جعله يتخلّف عن زيارتها أرسل إليها رسولاً من تلاميذه؛ كالربيع الجيزي أوغيره، فيقرئها سلامه ويقول لها: إنّ ابن عمّك الشافعي مريض ويسألك الدعاء، فترفع بطرفها إلى السماء وتدعو له، فلا يرجع رسوله إلّا وقد عوفي الإمام من مرضه وأبل من شكاته.

ولمّا مرض مرضه الذي مات فيه أرسل لها على جاري عادته يلتمس منها الدعاء، فقالت للقاصد: متّعه الله بالنظر إلى وجهه الكريم، وسأله الإمام الشافعي: ماذا قالت له السيّدة

← عليه الطريق، فدخل بعض المساجد وليس عليه إلّا خرقة، فدخل الناس وخرجوا فلم يلتفت إليه أحد فقال:

علىَّ ثيابٌ لو يُباع جميعها ... بفَلْسٍ لكان الفلسُ منهنّ أكثرا

وفيهنّ نفسٌ لو يُقاس ببعضها ... نفوس الورى كانت أجلّ وأكبرا

وما ضرّ نصل السيف إخلاق غمْده ... إذا كان عضباً أين وجّهته فرى

راجع: معجم الأدباء لياقوت: ج ١٧ ص ٣١٩ ـ ٣٢٠.

نفيسة رضي الله عنها. فقال له ما قالت. فعلم أنّه ميّت. وأوصى أن تصلّي عليه[١].

فلمّا توفّي سنة أربع ومائتين مرّوا به على بيتها. فصلّت عليه مأمومة. وكان الذي صلّى بها إماماً أبو يعقوب البويطي[٢]: أحد أصحابه ﷺ. وكان مرور جنازة الإمام الشافعي على بيتها بأمر السري أمير مصر. لأنّها سألته في ذلك: إنفاذاً لوصيّة الإمام الشافعي ﷺ. لأنّها لم تتمكّن من الخروج إلى جنازته: لضعفها من كثرة العبادة.

وقد قال بعض الصالحين ممّن حضر جنازة الشافعي ﷺ: سمعت بعد انقضاء الصلاتين أنّ الله تعالى غفر لكلّ من صلّى على الشافعي بالشافعي. وغفر للشافعي بصلاة السيّدة نفيسة عليه، رضي الله تعالى عنهما.

وجاء ذكر الشافعي بعد وفاته في مجلس. فقالت السيّدة نفيسة تمتدحه وتترحّم عليه: رحم الله الشافعي. فقد كان رجلاً يحسن الوضوء.

وقالت عنه أيضاً: كان الإمام الشافعي صبوراً بكلّ ما في الصبر من معنىً. يتلقّى الشدائد بقلبٍ ثابتٍ. ويسعى هادئاً ليزيل ما ألمّ به. معتمداً على الله حقّ الاعتماد. ومتوكّلاً عليه حقّ التوكّل. شاكراً ما ابتلاه. ضارعاً أن يكشف عنه الضرّ. مستبشراً بأجر من عند الله بقدر ما يتحمّل من آلام. ويظلّ هكذا دون أدنى ضجر أو ملل. حتّى يزيل الله ما نزل به. وحينئذٍ يصلّي لله شاكراً. فهو عند الابتلاء كان شكوراً. وعند دفع الضرّ كان من الشاكرين.

علماء حول كريمة الدارين:

وكان يزورها ويسأل دعاءها وحديثها وقراءتها. ويتلمس بركاتها:

---

(١) تحفة الأحباب وبغية الطلّاب: ص ١٠٧. مجموعة آل بيت النبي في مصر: ص ١٠٦.

(٢) هو يوسف بن يحيى: أبو يعقوب المصري البويطي. من أكبر أصحاب الشافعي من المصريّين. تفقّه على يديه، واختصّ بصحبته. وكان يعتمد عليه في الفتيا. ويحيل عليه إذا جاءته مسألة. وكان قد استخلفه على أصحابه بعد موته. فتخرّجت على يديه ائمة تفرّقوا في البلاد. ونسبته إلى «بويط» من أعمال الصعيد الأدنى. ولمّا كانت المحنة في قضية خلق القرآن حُمل إلى بغداد في أيام الواثق العباسي على بغلٍ مقيّداً بسلاسل حديدية. وأُريد منه القول بأنّ القرآن مخلوق، فامتنع. فسجن ببغداد حتّى مات بسجنه سنة ٢٣١ هـ (طبقات الشافعية للسبكي: ج ٢ ص ١٦٢ ـ ١٦٣. الأعلام: ج ٨ ص ٢٥٧. مناقب الإمام أحمد: ص ٣٩٧).

* الإمام عثمان بن سعيد المصري.

* وكذلك الشيخ أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم ذو النون المصري[١] وهو من كبار الصوفية، ومن كلامه[٢]: «إيّاك أن تكون للمعرفة مدّعياً، أوبالزهد محترفاً، أوبالعبادة متملّقاً، وفرّ من كلّ شيء إلىٰ ربّك».

وكان يقول للعلماء: «أدركنا الناس، وأحدهم كلّما ازداد علماً ازداد في الدنيا زهداً وبغضاً، وأنتم اليوم كلّما ازداد أحدكم علماً ازداد في الدنيا حبّاً وطلباً ومزاحمة، وأدركناهم وهم ينفقون الأموال في تحصيل العلم، وأنتم اليوم تنفقون العلم في تحصيل المال»[٣].

وكان يقول: «كلّ مدّعٍ محجوب بدعواه عن شهود الحقّ. لأنّ الحقّ شاهد لأهل الحقّ بأن الله تعالى هو الحقّ، وقوله الحقّ، ومن كان الحقّ تعالىٰ شاهداً له لا يحتاج مدّعياً، فالدعوىٰ علامة على الحجاب عن الحقّ والسلام».

وكان يقول: «لكلّ شيء علامة، وعلامة طرد العارف عن حضرة الله تعالى انقطاعه عن ذكر الله عزّوجلّ».

وقال ﷺ: «إذا تكامل حزن المحزون لم تجد له دمعة، لأنّ القلب إذا رقّ سلا، وإذا جمد وغلظ سخا».

وكان يقول: «من لم يفتّش عن الرغيفين من الحلال لا يفلح في طريق الله عزّوجلّ».

ويقول: «قد غلب على العبّاد والنسّاك والقرّاء في هذا الزمن التهاون بالذنوب، حتّىٰ غرقوا في شهوة بطونهم وفروجهم، وحجبوا عن شهود عيوبهم، فهلكوا وهم لا يشعرون، أقبلوا علىٰ أكل الحرام وتركوا طلب الحلال، ورضوا من العمل بالعلم، يستحي أحدهم أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم، هم عبيد الدنيا لا علماء الشريعة، إذ لو علموا بالشريعة لمنعتهم

---

(١) هو ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، أحد الزّهاد العبّاد المشهورين، من أهل مصر، نوبي الأصل، من الموالي. كانت له فصاحة وحكمة وشعر، وهو أول من تكلّم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية، وقد أنكر عليه بعضهم، واتّهمه المتوكل العباسي بالزندقة، فاستحضره إليه وسمع كلامه، ثم أطلقه فعاد إلىٰ مصر، وتوفّي بالجيزة سنه ٢٤٥ هـ (طبقات الصوفية: ص ١٨، الأعلام: ج ٢ ص ١٠٢).

(٢) راجع طبقات الصوفية: ص ٢٠ وما بعده تجد الكثير من الدرر واللئالئ من الأقوال والحكم التي تُنقل عنه.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٥ ح ٢٨.

من القبائح. إن سألوا ألحّوا، وإن سُئلوا شحّوا. لبسوا الثياب على قلوب الذئاب. اتّخذوا مساجد الله التي يُذكر فيها اسمه لرفع أصواتهم باللغو والجدال. والقيل والقال. واتّخذوا العلم شبكةً يصطادون بها الدنيا. فإيّاكم ومجالسهم».

وسُئل عن الحديث: لم لا تشتغل به؟ فقال: «للحديث رجال، وشغلي بنفسي استغرق وقتي. والحديث من أركان الدين. ولولا نقص دخل على أهل الحديث والفقه لكانوا أفضل الناس في زمانهم. ألا تراهم بذلوا علمهم لأهل الدنيا يستجلبون به دنياهم. فحجبوهم واستكبروا عليهم. وافتتنوا بالدنيا لمّا رأوا من حرص أهل العلم والمتفقّهين عليها. فخانوا الله ورسوله. وصار إثم كلّ من تبعهم في عنقهم. جعلوا العلم فخّاً للدنيا. وسلاحاً يكسبونها به. بعد أن كان سراجاً للدين يُستضاء به».

وقد استمرّ ذو النون يزورها في حياتها. ويزور قبرها بعد وفاتها. إلى أن توفّي سنة ٢٤٥ هـ.

* وكذلك كان الفقيه الإمام عبدالله بن عبد الحكم[1] من جلّة أصحاب مالك. وقد أفضت إليه رئاسة المالكية بعد أشهب. وقد بلغ هو وبنوه من الجاه والتقدّم ما لم يبلغه أحد. وكان صديقاً للإمام الشافعي كما سبق أن بيّنا. وروى كثيراً عن الإمام الشافعي. وكتب كتبه بنفسه. وله مؤلّفات عدّة.

وكان لا ينقطع عن زيارة كريمة الدارين في حياتها. ولا عن زيارة قبرها بعد وفاتها. وقد سمع عليها الحديث. واستفاد كثيراً من آثارها وأخبارها.

وممّن زارها في حياتها. وعرف حقّ زيارة قبرها بعد موتها:

---

(١) هو عبدالله بن الحكم بن أعين بن ليث بن رافع: أبو محمد. فقيه مصري. مفتي الديار المصرية. صاحب مالك. ومن أجلّة أصحابه. ويقال: إنّه من موالي عثمان. انتهت إليه الرئاسة بمصر بعد أشهب. ولد عام ١٥٥ هـ بالاسكندرية. وسمع الليث بن سعد. ومالك وغيرهما. وحدّث عنه بنوه الائمة الأربعة: محمد وسعد وعبد الرحمان وعبد الحكم. وكان صديقاً للشافعي. وكان يحرّض ولده محمد على ملازمته. توفّي بالقاهرة سنة ٢١٤ هـ ودفن إلى جنب الشافعي. وله نحو من ستين سنة. (سير أعلام النبلاء: ج ١٠ ص ٢٢٠ برقم (٥٧)، الأعلام: ج ٤ ص ٢١٤).

* أبو سعيد سحنون ابن سعيد[1]؛ الفقيه المالكي. واسمه عبدالسلام. وغلب عليه «سحنون» باسم طائرٍ حديد النظر؛ لحدّته في المسائل.

وأصله من حمص، ورحل إلى مصر فسمع فيها من ابن القاسم وابن وهب وأشهب وغيرهم. وقد رحل كثيراً. وهو صاحب «المدوّنة» مفتي القيروان وقاضيه. وأولّ من أظهر علم المدينة بالمغرب. وقد اجتمعت فيه خصال قلّما اجتمعت في غيره، من فقهٍ بارعٍ، وورعٍ صادقٍ، وصرامةٍ في الحقّ، وزهدٍ في الدنيا. وخشونة في الملبس والمطعم. وسماحةٍ في العطاء.

وكان لا يقبل من أحدٍ شيئاً. سلطاناً أم غيره. ولا يهاب سلطاناً في حقٍّ يقوله. سليم الصدر للمؤمنين. شديد على أهل البدع.

انتشرت أمانته. وأجمع أهل عصره على تقدّمه وفضله. وكان مع هذا رقيق القلب. غزير الدمعة. ظاهر الخشوع. متواضعاً. قليل التصنّع. كريم الخلق. حسن الأدب. فكان سراج القيروان. وكان كلامه فقه. وصمته فقه. إذا أعجبه الكلام صمت. وإذا أعجبه الصمت تكلّم.

وقد راوده الأمير أبو العباس أحمد بن الأغلب حولاً كاملاً على أن يولّيه القضاء. فأبى عليه. فعزم عليه بالأيمان التي لا يخرج منها. فلمّا رأى ذلك سحنون اشترط على الأمير شروطاً كثيرةً. فأعطاه كلّ ما سأل. وأطلق يده في كلّ ما دعاه إليه. حتّى قال له: إنّي أبدأ بأهل بيتك وقرابتك وأعوانك. فإنّ فيكم ظلامات للناس منذ زمان طويل. فقال له الأمير: نعم. لا تبتدئ إلّا بهم. وأجْرِ الحقّ على مفرق رأسي.

فتولّى القضاء بهذه الشروط في رمضان سنة أربع وثلاثين. وقام قاضياً ستّة أعوام. لم يأخذ على قضائه شيئاً.

ويوم أن قَبِل القضاء دخل على ابنته خديجة. وكانت من الخيِّرات،

---

(١) هو عبدالسلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، الملقّب بسحنون، قاضي، انتهت إليه الرئاسة في العلم في بلاد المغرب. كان زاهداً، لا يهاب سلطاناً في حقٍّ يقوله. أصله من الشام من حمص. ومولده في القيروان سنة ١٦٠ هـ. ونشأ بها. وولي القضاء بها سنة ٢٣٤ هـ. واستمرّ إلى أن مات سنة ٢٤٠ هـ (قضاة الأندلس: ص ٢٨، الأعلام: ج ٤ ص ٥).

فقال لها: اليوم ذُبح أبوك بغير سكّين!

* والربيع بن سليمان المرادي[١]، الفقيه المصري، من الذين انتفعوا بحديث كريمة الدارين، وهو من أصحاب الإمام الشافعي وراوية كتبه. وكان إماماً ثقةً، صاحب حلقة بمصر، وقد قال فيه الإمام الشافعي: ما في القوم أنفع لي منه، ولقد وددت أنّي حسوته العلم.

وقال عنه أيضاً: الربيع راويتي، وهو أوّل من أملّى الحديث في جامع ابن طولون في مدينة القطائع التي أنشأها أحمد بن طولون.

* والربيع الجيزي[٢]، صاحب الإمام الشافعي من زائريها، والموالين لزيارة ضريحها بعد وفاتها، وكان رجلاً صالحاً، كثير الحديث، مأموناً ثقةً. وقال أبو عمر الكندي[٣] في الموالي: كان فقيهاً ديّناً.

* وأبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني[٤]، من العلماء الذين داوموا

---

(١) هو الربيع بن سليمان بن عبدالجبار بن كامل المرادي بالولاء، المصري: أبو محمد. صاحب الشافعي وراوي كتبه. كان مؤذناً بجامع ابن طولون، وهو أول من أملى الحديث فيه. روى عنه أبو داود والنسائي وابن ماجة وأبو زرعة وأبوحاتم وابنه والطحاوي. والترمذي بالاجازة. ولد عام ١٧٤ هـ بمصر. وتوفّي فيها سنة ٢٧٠ هـ (طبقات الشافعية للسبكي: ج ٢ ص ١٣٢، الأعلام: ج ٣ ص ١٤).

(٢) هو الربيع بن سليمان بن داود الجيزي المصري، من أصحاب الشافعي، كان فقيهاً ثقةً مأموناً. روى عنه أبرز ائمة الحديث، كأبي داود والنسائي والطحاوي وغيرهم. توفي بمصر سنة ٢٥٦ هـ. (طبقات الشافعية للسبكي: ج ٢ ص ١٣٢).

(٣) هو محمد بن يوسف بن يعقوب بن حفص بن يوسف بن نصر: أبو عمر الكِندي التجيبي، من بني كندة. مؤرّخ. له مصنّفات كثيرة في أحوال مصر وأهلها وأعمالها وثغورها. بل كان من أعلم الناس بتاريخ مصر. وله أيضاً علم بالحديث والأنساب. ولد سنة ٢٨٣ هـ. وتوفّي بعد سنة ٣٥٥ هـ، وقيل: ٣٥٣ هـ (الولاة والقضاة: ص ٤. الأعلام: ج ٧ ص ١٤٨).

(٤) هو إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق المُزَني: أبو ابراهيم، صاحب الشافعي، من أهل مصر. كان زاهداً عالماً مجتهداً قوي الحجّة، وهو إمام الشافعيين، ونسبته إلى «مزينة» من مضر. قال فيه الشافعي: لو ناظر الشيطان لغلبه!. روى عنه ابن خزيمة والطحاوي وابن أبي حاتم. ولد عام ١٧٥ هـ، وتوفّي عام ٢٦٤ هـ. (طبقات الشافعية للسبكي: ج ٢ ص ٩٣، الأعلام: ج ١ ص ٣٢٩).

على زيارتها في حياتها ملتمساً دعواتها. وبعد مماتها مستنزلاً بركاتها. وكان فقيهاً عالماً، راجح المعرفة، جليل القدر في النظر، عارفاً بوجوه الكلام والجدل، وحسن البيان، مقدّماً في مذهب الشافعي وقوله وحفظه وإتقانه. وله كتب كثيرة في مذهب إمامه، انتشرت في أقطار الأرض شرقاً وغرباً. وكان تقيّاً ورعاً صبوراً. وكان مجاب الدعوة. وقال الإمام الشافعي عنه: المزني ناصر مذهبي.

* وحرملة بن يحيى التجيبي[1]. ويكنّى أباحفص، ويقال: إنّ الإمام الشافعي نزل عنده، هو أيضاً من زائريها في حياتها، وزائري مقامها بعد موتها، وكان جليلاً نبيل القدر. وقد روى عن الشافعي من الكتب ما لم يروه الربيع، منها: كتاب الشروط، السنن وكتاب وغيرهما، وكان إماماً حافظاً للحديث والفقه.

وكذلك ممّن أوفى لها في حياتها وبعد موتها، طالباً دعواتها، وراجياً بركاتها:

* أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي[2]، وكان كبير السنّ، جليل القدر، استخلفه الشافعي في حلقته. وكان يقول: ليس أحد أحقّ بمجلسي من أبي يعقوب، وليس أحد من أصحابي أعلم منه.

وكان عالماً فقيهاً لطيفاً في أسبابه، يدني الغرباء ويقرّبهم إذا قدموا للطلب، ويعرّفهم فضل الشافعي وفضل كتبه، حتى كثر الطالبون لمذهبه وكتبه، وكان ابن أبي الليث الحنفي - قاضي مصر - يحسده ويعاديه، فأخرجه في وقت المحنة في القرآن فيمن أخرج من أهل مصر إلى بغداد، لم يخرج من أصحاب الشافعي غيره، فحُمل إلى بغداد مع جماعةٍ آخرين من العلماء، فأركبوه على بغلةٍ مغلولاً مسلسلاً في أربعين رطلاً من حديد، ويريدون بذلك منه القول بخلق القرآن، فأبى، فحبسوه في السجن ببغداد على تلك الحالة.

وكان في كلّ جمعة يمشي إذا سمع النداء إلى باب السجن، فيقول له السجّان: إلى

---

(١) هو حرملة بن يحيى بن عبدالله بن حرملة التُجيبي، مولاهم، المصري: أبوعبدالله. فقيه، من أصحاب الشافعي، وكان حافظاً للحديث، روى عنه ائمة الحديث، أمثال مسلم وابن ماجة وغيرهما. ولد سنة ١٦٦ هـ بمصر، ومات فيها سنة ٢٤٣هـ. (طبقات الشافعية للسبكي: ج ٢ ص ١٢٧ - ١٢٨، الأعلام: ج ٢ ص ١٧٤).

(٢) تقدّمت ترجمته، ويعدّ من أكابر أصحاب الشافعي من المصريّين، ومن المقرّبين عنده، قد مدحه كثيراً وأطراه لعلمه ومنزلته.

أين؟ فيقول له: إنّي أُجيب داعي الله. فيقول السجّان: إرجع رحمك الله. فيقول: إنّي أجبت دعوتك ربّي فمنعوني. ومازال هذا شأنه إلىٰ أن توفّي في رجب، في يوم الجمعة قبل الصلاة، سنة إحدىٰ وثلاثين ومائتين.

* وأبو موسىٰ ابن عبدالأعلى الصدفي[1]. الذي قال فيه الإمام الشافعي: ما رأيت بمصر أعقل من يونس، ممّن زاروا كريمة الدارين. وداوم علىٰ زيارتها بعد وفاتها.

وكان جليلاً ونبيلاً. من أهل الفقه والقرآن والحديث. أدرك سفيان بن عُيَيْنَة وكتب عنه. وكان إماماً في القراءات. قال أبوعمر الكندي: كان فقيراً شديد التقشّف. مقبولاً عند القضاء.

وقال يحيىٰ بن حسّان: يونسكم هذا من أركان الإسلام. وكان ورعاً، صالحاً، عابداً، كبير الشأن.

* * *

ولم تكن السيّدة نفيسة قد التقت بالإمام أحمد بن حنبل ولو أنّها سمعت عنه عالماً جليلاً، انفرد بمذهب خاصٌ له في الفقه الإسلامي.

كذلك الإمام أحمد لم يكن قد رأىٰ كريمة الدارين من قبل، ولو أنّه لا شكّ قد سمع بصلاحها. وألمّ بمظاهر تقواها. ولكن حدث أنّ بشر بن الحارث ـ وكان من كبار الخاصّة الذين يتردّدون علىٰ دار السيّدة كريمة الدارين، ويعقدون معها فيها مجالس علم ـ انقطع عن زيارتها. فلمّا سألت عنه، وعلمت بمرضه، ذهبت تعوده في داره، وهناك وجدت الإمام أحمد بن حنبل. فسأل الإمام أحمد صاحب الدار عمّن تكون هذه السيّدة. فلمّا عرف أنّها هي السيّدة نفيسة أحسن تحيّتها، وطلب من بشر أن يسألها لهما صالح الدعوات، وهذا الطلب يدلّ علىٰ علمه بمقامها الروحي العظيم، وبدعائها المستجاب.

وما كان للسيّدة الكريمة أن تخيّب رجاءهما وهي التي ما اعتادت أن تخيّب لأحدٍ

---

(١) هو يونس بن عبدالأعلى بن موسىٰ بن ميسرة: أبو موسىٰ الصدفي المصري. انتهت إليه رئاسة العلم في مصر. وكان من كبار الفقهاء والمحدّثين. فقد كان عالماً بالأخبار والحديث. وتوافر على عقل وحفظ. أدرك سفيان بن عيينة، فصار إماماً في القراءات. ولد عام ١٧٠ هـ بمصر. ومات بها عام ٢٦٤ هـ. (مرآة الجنان: ج ٢ ص ١٧٦. الأعلام: ج ٨ ص ٢٦١).

عن عامّة قاصديها رجاءً، بل استجابت لهما ودعت قائلة: اللّهمّ إنّ بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيران بك من النار فأجرهما، يا أرحم الراحمين[١].

وأيّ دعاءٍ أفضل من هذا؟ إنّ النجاة من النار هي الأُمنية الأولى لكلّ مسلم، وهي مفتاح باب الجنّة، وبعد أن دعت لهما دعاءها هذا طلبت إليهما أن يدعوا لها، فوافقا، وتقول في ذلك السيّدة نفيسة رضي الله عنها: «لقد نعمت بمعرفة الأخ في الله الإمام أحمد بن حنبل حينما كان عند صديقه بشر بن الحارث. وهو على جانب عظيم من العلم والمعرفة، وعلوّ القدر عند الله، وقد استجبت لطلبهما، ودعوت لهما، كما طلبت إليهما أن يدعوا لي، فكان ذلك، والله خير مجيب».

هؤلاء هم العلماء ورجال الدين الذين زاروا السيّدة الطاهرة كريمة الدارين في حياتها.

* * *

أمّا من زار المقام النفيسي بعد وفاتها من الأئمة والأعلام والأولياء الكرام فكثير ما هم، وما يزال المقام النفيسي مقاماً لإجابة الدعوات، واستنزال الرحمات، على أنّني شخصياً أُحبّ الصلاة في هذا المسجد الطاهر، وهذه البقعة المباركة. وأنا أدخل المسجد موقناً أنّ الله سبحانه وتعالى العلي القدير سيجيب دعائي، لأنّ هذا المقام الطاهر لياذ به من البأساء والضرّاء، وزيارته مظهر من مظاهر المودّة لآل بيت رسول الله ﷺ:

﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى﴾[٢].

فممّن كانوا يرعون حقّ زيارتها بعد وفاتها، ويستمرّون على زيارة قبرها:

* أبوعلي الروزباري: محمد بن أحمد بن القاسم البغدادي[٣] الزاهد، نزيل مصر وشيخها، صحب الجنيد، وجماعة من العلماء والصوفية.

---

(١) راجع مجموعة آل بيت النبي في مصر: ص ٨٥.

(٢) سورة الشورى: ٢٣.

(٣) وكان أبو علي الروزباري فاضلاً، من كبار الصوفية، قيل: إنّه من أولاد الرؤساء والوزراء، له تصانيف حسان في التصوّف، أصله من بغداد، وسكن مصر. توفي بمصر سنة ٣٢٢هـ. (اللباب: ج ١ ص ٤٨٠، الأعلام: ج ٥ ص ٣٠٨).

* وأبوبكر أحمد بن نصر الرقّاق.

* وبنان الجمّال ابن محمد بن حمدان؛ أبو الحسن الزاهد. نزيل مصر وشيخها. كان ذا منزلة عظيمة في النفوس، وكانوا يضربون بعبادته المثل.

* وبكار بن قتيبة الثقفي.

* والإمام الطحاوي: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي الحنفي[١]، وهو العلّامة الحافظ. انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة بمصر، وكان أوّلاً شافعيّاً. فقرأ على خاله المزني فقال: والله لا جاء منك شيء. فغضب من ذلك. وأخذ عن أبي جعفر ابن أبي عمران. فلمّا صنّف مختصره. قال: رحم الله أبا ابراهيم، لو كان حيّاً لكفّر عن يمينه! وقد ناب في القضاء عن أبي عبيدالله محمد بن عبده. وله مؤلّفات عدّة.

* وأبوبكر، محمد بن أحمد بن جعفر الكناني المصري[٢]، المشهور بابن الحدّاد. وكان إماماً مدقّقاً في العلوم. وكان كثير العبادة، يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويختم في كلّ يوم وليلة جميع القرآن، ويختم في يوم الجمعة في الجامع قبل الصلاة ختمةً أُخرىٰ في ركعتين، وقد أخذ الفقه عن جماعة، منهم: المنصور التميمي، ومحمد بن حرب.

* وحمزة بن محمد بن العباس؛ أبو القاسم الكناني المصري[٣]. وكان صالحاً ديّناً،

---

(١) هو أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الطحاوي، فقيه، انتهت إليه رئاسة الحنفية بمصر، ولد ونشأ في «طحا» من صعيد مصر سنه ٢٣٩ هـ، وكان قد تفقّه على مذهب الشافعي، ثم تحوّل إلى الحنفية، ورحل إلى الشام سنه ٢٦٨ هـ فاتّصل بأحمد بن طولون الأمير، فكان من خاصّته، وبطانته، وهو ابن أُخت إسماعيل المزني، له مصنّفات كثيرة. توفّي سنة ٣٢١ هـ بالقاهرة. (هدية العارفين: ج ١ ص ٥٨، الاعلام: ج ١ ص ٢٠٦).

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر الكناني، قاضٍ، من فقهاء الشافعية، من أهل مصر، ولي فيها القضاء والتدريس، وكان قوّالاً بالحقّ، ماضي الأحكام، فصيحاً، متعبّداً، له كتاب «الفروع» في فقه الشافعية، عليه خطوط شرّاح كثيرين، ولد عام ٢٦٤ هـ، وتوفّي بالقاهرة عام ٣٤٤ هـ ودفن بسفح المقطم. (الولاة والقضاة: ص ٥٥١، مفتاح السعادة: ج ٢ ص ١٧٥، الأعلام، ج ٥ ص ٣١٠).

(٣) هو حمزة بن محمد بن علي بن العباس الكناني المصري؛ أبو القاسم، من حفّاظ الحديث والعارفين بعلله،

←

بصيراً بالحديث وعلله، مقدّماً فيه، ولم يكن في المصريّين في زمانه أحفظ منه.

* وعبدالمنعم بن عبدالله بن غلبون بن المبارك؛ أبو الطيّب الحلبي[١] نزيل مصر، أُستاذ ماهر كبير، كامل ثقة، خيّر صالح ديّن، ولد بحلب في رجب سنة تسع وثلاثمائة، وانتقل إلىٰ مصر فسكنها وألّف كتابه: «الإرشاد في السمع» روى القراءة عرضاً وسماعاً عن إبراهيم بن عبدالرزاق والحسين بن خالويه وغيرهما. وعرض عليه ابنه وكثير من علماء القراءات. وكان حافظاً للقراءة ضابطاً، ذا عفاف ونسك وفضل وحسن تصنيف، ووجد بخطّه علىٰ بعض مؤلّفاته:

صنّفت ذا العلم أبغي الفوز مجتهداً ... لكي أكون مع الأبرار والسعدا

في جنّةٍ في جوار الله خالقنا ... في ظلّ عيشٍ مقيمٍ دائمٍ أبدا

* وعبدالغني بن سعيد الأزدي المصري السمرقندي[٢]. وكان ثقةً، صاحبَ سنّةٍ، حافظاً، علّامةً، وكان الدارقطني يفخّم أمره ويرفع قدره، خرج جماعة من مصر يودّعون الدارقطني ويبكون لفراقه، فقال: أتبكون وعندكم عبدالغني، وفيه الخلف؟![٣] وقد انتفع به خلق كثير.

* ومحمد بن علي بن أحمد؛ الإمام أبوبكر الأُدفوي المصري[٤]. وكان متمكّناً من

← رحل إلىٰ العراق في طلبه. له كتب، ولد عام ٢٧٥ هـ، وتوفّي عام ٣٥٧هـ (الرسالة المستطرفة: ص ٦٧، الأعلام، ج ٢ ص ٢٨٠).

(١) هو عبدالمنعم بن عبد (عبيد) الله بن غَلبون بن المبارك، أبو الطيّب، المولود في حلب سنة ٣٠٩ هـ، أديب، عالم بالقرآن ومعانيه، وله شعر جيد، ثم رحل إلىٰ مصر وسكنها حتّىٰ توفّي بها سنة ٣٨٩هـ. (طبقات القرّاء: ج ١ ص ٤٧٠، الأعلام: ج ٤ ص ١٦٧ لكن فيه سنة ولادته ٣٣٩هـ).

(٢) هو أبو محمد عبدالغنيّ بن سعيد بن علي بن سعيد بن بشر بن مروان، من الأزد، شيخ حفّاظ الحديث بمصر في عصره، وكان عالماً بالأنساب متفنّناً، خاف علىٰ نفسه في أيام الحاكم الفاطمي، فاستتر مدة ثم ظهر. له كتب عديدة، ولد بالقاهرة عام ٣٣٢هـ، وتوفّي بها عام ٤٠٩ هـ (وفيات الأعيان: ج ٣ ص ٢٢٣، الأعلام: ج ٤ ص ٣٣).

(٣) وفيات الأعيان: ج ٣ ص ٢٢٤ نقلاً عن الحافظ محمد بن علي الصوري.

(٤) هو محمد بن علي بن أحمد الأُدفُوي المصري: أبوبكر، نحوي، مفسّر، من أهل «أُدفُو» بصعيد مصر الأعلى،

اللغة العربية، بصيراً بالمعاني، كما برع في علوم القرآن، وكان سيّد أهل عصره بمصر. وله كتاب التفسير في مائة وعشرين مجلّداً، سمّاه «الاستفتاء في علوم القرآن» وقد ألّفه في اثنتي عشرة سنة.

* والحَوْفي، أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سعيد[١]، صاحب «إعراب القرآن» في عشرة مجلّدات، كان إماماً في العربية والنحو والأدب، وله تصانيف كثيرة.

* والقُضاعي القاضي؛ أبو عبدالله محمد بن سلامة المصري[٢]، الفقيه الشافعي، قاضي الديار المصرية، وله مؤلّفات عدّة.

* والحبّال الحافظ الإمام المتفنّن، محدّث مصر؛ أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد بن عبدالله النعماني[٣].

* ونصر بن عبدالعزيز؛ أبو الحسن الفارسي الشيرازي[٤]، وهو شيخ محقّق إمام مسند ثقة عدل، له كتاب «الجامع في القراءات العشر».

← كان يبيع الخشب في القاهرة، ولد فيها عام ٣٠٤هـ، وتوفي بها عام ٣٨٨هـ، له مؤلّفات في الأدب. (بغية الوعاة: ص ٨١، الأعلام: ج ٦ ص ٢٧٤).

(١) هو علي بن إبراهيم بن سعيد، النحوي المصري، من العلماء في اللغة والتفسير، من أهل الحوف بمصر، له كتب ومؤلّفات في التفسير، منها: البرهان في تفسير القرآن، كبير جداً، توفي بمصر عام ٤٣٠ هـ. (بغية الوعاة: ص ٣٢٥، الأعلام: ج ٤ ص ٢٥٠).

(٢) هو محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القاضي؛ أبو عبدالله القُضاعي، مؤرّخ ومفسّر وفقيه، من علماء الشافعية. كان كاتباً للوزير الجرجرائي (علي بن أحمد) بمصر في أيام الفاطميّين، وأُرسل في سفارة إلى الروم، فأقام قليلاً في القسطنطينية، وتولّى القضاء بمصر نيابةً، وتوفي بها عام ٤٥٤ هـ. له مؤلفات جمّة. روى عنه الحُميدي وأبوسعد الساوي وابن بركات السعيدي وسهل بن بشر الإسفرايني والخطيب وأبوعبدالله الرازي وابن ماكولا وآخرون. (طبقات الشافعية للسبكي: ج ٤ ص ١٥٠ برقم ٣٢٤، الأعلام: ج ٦ ص ١٤٦).

(٣) لم أعثر على مصدر يتوافر على ترجمة هذا العلم.

(٤) هو نصر بن عبدالعزيز بن أحمد؛ أبو الحسين (الحسن) الفارسي عالم بالقراءات، من أهل شيراز، ثم انتقل إلى مصر فكان مقرئها ومسندها، له «الجامع» في القراءات العشر وغيرها، توفّي بمصر سنة ٤٦١ هـ. (غاية النهاية: ج ٢ ص ٣٣٦، الأعلام: ج ٨ ص ٢٤).

* ويحيى بن علي: أبو الحسن المصري[١]، ويُعرف بابن الخشّاب.

* وأحمد بن عبدالله بن أحمد بن هشام: أبو العباس اللخمي الفاسي.

وغير هؤلاء كثير[٢]، وقد ذكر منهم ممّن زاروها في حياتها وبعد وفاتها جمهرة من الصالحين والعلماء. وإلى اليوم يوالي زيارة مقامها الكثير من العلماء والعبّاد الصالحين ممّن لا يحصيهم إلّا الله تعالى.

واقعة أحمد بن طولون:

ذكر القرماني في تاريخه وصاحب الغرر وصاحب المستطرف[٣]: أنّه لمّا ظلم أحمد بن طولون استغاث الناس من ظلمه، وتوجّهوا إلى السيّدة نفيسة يشكونه إليها، فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: في غد، فكتبت رقعة ووقفت في طريقه، وقالت: يا أحمد، يا ابن طولون، فلمّا رآها عرفها، فنزل عن فرسه وأخذ منها الرقعة وقرأها، فإذا فيها: «ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وخوّلتم ففسقتم، وردّت إليكم الأرزاق فقطعتم، هذا وقد علمتم أنّ سهام الأسحار نافذة غير مخطئة، لا سيّما من قلوبٍ أوجعتموها، وأكباد جوّعتموها، وأجساد عريتموها، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فإنّا صابرون، وجوروا فإنّا

---

(١) لم أجد ترجمته فيما توفّرت لي من مصادر.

(٢) يقول السخاوي في تحفته: «ولم يزل الصالحون والفقهاء والمحدّثون والقرّاء والعلماء يزورون مشهد السيّدة نفيسة ويدعون عنده، وهو مجرّب الدعاء».

وممّن عاود زيارة القبر الشريف أيضاً: الرحّالة عبدالغني النابلسي المتوفّى سنة (١١٠٥).

وممّا يذكر أنّ الخلفاء العباسيّين الذي جاءوا إلى مصر في أيام الظاهر بيبرس بعد أن أحرق هولاكو بغداد، قد رجوا وأصرّوا على أن يُدفنوا بجوار قبر السيّدة نفيسة لنيل بركاتها. كما أنّ الكثير من الخلفاء الفاطميّين فعل مثل ذلك من قبل، ولذلك فحول قبر السيّدة عشرات من قبور الخلفاء والسلاطين. وقد روي عن أبي المسك كافور الأخشيدي أنّه كان يزور السيّدة نفيسة كل يوم خميس، وكان حين يشارف مشهدها من بعيد يترجّل من على دابته، ويدخل حاسر الرأس... واستمرّ على ذلك حتّى وفاته عام ٣٥٦ هـ. انظر مجموعة آل بيت النبي في مصر: ص ٨٦.

(٣) أخبار الدول للقرماني: ص ٢٧٤، المستطرف من كل فنّ مستظرف: ج ١ ص ٢١٠ ـ ٢١١.

بالله مستجيرون، واظلموا فإنّا إلى الله متظلّمون ﴿وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون﴾[١] قال: فعدل لوقته!

وهذه الواقعة مردود عليها:

أولاً: أنّ ظهور الدولة الطولونية التي أولها أحمد بن طولون[٢] كان في سنة أربع وخمسين ومائتين كما في تاريخ الإسحاقي، وسنة خمسين ومائتين على ما في تاريخ القرماني[٣]، ووفاة السيّدة نفيسة كانت في رمضان سنة ثمان ومائتين باتّفاق، ويُعلم ذلك بمراجعة كتب التواريخ.

ثانياً: أنّ السيّدة نفيسة رضي الله عنها كريمة الدارين سيّدة طاهرة تقية، بحيث لا يتوهّم غبي غافل فضلاً عن فطن عاقل، أنّها تذهب إلى أحمد بن طولون، وتقف بالطريق تنتظره ليمرّ بها[٤].

ولكن يمكن أن تغيّر الأسماء والظروف، ونردّها إلى شكوى بعض الناس من حاكمٍ في عهد السيّدة نفيسة، فاستدعته إلى دارها، وأوضحت له طريق الحقّ والعدل، فعاد إلى السير في الخطّ المحمدي، وذلك نظراً إلى أنّ مجلس السيّدة نفيسة كان يفد عليه العلماء وراغبو العلم، ولا بدّ أيضاً أن تثور قضايا الحياة في المجلس النفيسي، ولا بدّ أن

---

(١) سورة الشعراء: ٢٢٧.

(٢) هو أحمد بن طولون؛ أبو العباس. الأمير، صاحب الديار المصرية والشامية والثغور. تركي مستعرب، كان شجاعاً جواداً، يباشر الأُمور بنفسه، موصوفاً بالشدة على خصومه، وكثرة الإثخان والفتك فيمن عصاه، بنى الجامع المنسوب إليه في القاهرة. ولد سنة ٢٢٠ هـ في سامراء، فتفقّه وتأدّب وتقدّم عند الخليفة المتوكّل إلى أنّ ولي إمرة الثغور ودمشق ثم مصر سنة ٢٥٤ هـ، وانتظم له أمرها مع ما ضمّ إليها، كان حادّ الخلق، سفك كثيراً من الدماء في مصر والشام، توفّي سنة ٢٧٠ هـ عندما رحل بجيشه إلى انطاكية فمرض فيها، فاضطرّ إلى أن يعود إلى مصر عن طريق البحر فيموت بها. (الولاة والقضاة: ص ٢١٢ ـ ٢٣٢، الأعلام: ج ١ ص ١٤٠، بدائع الزهور: ج ١ ص ٣٧ وفيه سنة الوفاة ٢٦٩ هـ).

(٣) أخبار الدول: ص ٢٧٤.

(٤) هذه القصة نشرت في بعض الكتب، كما نشرت في مجلة العربي، في العدد (٩٠) بتاريخ ١١ محرم سنة ١٣٨٦ هـ. (منه).

يكون لها دور في عمل كلّ ما هو خير، ومحاولة تغيير كلّ ما هو غير صالح[١].

ويوافقني الأخ محمد شاهين حمزة على أنّ هناك اختلافاً كبيراً في إيراد هذه القصة، كما يذكر أنّ ابن طولون كان يعبد الله حقّ عبادته حين يكون منفرداً، ولكن كانت تأخذه العزّة بالإثم حين يباشر سلطاته في أمور الناس، حتّى ضجّت الرعية ممّا وقع عليها من ظلم، وتلقاء تعبّده وجدّه بحقّ أشفق عليه من مغبّة معاملته للناس، فأرشد وحياً وهو في حلم ـ كاليقظة ـ إلى أن يعدل، وذكر بما ورد عن ذلك في القرآن الكريم والحديث الشريف، فأصاخ إلى ما أُرشد إليه وأطاع، وحكم بالعدل بعد ذلك، ثم أغرق في عبادة الله حتّى لقي ربّه وهو من المقبولين.

كريمة الدارين تحفر قبرها في دارها:

استقرّت السيّدة نفيسة رضي الله عنها في الدار التي وهبها لها أمير مصر السري بن الحكم في خلافة المأمون العباسي، وانتقلت إليها سنة إحدى ومائتين في ولايته الثانية، وقد سارع إلى أخذ البيعة بعد المأمون لولّي عهده علي بن موسى بن جعفر بن علي بن أبي طالب[٢] عليه السلام، وقد سمّاه المأمون بالرضا، وقد مات السري بالفسطاط.

ويقول العلّامة الأجهوري رحمه الله:

إنّ السيّدة نفيسة رضي الله عنها حفرت قبرها الشريف بيدها، أي أمرت ببنائه حال صحّتها؛ لشدّة شوقها للقاء خالقها، وعدم رغبتها في الدنيا الفانية وزينتها، وكانت عليها سحائب الغفران، تنزل فيه للتعبّد والتذكّر بالدار الآخرة، وكانت تصلّي فيه النوافل العديدة حتّى قيل: إنّها قرأت فيه ستة آلاف ختمة، ووهبت ثوابها لأموات المسلمين، بخلاف ما

---

(١) نفيسة العلم والمعرفة، للأُستاذ صلاح عزّام. (منه)

(٢) هو الإمام علي بن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن الحسين الشهيد ابن علي بن أبي طالب عليه السلام الذي أضنى علماء النصارى وأحبار اليهود من أن ينالوا قيد أنملة من الاسلام، ودفع عنه النوازل العظام والدواهي الجسام. ومن يرغب في مراجعة أخبار هذا الإمام العلم في هذا الجانب فليراجع كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق.

كانت عليه من التعبّدات.

قالت زينب بنت أخيها: تألمّت عمّتي في أولّ من رجب، وكتبت إلىٰ زوجها إسحاق المؤتمن كتاباً، وكان غائباً بالمدينة، تطلب إليه في المجيء إليها وموافاتها؛ لإحساسها بدنوّ أجلها، وفراقها لدنياها، وإقبالها علىٰ أُخراها، وما زالت متوعّكة إلىٰ أن كان أول جمعة من شهر رمضان، فزاد عليها الألم وهي صائمة، فدخل عليها الأطبّاء، فأشاروا عليها بالإفطار لحفظ قوّتها، ولتتغلّب علىٰ مرضها وضعفها، فقالت متواعجباه، إنّ لي ثلاثين سنة وأنا أسأل الله عزّوجلّ أن يتوفّاني وأنا صائمة، أفأفطر؟! معاذ الله تعالىٰ، ثم أنشدت يقول:

اصرفوا عنّي طبيبي ودعوني وحبيبي
زاد بي شوقي إليه وغرامي في لهيب
طاب هتكي في هواه بين واشٍ ورقيب
لا أبالي بسفواتٍ حيث قد صار نصيبي
ليس من لام بعذل عنه فيه بمصيب
جسدي راضٍ بسقمي وجفوني بنحيبي

فانصرف الأطبّاء وهم معجبون بقوّة يقينها وثبات دينها، وسألوها الدعاء، فقالت لهم خيراً ودعت لهم.

وقالت زينب: ثم إنّها بقيت كذلك وقد أفترها الداء إلى العشر الأواسط من شهر رمضان، فاشتدّ بها المرض واحتضرت، فاستفتحت بقراءة سورة الأنعام، فلا زالت تقرأ إلىٰ أن وصلت إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قل الله كتب على نفسه الرحمة﴾ ففاضت روحها الكريمة. وقيل: إنّها قرأت: ﴿له دار السلام عند ربّهم وهو وليّهم بما كانوا يعملون﴾ فغشي عليها.

قالت زينب: فضممتها إلىٰ صدري، فإذا بها تشهد شهادة الحقّ، وقُبضت، واختارها الله لجواره، ونقلها إلى دار كرامته، وكان ذلك في سنة ثمان ومائتين، وذلك بعد موت الإمام الشافعي بأربع سنين رحمهم الله جميعاً.

وما أحسن ما قال بعضهم في خروج روحها رضوان الله عليها:

روح دعاها بالوصال حبيبها فأتت إليه مطيعةً ومجيبه
يا مدّعي صدق المحبّة هكذا صدق المحبّ إذا دعاه حبيبه

وقد أوصت السيّدة نفيسة رضي الله عنها أن لا يتولّىٰ أمرها غير بعلها، وكان مسافراً،

فلمّا ماتت قدم في ذلك اليوم، وهيّأ لها زوجها تابوتاً وقال: إنّي لا أدفنها إلّا بالبقيع، عند جدّها المصطفى ﷺ. فتعلّق به أهل مصر، وسألوه بالله عزّوجلّ أن يدفنها عندهم، فأبى. فاجتمعوا وذهبوا إلى عبدالله بن السري[1]؛ أمير مصر، وتوسّلوا به إلى إسحاق بأن يدفنها عندهم، وأن يرجع عن عزمه، وخاصّةً أنّها حفرت قبرها بيدها في دارها. فسأله الأمير في ذلك. وقال له: بالله لا تحرمنا من مشاهدة قبرها. فإنّا كنّا إذا نزل بنا أمر جئنا إليها في دارها في حياتها نسألها الدعاء. فما تنتهي من دعائها إلّا وقد كشف الله عنّا ما نزل بنا. فدعها لتكون في أرضنا. فإذا نزل بنا أمر جئنا إلى قبرها فسألنا الله تعالى عنده. فأصرّ على نقلها، ولم يرض ما طلبه القوم وما عرضه الوالي.

فجمعوا له مالاً جزيلاً وسق بعيره الذي وفد عليه، وسألوه البقاء. فأبى. فباتوا في ألمٍ عظيمٍ وهمٍّ مقيم، وقد تركوا المال عنده. فلمّا أصبحوا جاءوا إليه فوجدوا منه مالم يروه من قبل، فإنّه أجابهم عن طيب خاطر إلى دفنها عندهم. وردّ عليهم ما لهم. فسألوه عن ذلك، فقال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام، وقال لي: يا إسحاق، ردّ على الناس أموالهم وادفنها عندهم. ففرح القوم وأخذوا يكبّرون.

ولمّا توفّيت اجتمع الناس من القرى والبلدان، وأوقدوا الشموع تلك الليلة. وسُمع البكاء عليها من كلّ دار بمصر، وعَظُم الأسف والحزن عليها. وصلّي عليها بمشهد حافل. ودُفنت بالمكان الذي حفرته[2].

وكان يوم دفنها يوماً مشهوداً، ازدحم فيه الناس ازدحاماً شديداً. وأخذوا يزورون

---

(١) في كتب التراجم: عبيدالله بن الحكم، أمير مصر، وابن أميرها. بايع له الجند سنة ٢٠٦ هـ. وأقرّه المأمون العباسي، ثم عقد المأمون لخالد بن يزيد الشيباني على بعض أعمال مصر، فامتنع عبيدالله عن قبوله وقاتله. فنشبت فتنة انتهت بفشل خالد، ثم أقبل عبد الله بن طاهر مارّاً بالشام حتّى بلغ مصر، موفداً من قبل المأمون. فدافعه عبيدالله مدة، وجاءه أمان المأمون سنة ٢١١ هـ على الصلح بينه وبين ابن طاهر. فلمّا التقيا خلع عليه ابن طاهر، وأمره أن يخرج إلى المأمون، فخرج. وأقام في العراق إلى أن توفّي بسرّ من رأى سنة ٢٥١ هـ. (الولاة والقضاة: ص ١٧٣، الأعلام: ج ٤ ص ١٩٤).

(٢) انظر خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٥ـ٣٢٦.

قبرها، ويأتون إليه من بلاد متعدّدة، يصلّون ويذكرون ويدعون[١].

وقد كانت وفاة السيّدة الصالحة كريمة الدارين في عهد ولاية عبدالله بن السري بن الحكم الذي بايعه الجند في يوم ٩ شعبان سنة ستة ومائتين. في اليوم التالي لوفاة أخيه محمد بن السري أمير مصر.

وكان السري وبنوه الأُمراء يبجّلون السيّدة نفيسة رضي الله عنها ويعظّمونها، فأمر عبدالله بأن يُبنىٰ لها مقام علىٰ قبرها[٢]؛ إعلاماً لعلوّ شأنها، وآيةً علىٰ رفعة قدرها، وإظهاراً لجلالها.

وكان بناء ذلك المقام عقب وفاتها سنة ثمان ومائتين. وفي ولاية الحافظ لدين الله[٣]؛ أبي الميمون عبدالمجيد ابن الأمير أبي القاسم محمد ابن الخليفة المستنصر بالله الذي ولي الخلافة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، ومكث في خلافته إلىٰ سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وقد أمر ببناء قُبّة علىٰ قبرها الشريف، وببناء مدفنٍ للفاطميين بجوارها من الجهة الغربية.

وقد أخذ الكثيرون في بناء القبور لهم ولذويهم حول ضريح السيّدة نفيسة رضي الله عنها؛ تبرّكاً بجوارها.

وكان مكتوباً علىٰ باب المقام هذان البيتان، وهما من قول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

يـــا آل بـــيت رســـول الله حـــبّكمو ... فـــرض مـــن الله فـــي القـــرآن أنـــزله

يكـــفيكمو مـــن عـــظم القـــدر أنّكـــمو ... مـــن لم يـــصلِّ عـــليكم لا صـــلاة له[٤]

---

(١) راجع وفيات الأعيان: ج ٥ ص ٤٢٤، والبداية والنهاية: ج ١٠ ص ٢٦٢، وخطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٢) انظر خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٧.

(٣) هو عبدالمجيد بن محمد بن المستنصر بالله العبيدي، الملقّب بالحافظ لدين الله، من خلفاء الدولة الفاطمية (العبيدية) بمصر. ولد في عسقلان، وتملّك الديار المصرية سنه ٥٢٤ هـ بعد مقتل ابن عمه الآمر بأحكام الله، واستقام له الأمر زمناً. وكان كثير الفتك بوزرائه وخاصّته. وعاش سبعاً وسبعين سنة، مات بمصر سنة ٥٤٤ هـ، وكانت دولته عشرين سنة، إلّا خمسة أشهر. (وفيات الأعيان: ج ٣ ص ٢٣٥، شذرات الذهب: ج ٦ ص ٢٢٦، الأعلام: ج ٤ ص ١٥٠).

(٤) تقدّم تخريجه من قبل.

عندما تزور المقام النفيسي:

وجب على من يزور مقام كريمة الدارين السيّدة نفيسة رضي الله عنها أن يبدأ بصلاة ركعتين لله تعالى؛ تحيّةً لمسجدها، ثم يتّجه إلى ضريحها في خشوع، قال أبو موسى: دخلت إلى ضريحها فوضعت يدي على الضريح، فسمعت قائلاً يقول: أهكذا تدخل على بيت أهل النبوّة؟!

ثم يقول الزائر عند دخوله من باب الضريح[1]: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، إنّه حميد مجيد، اللّهمّ إنّك قد ندبتني إلى أمرٍ قد فهمته واعتقدته، وجعلته أجراً لنبيّك محمد ﷺ، الذي هديتنا به إليك، ودللتنا به عليك، فكان كما قلت: ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ حبيباً إليه ما هديتنا، عزيزاً عليه ما عنتّنا؛ وتلك الفريضة التي سألتها له وهي المودّة في القربى، اللّهمّ إنّي مؤدّيها، مريد النفع بها في ديني ودنياي، متوسّل إليك بها يوم انقطاع الأسباب، اللّهمّ زدهم شرفاً وتعظيماً، وهب لنا بزيارتهم مغفرةً وأجراً عظيماً.

السلام عليكم يا بني المصطفى، يا بني فاطمة الزهراء.

السلام عليك يا نفيسة العلم، يا كريمة الدارين وجناح الرحمة.

السلام على آل بيت رسول الله ﷺ، اللّهمّ صلِّ على محمد وآل بيت محمد، وعلى أصحاب محمد، وعلى أزواج محمد، وعلى ذريّة محمد، وسلّم تسليماً.

اللّهمّ بلّغني ما أمّلت وما رجوت، وأعد عليّ وعلى المسلمين من بركاتهم ونفحاتهم،

---

(١) كان الصحابة رضي الله عنهم إذا جاءوا قبر النبي ﷺ سلّموا عليه واستقبلوا القبلة ودعوا الله بما شاءوا، وكذلك يفعل الذين أنار الله بصائرهم في زيارة الأولياء، ويقول الله تعالى ﴿وأنّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾. ولذلك لا يجوز أن تتخذ جواز الوسيلة وحصول الشفاعة بالمبالغة في الطواف حولَ الأضرحة والتوسّل بها إلى قضاء الحاجات، بل تتّجه إلى القبلة وتدعو الله في هذا المكان الطاهر.
قيل للنبي ﷺ: أربّنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾. (منه)

يا ربّ العالمين، وسلام على عباده الذين اصطفى، والحمد لله ربّ العالمين.

وقال الموفّق بن عثمان: كان بعض السلف يزور السيّدة نفيسة رضي الله عنها، فيقول عند ضريحها:

السلام والتحيّة والإكرام والرضا من العليّ الأعلى على السيّدة نفيسة، سلالة نبيّ الرحمة، وشفيع الأُمّة، من أبوها علم العترة وهو الإمام حيدرة، السلام عليك يا بنت الإمام الحسن المسموم، أخي الإمام الحسين المظلوم، السلام عليك يا بنت فاطمة الزهراء، وسلالة خديجة الكبرى، رضي الله عنك وعن أبيك وعمّك وجدّك، وحشرنا الله في زمرتهم أجمعين، اللّهمّ بحقّ ماكان بينك وبين جدّها محمد ﷺ ليلة المعراج، إجعل لنا من أمرنا الذي نزل بنا باب انفراج، وأقضِ حوائجي - فإن كانوا جماعة، يقولون: وأقضِ حوائجنا - في الدنيا والآخرة، بمحمد وآله وصحبه أجمعين.

وكان بعضهم يدعو بدعاء آخر فيقول:

السلام والتحيّة والإكرام، على أهل بيت النبوّة والرسالة الكرام، السلام والرحمة على نفيسة بنت الحسن الأنور ابن زيد الأبلج ابن الحسن السبط ابن عليّ وابن فاطمة الزهراء رضي الله عنهم.

أنتم غياث لكلّ قومٍ في اليقظة والنوم، فلا يحرم فضلكم إلّا محروم، ولا يُطرد عن بابكم إلّا مطرود، ولا يواليكم إلّا مؤمن تقيّ، ولا يعاديكم إلّا منافق شقيّ، اللّهمّ صلّ على سيّدنا محمد وعلى آله، وأعطني خير مارجوت بهم، وبلّغني خير ما أمّلت فيهم، يا آل بيت المصطفى، إنّما السرور والسلامة فيكم، جئتكم قاصداً، فبالله اقبلوني، فقد حسبت عليكم، اللّهمّ:

إنّي ألوذُ بحبّ آل محمد ... أرجو لذلك رحمةَ الرحمن

مُنَى الدعاء بحبّهم لك دائماً يا دائم المعروفِ والغفرانِ[١]

وكان بعضهم يقف على ضريحها ويقول:

يـــا ربِّ إنّـــي مـــؤمن بـــمحمّدٍ وبآل بـــيتِ مـــحمّدٍ ومُـــوالي

فـــبحقّهم كـــن لي شـــفيعاً مُـــنقذاً مـــن فـــتنةِ الدنـــيا وشـــرِّ مآلي[٢]

وكان بعض السلف إذا دخل ضريحها قال:

إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، إنّه حميد مجيد. اللّهمّ إنّي نازل إليك بأعتابهم، متقرّب بولائهم، متذرّع بالطاهرين من رجالهم والطاهرات من نسائهم. اللّهمّ زدهم شرفاً وتعظيماً، وشرّفهم شرفاً حادثاً وقديماً، وهب لنا من زيارتهم مغفرةً وأجراً عظيماً.

السلام عليكم يا آل بيت المصطفى، يا بني فاطمة الزهراء، يا بني عليّ المرتضى، يا بني الحسن والحسين، يا أهل النبي، أنتم القوم لا يحرم من خيركم إلّا محروم، ولا يطرد من بابكم إلّا مطرود، ولا يواليكم إلّا تقيّ، ولا يعاديكم إلّا شقيّ. اللّهمّ صلّ على محمّدٍ وعلى آل محمّد، وعلى أصحاب محمّدٍ، وعلى أزواج محمّدٍ، وعلى ذريّة محمّد. اللّهمّ أنلني مارجوت بهم، وبلّغني ما أمّلت فيهم، وأعذ عليّ من بركات السعي إليهم، وهوّن عليّ موقفي بين يديك، بالوقوف بين أيديهم.

ثم يقرأ الفاتحة، ويدعو حاجته من أمر دنياه وأُخراه.

وكان بعض السلف، يقف أمام قبرها في خشوع ويقول:

السلام والتحيّة والإكرام على أهل بيت النبوّة والرسالة، السلام عليك يا بنت الحسن الأنور ابن زيد الأبلج ابن الحسن السبط ابن الإمام عليّ رضي الله عنهم أجمعين، السلام

---

(١) من زيارة مخصوصة ينقلها السخاوي في التحفة: ص ١١١ عن الخلعي.

(٢) المصدر السابق.

عليك يا بنت فاطمة الزهراء، ويا سلالة خديجة الكبرىٰ.

أنتم يا أهل البيت غياث لكلّ قومٍ في اليقظة والنوم، فلا يحرم من فضلكم إلّا محروم، ولا يطرد عن بابكم إلّا مطرود، ولا يواليكم إلّا مؤمن تقيّ، ولا يعاديكم إلّا منافق شقيّ. اللّهمّ صلِّ علىٰ سيّدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلّم، أعطني خير ما رجوت منهم، وبلّغني خير ما أمّلت فيهم، واحفظني بذلك في ديني ودنياي وأُخراي، إنّك علىٰ كلّ شيء قدير...، ثم يقول:

يا بني الزهراء والنور الذي ... ظَنَّ موسىٰ أنّه نارٌ قَبَس

لا أوالي الدهر من عاداكم ... إنّهم آخر سطرٍ في عبس[1]

يشير إلىٰ قوله تعالىٰ في آخر آي عبس: ﴿أُولئك هم الكفرة الفجرة﴾.

وقد قال بعض السلف الصالح من العارفين: من كان في شدّة وكرب وأراد تفريجه عنه، فليتوجّه لكريمة الدارين السيّدة نفيسة رضي الله عنها، وليقل عند قبرها بعد قراءة الفاتحة مرّة والإخلاص إحدىٰ عشرة مرّة وسبّح كذلك، ثم يقول:

كم حاربتني شدّةٌ بجيشها ... فضاقَ صَدري من لقاها وانزعجْ

حتّىٰ إذا أيستُ من زوالها ... جاءتني الألطافُ تَسعىٰ بالفَرجْ

ثماني عشرة مرّة، فإنّ الله سبحانه وتعالى يفرّج عنه كربه، ويقضي سؤاله.

قال المقريزي في خططه: وقبر السيّدة نفيسة رضي الله عنها أحد المواضع المعروفة بإجابة الدعاء بمصر، وهي أربعة مواضع: سجن نبي الله يوسف الصدّيق عليه السلام، ومسجد موسىٰ صلوات الله عليه، ومشهد السيّدة نفيسة رضي الله عنها، والمخدع الذي علىٰ يسار المصلّي في قبلة مسجد الأقدام بالقرافة[2].

---

(١) تحفة الأحباب: ١١٢ـ١١٣.

(٢) خطط المقريزي: ج ٤ ص ٣٢٥ـ٣٢٦.

ويقول السخاوي في تحفته: ولم يزل الصالحون والأئمة والفقهاء والقرّاء والمحدّثون والعلماء يزورون مشهد السيّدة نفيسة رضي الله عنها ويدعون عنده، وهو مجرّب بإجابة الدعاء[1].

وقال بعض الصالحين: إنّ الله تعالى وكلّ بقبرها ملكاً يقضي حاجات الناس، رضي الله عنها.

الشعراء وكريمة الدارين:

قال المرحوم الشيخ أحمد محمد الكناني ﷺ:

بهذي الرحاب رحاب الكرام ... أخنت ركابي فحاشا أُضام

وكيف وإنّي محبٌّ ولي ... بتلك المغاني هوىً وغرام

فما القلب يصبو إلى غيرها ... ورؤية عيني سواها حرام

إذا زاد سقمي وعزَّ الشفاء ... فقُربي منها يزيل السقام

وإن لم أُمتّع بها ناظري ... فأنّى لعيني طيب المنام

كلّفت صغيراً بتلك الربوع ... وقلبي يحنّ لتلك الخيام

وليس عجيباً فإنّ بها ... مقام نفيسة بنت الكرام

نفيسة ذات العلوم ومنْ ... من الله فازت بأعلى مقام

كشمس النهار كراماتها ... وكم من دليل على ذاك قام

فكم من أخي شقوة أمّها ... فعاد سعيداً ونال المرام

وكم من حزين أتاها فعا ... د قرير العيون علاه ابتسام

كفى بابن إدريس لي شاهداً ... على ما أقول وهذا إمام

---

(١) تحفة الأحباب: ص ١٠٤.

أســـــيّدتي إنّـــــني واقـــف ... بـــبابك أرجـــو وجـــودك عـــام
وليس مـــن الجـــود أنّـــي أعـــود ... بـــخفّي حـــنين وأنـــتم كـــرام
نـــعم إنّـــني لم أكـــن صـــالحاً ... وإنّ ذنـــــوبي عـــظام جســـام
ولكـــن نـــزلت بـــساحةٍ مـــن ... تـــجيب الضـــعيف إذا الدهـــر ضـام
فأنتِ رجـــــائي بـــــعد الإله ... ومـــن جـــاء هـــذ الحـــمىٰ لايُضام
وجـــدّك طـــه شـــفيع العـــصاة ... وغـــوث الخـــلائق يـــوم الزحـــام
عـــليه مـــن الله فـــي كـــلّ آن ... أجـــلّ الصـــلاة وأزكـــىٰ ســـلام

* * *

وقال الشيخ أحمد الحامي ﷺ في مدحها وزيارتها:

يـــا صـــاحِ إن رِمْتَ الحـــياة الفـــاخرة ... فأقـــصد حـــمىٰ بـــنت الكـــرام الطـاهره
ذات الكـــرامـــات المـــعظّمة التـــي ... أســـرارهـــا بـــين الخـــلائق ظـــاهره
وبـــها تـــوسّلْ وآحـــتمي بـــجوارهـــا ... وآذكـــر مـــصابك تـــلقها لك نـــاصره
فـــهي المـــنجية الشـــباب مـــن العـــذا ... ب مـــغيثة المـــلهوف شـــمس الدائـــره
كـــم جـــاءها ذوفـــاقةٍ يـــرجـــو الغـــنىٰ ... جـــبرت بـــتيسير المـــعايش خـــاطره
فـــاغنم وســـلْ بـــمقامها تُـــعطَ المـــنىٰ ... فـــعلى الدوام لزائـــريها حـــاضره
وآدخـــلْ وطـــفْ وآشـــعَ وسَـــلْ بتأدّبٍ ... مـــا تشـــتهيه ونـــادها يـــا طـــاهره
إنّـــي قـــصدتك مســـتغيثاً لائـــذاً ... مســـتعطفاً أهـــل القـــلوب العـــامره
حـــاشا وكـــلّا أن يـــضام نـــزيلكم ... أوأن يـــعود بـــصفقةٍ هـــي خـــاسره
يـــا كـــعبة الأســـرار جـــئتك لائـــذاً ... أبـــغي النـــدىٰ مـــن وكـــف كفٍّ عـــاطره
يـــا أُمّ قـــاسم الغـــياث فـــإنّني ... عـــبد ضـــعيف الحـــال يـــدي قـــاصره
دنـــف ومســـكـــين مـــهين عـــاثر ... مـــالي مـــعين قـــطّ عـــيني ســـاهره

يـــا بـــنت طـــه أنـــقذي مـــن لم يـــجد ... جـــاهاً ســـوىٰ ذي المـــعجزات الظـــاهره
المـــصطفى الهـــادي البشـــير مـــحمد ... مـــن يـــسرتجي كـــلُّ الأنـــام مآثـــره
صـــلّىٰ عـــليه الله مـــا بـــدرٌ زهـــا ... والآل والصـــحب النـــجوم الزاهـــره
أو مـــا اســـتغاث الحـــامي أحـــمد قـــائلاً ... يـــا صـــاحِ إن رِمْتَ الحـــياة الفـــاخره

* * *

ويقول الأُستاذ الفاضل أحمد فهمي محمد:

قِـــف لائـــذاً بـــسليلة الزهـــراء ... بـــنت النـــبي كـــريمة الآبـــاء
ذات العـــلا والمكـــرمات نـــفيسة ... بـــنت الأمـــير وســـيّد الكـــرماء
وكـــريمة الداريـــن ســـيّدة الحـــمىٰ ... غـــوث اللـــهيف وفـــرجة الغـــماء
فـــاقصدْ حـــماها راجـــياً متوسّلاً ... وارفـــعْ أكـــفّ ضـــراعة ودعـــاء
فـــهناك مـــهبط رحـــمة وشـــفاعة ... وبـــه يـــنابيع مـــن النـــعماء
الفـــيض فـــي جـــنباته ومـــقامها ... حـــرم مـــن البأســـاء والضـــرّاء
والنـــور يـــسطع فـــي حـــفافي قبرها ... نـــور النـــبوة فـــي ســـنىً وســـناء
فـــالله يـــنفعنا بـــها وبـــجدّها ... والله يكـــتبنا مـــع الســـعداء

* * *

وقال الإمام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري. صاحب البردة والهمزية رضي الله عنه. مادحاً السيّدة نفيسة وآل البيت رضي الله عنهم:

جـــنابك مـــنه تـــستفيد الفـــوائـــد ... وللـــناس بـــالإحـــسان مـــنك عـــوائـــد
فـــطوبىٰ لمـــن يـــسعىٰ لمشـــهدك الذي ... تكـــاد إلىٰ مـــغناه تـــسعى المشـــاهد
إذا مـــا أتـــاه القـــاصدون تـــيسّرت ... عـــليهم - وإن لم يـــألوك - المـــقاصد
تـــحقّقت البشـــرىٰ لمـــن هـــو راكـــع ... يـــرجـــىٰ بـــه فـــضلاً ومـــن هـــو ســـاجد

فعفّرتِ الشبّان والشيب أوجهاً ... به والعذارىٰ حسراً والقواعد

هو المنهل العذب الكثير زحامه ... فوروده فما دون وزدك ذائد

أتيت إليه والرجاء مخلأ ... فما عدت إلّا والمخلأ وارد

فيالك من يأس بلغت به المنىٰ ... وعسر لأقفال اليسار مقالد

ألذّ من الماء الزلال مواقعاً ... علىٰ كبّ الظمآن والماء بارد

سليلة خير العالمين نفيسة ... سمت بك أعراق وطابت محاتد

إذا جحدت شمس النهار ضياءها ... ففضلك لم يجحده في الناس جاحد

بآبائك الأطهار زيّنت العلا ... فحبّات عقد المجد منهم فرائد

ورثت صفات المصطفىٰ وعلومه ... ففضلكما ـ لولا النبوّة ـ واحد

فلم ينبسط إلّا بعلمك عالم ... ولم ينقبض إلّا بزهدك زاهد

معارف ما تنفكّ تفضي بسرّها ... إلىٰ ماجدٍ من آل أحمد ماجد

يضيء محياه كأنّ سناءه ... إلى الصبح سارٍ أوإلى النجم صاعد

إذا ما مضىٰ منهم إمام هدىً أتىٰ ... إمام هدى يدعو إلى الله راشد

تبلّج من نور النبوّة وجهه ... فمنه عليه للعيون شواهد

وفاضت بحار العلم من قطر سحبها ... عليه فطابت للرواء الموارد

رأىٰ زينة الدنيا غروراً فعافها ... فليس له إلّا على الفضل حاسد

كأنّ المعالي الآهلات بغيره ... ربوع خلت من أهلها ومعاهد

إذا ذكرت أعماله وعلومه ... أقرّ لها زيد وبكر وخالد

فقل لبني الزهراء والقول قربة ... لكلّ لسان فيهم أوحصائد

أحبّكم قلبي فأصبح منطقي ... يجادل عنكم حسبة ويجالد

وهل حبّكم للناس إلّا عقيدة ... علىٰ أسّها في الله تُبنى القواعد

وإنّ اعتقاداً خالياً من محبّةٍ ... وودٌّ لكم آل النبي لفاسد
وإنّي لأرجو أن سيلحقني بكم ... ولائي فيدنو المطلب المتباعد
فإنّ سراة القوم منهم عبيدهم ... وإنّ حروف النطق منها الزواد
فدتكم أُناس نازعوكم سيادةً ... فلم أدرِ سادات همُ أم أساود
أرادوا بكم كيداً فكادوا نفوسهم ... بكم وعلى الأشقى تعود المكايد
فإن حيزت الدنيا إليهم فإنّ من ... نفى زيفها سلماً إليهم لناقد
ولو أنّكم أبناؤها ما ابتكمو ... وما كان مولود ليأباه والد
إذا ما تذكّرت القضايا التي جرت ... أقضّت على جنبي منها المراقد
وجدّدت الذكرى على بلا سلا ... أُكابد منها في الدجى ما أُكابد
أفي مثل ذاك الخطب ما سلّ مغمّد ... ولا قام في نصر القرابة قاعد
تعاظم رزء فالعيون شواخص ... له دهشة والثاكلات سوامد
وطفّف يوم الطفّ كيل دمائكم ... إذ الدم جارٍ فيه والدمع جامد
فيا فتنة بعد النبي بها غداً ... تُهدم إيمان وتُبنى مساجد
وما فتنت بعد ابن عمران قومه ... بسما عبدوا إلّا ليهلك عابد
كذاك أراد الله منكم ومنهمو ... وليس له فيما يريد معاند
ولو لم يكن في ذاك محض سعادة ... لكم دونهم لم يغمد السيف غامد
وأنتم أُناس أذهب الرجس عنهم ... فليس لهم خطب وإن جلّ جاهد
إذا ما رضوا الله أوغضبوا له ... تساوى الأداني عندهم والأباعد
وسيّان من جمر العدا متوقّد ... على بهرمان الصدق منكم وخامد
وفدت عليكم بالمديح وكلّكم ... عليه كتاب الله بالمدح وافد
وقد بيّنت لي «هل أتى» كم أتى بها ... مكارم أخلاقٍ لكم ومحامد

فلولا تغاضيكم لنا في مديحكم ... لردّت علينا في العيوب القصائد
ولم أرتزق من غيركم بتجارةٍ ... بضائعها عند الأنام كواسد
عمدت لقوم منهم فكأنّني ... على عمدٍ لا يرجع القول عامد
أأطلب من قومٍ سواكم مساعداً ... وقد صدّهم حرمانهم أن يساعدوا
ومن وجد الزند الذي هو ثاقب ... فلن يقدح الزند الذي هو صالد
وحسبي إذن مدح ابنة الحسن التي ... لها كرماً: مجد طريف وتالد
وإنّي لمهدٍ من ثناني قلائداً ... إليها حلال هديها والقلائد
هي العروة الوثقى هي الرتب العلا ... هي الغاية القصوى لمن هو قاصد
كأنّي إذا أنشدت في الناس مدحها ... لما ضلّ من ذكر المكارم ناشد
أسيّدتي إنّي رجوتك معلناً ... بما أنا من درّ المناقب الناضد
وأعين آمالي إليك نواظر ... بما أنا من عادات فضلك عائد
وما أجدبت قوم أتى من لدنهم ... لمرعى الأماني من جنابك رائد
ولولا ندىً كفّيك ما اخضرّ يابس ... ولا اهتزّ من أرض المكارم هامد
إلى الله أشكو يا بنة الحسن الذي ... لقيت وإنّي إن شكوت لحامد
وما لي لا أشكو لآل محمدٍ ... خطوباً بها ضاقت على المراصد
وما لصروف الدهر عنّي صارف ... وما لهموم القلب عنّي طارد
تسلّط شيطان من النفس غالب ... عليّ وشيطان من البؤس مارد
فياويح قلب ما يزال سماؤه ... بها لشياطين الخطوب مقاعد
فياسامع الشكوى ويا كاشف البلى ... إذا نزلت في العالمين الشدائد
ويا هادي الطفل الرضيع ولم تشب ... إليه قوى عقلٍ ولا اشتدّ ساعد
ويا من سقى الوحش الظماء وقدحمت ... مواردها من أن تنال المصائد

ويا من يزجي الفلك في البحر لطفه ... وهنّ جوار بل وهنّ رواكد

ويا من هو السبع الطوابق رافع ... ومن هو للأرض البسيطة ماهد

ويا من تنادينا خزائن فضله ... إلى رفده إن أمسك الفضلَ رافد

فلا باب من تلك الخزائن مغلق ... ولا خير من تلك الخزائن نافد

دعوناك من فقر إليك وحاجة ... وكلٌّ بما يلقاه للصبر فاقد

وأفضَت بما فيها إليك ضمائري ... وأنت على ما في الضمائر شاهد

دعوناك مضطرّين يا ربّ فاستجب ... فإنّك لم تُخلّف لديك المواعد

فليس لنا غوث سواك وملجأ ... نراجعه في كربنا ونعاود

فقدّر لنا خير الذي أنت أهله ... فما أحدٌ عمّا تقدّر حائد

وصفحاً عن الذنب الذي هو سابق ... لنارك ـ إلّا إن عفوت ـ وقائد

وصلْ حبلنا بالمصطفى إنّ حبله ... لنا صلة يا ربّ منك وعائد

عليه صلاة الله ما حمد السرى ... إليه وذلّت للمطى فدافد

* * *

خاتمة

أختتم كتابي هذا راجياً من المولى العليّ القدير أن يكون قد وفّقني، وأن أكون عند حسن ظنّ القارئ الكريم. كما أسجد شكراً لله سبحانه وتعالىٰ على توفيقي في كتابته، وفي إخراجه بالصورة التي يراها القارئ بين يديه.

وكم كنت أرجو أن أتوسّع في الكتابة عن السلالة الطاهرة بقية أهل البيت، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، خصوصاً العقيلة الطاهرة السيّدة زينب بنت الإمام عليّ رضي الله عنهما، لأنّها سليلةٌ من سلالة النبوّة، وفرعٌ من شجرة الرسالة، وعضوٌ من أعضاء الرسول، وجزءٌ من أجزاء الوصيّ والبتول. فهي كريمة النبعتين، عريقة الطرفين، وقد أشرت في عدة مناسبات إلىٰ شجاعتها النادرة وصبرها المنقطع النظير، ولكنّي فضّلت أن أترك هذا الموضوع إلى الصديق الكريم الأُستاذ علي شلبي رئيس مجلس إدارة مسجد السيّدة زينب رضي الله عنها.

أمّا الموضوع الأخير في هذا الكتاب، وهو الفصل الخاصّ بكريمة الدارين السيّدة نفيسة رضي الله عنها، فقد أبرزته كما وعدت في المقدّمة، لأنّي من مريدي كريمة الدارين، أتبارك بزيارة ضريحها الطاهر، وأتفاءل بالصلاة والدعاء في مسجدها المبارك الذي أتشرّف برئاسة مجلس إدارته.

وأرجو من الله سبحانه وتعالىٰ أن يوفّقني في إخراج الجزء الثاني في القريب العاجل إن شاء الله تعالىٰ.

وأُقدّم جزيل شكري إلى كلّ من تفضّل فأمدّني بالمراجع التي رجعت إليها، وأخصّ بالذكر الأُستاذ يحيىٰ صبري أبو علم، فقد أمدّني بكثير من المراجع النادرة من خزانة كتبه، وشكراً جزيلاً لرائد التجاريّين الديني الأُستاذ حسن الملطاوي. والله وليّ التوفيق.

والحمد لله ربّ العالمين.

توفيق أبو علم

المحتويات

مقدّمة المجمع ٥

كلمة المحقّق ٧

خصائص رفيعة: ١٠

مسيرتان و.. صراع ١١

قادة مثاليّون ١١

ثروات غزيرة ١٣

جامعة إسلامية ١٥

تجليل وتقديس ١٥

خلاّقية ممتدة ١٨

مواقف خالدة ٢١

الركن الوثيق ٢٢

سفينة النجاة ٢٣

شعبية متواصلة ٢٥

مؤلّفات تصدح بحبّهم ٢٧

اهتمامات معاصرة ٣٧

هذا الكتاب ٤٢

مقدّمة المؤلّف ٤٧

السيّدة نفيسة رضى الله عنها ٥٣

مولدها ولماذا سمّيت باسم (نفيسة)؟ ٥٧

عمّة السيدة نفيسة في مصر ٥٧

والدها ٥٨

أُمّها ٦٣

جدُّ السيّدة نفيسة ٦٧

السُّنّة وأهل البيت (ع) ١١٣

في فضل قرابة رسول الله(ص) ١١٣

وصيّة الرسول(ص) في أهل بيته(ع) ١١٥

أهل البيت مكان الرأس من الجسد ١١٦

أساس الإسلام حبّ أهل البيت(ع) ١١٧

الاقتداء بأهل البيت(ع) ١٢١

السيدة نفيسة رضي الله عنها ٢٣١

أهل البيت لا يُقاس أحد بهم ١٢٢

الحثّ على حبّ أهل البيت والزجر عن بغضهم ١٢٢

الرسول أوّل من يشفع لآل البيت يوم القيامة ١٢٦

أهل البيت مثل سفينة نوح ١٢٧

وجوب محبّة أهل البيت وإكرامهم وتوقيرهم والتمسّك بهم ١٣٠

حديث الثقلين ١٣٥

جدّ السيّدة نفيسة زعيم أهل البيت(ع) ١٤١

من مكّة إلى المدينة ١٤١

إسحاق المؤتمن ١٤١

نفيسة العلم ١٤٤

أخلاقها ١٥١

من بلد الرسول إلى القاهرة ١٥٣

أولياء الله وكرامتهم ١٥٨

منكرو الكرامات ١٦٨

سبعة أولياء في مصر لهم الكرامة ١٧٠

الكرامات وروح العصر ١٧٧

كرامات السيّدة نفيسة ١٨٣

كراماتها بعد وفاتها ١٨٩

الإمام الشافعي بمصر ١٩٥

علماء حول كريمة الدارين ١٩٩

واقعة أحمد بن طولون ٢١٠

كريمة الدارين تحفر قبرها في دارها ٢١٢

عندما تزور المقام النفيسي ٢١٦

الشعراء وكريمة الدارين ٢٢٠

خاتمة ٢٢٧

محتويات الكتاب ٢٢٩